لهب على الجبل الشامخ

و قصص أخرى

عن الجيش الأحمر الصيني

دار النشر باللغات الاجنبية

بكين ١٩٥٩

طبع في جمهورية الصين الشعبية

نسخه للإنترنيت

الصوت الشيوعي

https://sites.google.com/site/communistvoice

communistvoice@yahoo.com

مقدمة

بقي الشعب الصيني قرونا عديدة مستغلا و مضطهدا من قبل الحكام الاقطاعيين، و بعد ان غزا المستعمرون الصين ازدادت آلامه. ولكن الشعب الصيني لم يركع ابدا. لقد قاوم بضراوة، و بشكل خاص في المرحلة الاخيرة من ماضي الصين التي كانت شبه مستعمرة و شبه اقطاعية، فقد قاتل كرجل واحد تحت قيادة الحزب الشيوعي الصيني ليسحق على التوالي، الهجمات المشتركة التي قام بها المستعمرون وصنائعهم الاقطاعيون والرأسماليون الكومبرادوريون و البيروقراطيون.

و لقد خاض الشعب الصيني نضاله الباسل متغلبا على مصاعب ليس لها مثيل، وان اعماله البطولية هي ملاحم لن تنسى. و قد طلب الينا الكثيرون من قرائنا الاجانب نشر هذه القصص رغبة منهم في معرفة المشقات و المصاعب التي تكاد الا تصدق و التي واجهها الشعب الصيني، و كيف تغلب عليها جميعها في النهاية و احرز النصر. و نحن ننشر الآن اجزاء من القصص المختارة المستندة الى التجارب الشخصية كتبها اناس اشتركوا في النضالات. و ستصدر اجزاء اكثر من مثل هذه القصص فيما بعد.

ان القصص التي يتضمنها هذا الجزء هي عن جيش العمال و الفلاحين الاحمر الصيني خلال مرحلة الحرب الاهلية الثورية الثانية (١٩٢٧ – ١٩٣٧). و من اجل تعريف قرائنا بالظروف العامة لهذه القصص نقدم هنا تاريخا مختصرا عن تأسيس جيش العمال و الفلاحين الاحمر الصيني و نضاله خلال هذه المرحلة. ((ان قصص المسيرة الطويلة التي حدثت في هذه المرحلة ايضا، لا يضمها هذا الجزء. و ستصدر تحت عنوان ''قصص عن المسيرة الكبرى'')).

لقد كان عام ١٩٢٧ هو العام الثاني للحملة الشمالية التي قامت بها الحكومة الثورية التي تأسست في كانتون من الحزب الشيوعي و الكومنتانغ. و قد سَحق

جيش الحملة الشمالية امراء الحرب واحدا بعد الآخر، و بسرعة، جَعل وادي اليانغتسي تحت سيطرته، و في الوقت نفسه بدأ الزحف نحو حوض النهر الاصفر. و قد نهض العمال و الفلاحون، تحت قيادة الحزب الشيوعي، نهضوا للقتال ضد امراء الحرب الاقطاعيين، و الموظفين الفاسدين، و الطغاة المحتليين و الاقطاعيين. و قد قدموا لجيش الحملة الشمالية كل تأييد.

و في هذه اللحظة الدقيقة و عندما كان النصر باديا للعيان تحول الرجعيون الكومنتانغ ضد الثورة. و عندما وصلت طغمة الكومنتانغ التي يتزعمها جيانغ كاي تشك الى شنغهاي، وضعت يدها على الفور بايدي المستعمرين و القوى الاقطاعية و البرجوازية الكومبرادورية. و في ١٢ نيسان ١٩٢٧ بدأ جيانغ كاي تشك مجزرته الرهيبة لافناء العمال الثوريين. و قد أُعطِيَت الاوامر السرية لقواته في عدة انحاء من البلاد للقضاء على الشيوعيين المعروفيين و على كل من يشتبه بانه ثوري و للتنكيل بالنقابات، و نزع سلاح شرطة العمال و استئصال شأفة منظمات الفلاحين و وسط بحر من دماء الشعب الصيني البطل ظهرت الحكومة المعادية للثورة برئاسة جيانغ كاي تشك، و هي الاداة الطيعة في ايدي المستعمرين، و الممثلة الوحشية للقوى الاقطاعية و البرجوازية الكومبرادورية و التي ذبحت على اوسع نطاق مئات الالوف من احسن و ابسل ابناء الشعب الصيني.

و كان تشن تو شيو[١] اذ ذاك هو قائد الحزب الشيوعي الصيني فاتخذ خط الانتهازية اليمينية[٢]. و عندما ووجه بالنشاطات الغادرة التي قام بها جيانغ كاي تشك قام بمساومات و قدم تنازلات[٣]. و بدلا من تجنيد الجماهير للنضال ضد الرجعيين، وبخ حركات العمال والفلاحين ''لتطرفها''، و في سيره في اعقاب

---

[١]- تشن تو شيو: هو مؤسس الحزب الشيوعي الصيني. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

[٢]- حاولت القيادة الماوية السابقة للحزب الشيوعي الصيني في عهد ماو تسي تونغ، وعن قصد تزوير التأريخ للتستر على اخطاء ستالين من خلال تحميل تشن تو شيو مسؤولية الهزيمة التي تعرض لها الشيوعييون الصينيون خلال الفترة ١٩٢٧ – ١٩٢٨ متناسية ان تشن تو هسيو لم يكن يعمل سوى تنفيذ اوامر الكومنتيرن التي يقف ورائها ستالين. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

[٣]- لقد قام تشن تو شيو بكل ذلك تنفيذا منه لتوجيهات الكومنتيرن التي كان ستالين ورائها. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

الرجعيين كبح الحركة الجماهيرية، و نتيجة لذلك، فعندما هوجِمت القوى الثورية بغدر و على حين غرة لحقت بها الهزيمة.

و دخلت الثورة الصينية في مرحلة عسيرة جدا، فاستنادا لاحصائات جمعية الاسعاف الاحمر الصينية فقد ذبحت الحكومة الرجعية التي يقودها جيانغ كاي تشك ٤٥٠ الفا من الشيوعيين و العمال و الفلاحين ما بين ١٩٢٨ و ١٩٢٩، و ذبحت ١٤٠ الف شيوعي خلال الاشهر الثلاثة من آب الى تشرين الاول عام ١٩٣٠[٤]. و اصبح شعب البلاد كلها تحت حكم هذا الارهاب الابيض، و أرغمت جميع النقابات الثورية على العمل سرا، و قد ذُبح عدد لا يحصى من العمال. و قدر بان ثمانية عمان من كل عشرة ممن تمرسوا في الكفاح قد ذُبحوا او طُردوا من اعمالهم. و قد جُردَ العمال من جميع الحقوق الاقتصادية و الديموقراطية التي احرزوها خلال الثورة. وخُفِضَت الاجور الى الحد الادنى، وزيدت ساعات العمل و غدت احدى عشرة ساعة في اليوم، و ألغيت ايام العطل. و بالاضافة الى ذلك كان الجواسيس و رجال البوليس و الجنود يرابطون في المعامل لمراقبة العمال و ارهابهم.

و في الريف، و في ظل حكم جيانغ كاي تشك المعادي للثورة اخذ الطغاة و الاقطاعيون ينهبون الفلاحين و يتجبرون بهم، و فرضوا عليهم ايجارات باهظة و فوائد فاحشة. و قد زادت حكومة الكومنتانغ الرجعية الضرائب على الارض و الضرائب الزراعية، و غرق الفلاحون في وهدة الدين و البؤس و المشقة.

و في تلك الايام المظلمة هجر الثورة، لا البرجوازية الوطنية فحسب بل الفئات العليا من البرجوازية الصغيرة. و هناك اعداد كبيرة من المثقفين ممن هم من اصل

---

[٤]- نرجو من القاريء الكريم التركيز على الارقام و ملاحظة قصر الفترات الزمنية التي تم خلالها سفك كل هذه الدماء البشرية. وهنا نود ان نتسائل: أين هي حقوق الانسان؟ و ما هو موقف الغرب الرأسمالي من هذه المذابح؟ و لماذا لا يتحدث عنها المؤرخون الغربيون في الوقت الذي يقيمون الدنيا و لا يقعدونها بالضجيج الذي يثيرونه حول ''ضحايا الشيوعية''؟ أليس في هذا نفاق؟ ان ''ضحايا الشيوعية'' ليسوا في واقع الامر إلا اعداء الشعوب من السفاحين و القتلة و الجزارين من على شاكلة الديكتاتور جيانغ كاي تشك والذين لا ينفع في التعامل معهم غير الرد بقمعهم بنفس اساليبهم. افلا يحق للعمال و الفلاحيين وطليعتهم الشيوعية ان ترد على قمع هؤلاء بقمع مناظر؟ نعم ان لهم كل الحق في ذلك. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

برجوازي صغير، و الذين كانوا قد انضموا الى الحزب و لكن كان ينقصهم الحزم قد اعلنوا انسحابهم من الحزب، و لكن الحزب الشيوعي البطل و الثوريين الصينيين هم كما قال الرفيق ماو تسي تونغ: ((لم يهول عليهم، ولم يستسلموا، و لم يبادوا. لقد نهضوا على اقدامهم مرة اخرى، و مسحوا لطخات الدماء، و واروا التراب رفاقهم الذين سقطوا، و واصلوا النضال.))

و من اجل انقاذ الثورة من الهزيمة قاد شو ان لاي و تشوته و هولونغ ويه تنغ و آخرون في الاول من آب عام ١٩٢٧ قادوا انتفاضة مسلحة في نان تشانغ في مقاطعة كيانغسي، و بدلا من الانضمام الى حركة الفلاحين في كيانغسي ساروا جنوبا الى مقاطعة كوانغ تونغ. و نتيجة للخسائر الجسيمة تناقصت قوتهم الى حد كبير.

و من اجل انقاذ الثورة اصدر الحزب بعد مؤتمر طارىء عقد في ٧ آب ١٩٢٧ اصدر نداء الى الفلاحين لشن انتفاضات حصاد الخريف. و بعد المؤتمر ذهب الرفيق ماو تسي تونغ الى غربي كيانغسي و شرقي هونان حيث قاد قسما من الفلاحين و العمال و جنود جيش الحملة الشمالية قادهم في انتفاضات و كون مفرزة من جيش العمال و الفلاحين الثوري و بعد عدة معارك ضارية قاد هذه المفرزة الى منطقة جبل تشنغ كانغ الواقعة على حدود مقاطعة كيانغسي و هونان، و اسس هناك اول قاعدة ثورية.

و نظم الحزب ايضا انتفاضات مسلحة في شرقي هوبيه و في شرقي و جنوبي هونان و في مدينة كانتون و في شرقي كوانغتونغ و في جزيرة هاينان و في اماكن اخرى.

و كان يقود انتفاضات الفلاحين في جنوبي هونان تشوته و لين بياو و تشون يي و آخرون و اللذين قادوا الى جنوبي هونان بعض القوات التي اشتركت في انتفاضة نان تشانغ و التي نجت بعد الهزيمة في كوانغ تونغ. و ازدادت هذه القوة بسرعة و اصبحت ٩٠٠٠.

و في نيسان ١٩٢٨ قاد تشوته مفرزته الى منطقة جبل تشنغ كانغ للانضمام الى القوات التي كانت تحت قيادة ماو تسي تونغ. و اندمجت هاتان القوتان اللتان كانتا تضمان ٢٠ الف مقاتل اندمجتا و كونتا الجيش الرابع في جيش العمال و الفلاحين الاحمر الصيني. و قد نظم الجيش الرابع حركات الانصار في المقاطعات المحيطة بمنطقة جبل تشنغ كانغ، و قاد الفلاحين في توزيع الارض و اقام السلطة السياسية للعمال و الفلاحين. و بعد رد ثلاث هجمات قام بها امراء الحرب في هونان و كيانغسي.

و خلال هذه المرحلة، تحت قيادة الحزب، تطورت حركات الانصار و الثورة الزراعية كيانغسي و فوكين و هونان و هوبيه و كوانغتونغ و اماكن اخرى. و قد تأسست عدة مفارز جديدة من الجيش الاحمر و عدة قواعد ثورية جديدة. و في عام ١٩٢٩ تقدم الجيش الاحمر تحت قيادة ماو تسي تونغ و تشوته الى جنوبي كيانغسي و غربي فوكين و اسس القاعدة الثورية المركزية و مركزها جوى تشين في كيانغسي.

ان زحف الجيش الاحمر تحت قيادة الرفيق ماو تسي تون غالى منطقة جبل تشنغ كانغ له اهمية تاريخية هائلة. و قد اشار الرفيق ماو تسي تونغ في مقاله ((لماذا تستطيع السلطة السياسية الحمراء في الصين البقاء؟)) الذي نشر في تشرين الاول ١٩٢٨، اشار الى انه في بلد شبه مستعمر كالصين التي كانت تحت حكم أستعماري غير مباشر، فان الانقسامات بين امراء الحرب و الحروب المستمرة فيما بينهم قد خلقت فجوات في الحكم الرجعي و التي سمحت بظهور و بقاء السلطة السياسية الحمراء في المناطق الريفية بالرغم من تطويق السلطة السياسية البيضاء. و كان باستطاعة القواعد الثورية الريفية بعد نضال طويل الامد ان تتطور و تتوسع تدريجيا لو كانت معارك الجيش الاحمر و الثورة الزراعية و بناء القواعد الثورية الريفية متناسقة بصورة حسنة. و كانت الخطوات الاخرى ستكون تطويق المدن و احراز النصر الشامل.

و فيما بعد، اصبح تأسيس القواعد الثورية و شن الحروب الثورية التي قادها الحزب المحتوى الرئيسي للنضال الثوري في المرحلة الجديدة. و في هذه المرحلة فان الرفيق ماو تسي تونغ لم يرسم الخط العام لتطور الثورة في مرحلة الحرب الاهلية الثورية الثانية فحسب، و لكنه ايضا قدم مساهمات هامة في مسائل السياسة. و في حقل الثورة الزراعية وضع الرفيق ماو تسي تونغ واتبع بحزم خط الاعتماد على الفلاحين الفقراء و العمال الزراعيين، و الاتحاد مع الفلاحين المتوسطين و تثبيط الفلاحين الاغنياء، و حماية الصناعيين و رجال الاعمال المتوسطين و الصغار و تصفية الطبقة الاقطاعية فقط.

و عسكريا، وضع الرفيق ماو تسي تونغ مباديء اساسية مثل: على الجيش الاحمر ان يكون داعية و منظما للحزب و سلطة الدولة الشعبية و للاصلاح الزراعي و لكل عمل محلي آخر، و ان على الجيش الاحمر ان يطور بين صفوفه عملا سياسيا قويا و ضبطا جماهيريا صارما، و ان الحرب التي يشنها الجيش الاحمر يجب ان تكون حربا شعبية، تعتمد على الجماهير، و ان تكون حرب الانصار – او الاعمال الحربية المتحركة التي لها صفة حرب الانصار – شكلها الرئيسي في القتال في ذلك الوقت، اي انه يجب على الجيش الأحمر ان يقوم بحرب طويلة الامد ستراتيجيا، اما تكتيكيا فعليه ان يخوض معارك ذات قرار سريع، و ان عليه في الاحوال العادية ان يبعث بقوات لتجنيد الجماهير و عليه في وقت المعركة ان يركز قوى متفوقة لتطويق العدو و ابادته.

في عام ١٩٣٠ تعاظم الجيش الاحمر في البلاد كلها و اصبح نحو ٦٠ الفا. و في العام نفسه و بعد ذلك بقليل أسست قواعد ثورية في فوكين و انهوى و كيانغسي و شنسي و كانسو و مقاطعات اخرى و في جزيرة هاينان.

لقد كان التطور السريع للجيش الاحمر صدمة هائلة لجيانغ كاي تشك. و نحو عام ١٩٣٠ شن حملة تطويق واسعة النطاق ضد القاعدة الثورية المركزية في كيانغسي. و قد قام جيش العمال و الفلاحين الاحمر الصيني، متبعا المباديء الستراتيجية و

التكتيكية الصحيحة التي وضعها الرفيق ماو تسي تونغ قام بابادة ثلاث حملات تطويقية شنها العدو ما بين كانون الثاني و ايلول في عام ١٩٣١. و نتيجة لذلك تعاظمت قوة الجيش الاحمر باستمرار و توسعت القواعد الثورية.

و في هذا الوقت بالضبط شدد المستعمرون اليابانيون عدوانهم ضد الصين. و في ١٨ ايلول عام ١٩٣١ زحفت القوات اليابانية الى شنيانغ ((مكدن)). و كانت سياسة حكومة جيانغ كاي تشك عدم ابداء اية مقاومة لليابان، و بدلا من ذلك ضاعفت حملتها ضد الشيوعيين و شددت الارهاب الفاشستي. و قد احتلت اليابان بسرعة الشمال الشرقي كله. و في كانون الثاني ١٩٣٢ غزت شنغهاي. و في عام ١٩٣٣ احتلت مقاطعة جيهول و الجزء الشمالي من مقاطعة تشاهار. و في عام ١٩٣٥ احتلت الجزء الشرقي من مقاطعة هابي.

و هكذا اصبحت مقاومة اليابانيين المهمة الملحة و المطلب الشامل للشعب الصيني. و قد اكتسبت الحركات التي قام بها العمال و الفلاحون و الطلاب ضد الاستعمار الياباني اكتسبت قوة دفع في كل انحاء البلاد. و كان الحزب الشيوعي اول من دعا للمقاومة المسلحة. و قد قاد او قام بدور فعال في الحركة الشعبية المعادية لليابانيين التي شملت البلاد كلها و في حرب الانصار ضد اليابانيين التي شنها الشعب في الشمال الشرقي.

و في كانون الثاني عام ١٩٣٣ صرح جيش العمال و الفلاحين الاحمر الصيني بانه بشرط ايقاف الهجمات على الجيش الاحمر و اعطاء الشعب الديموقراطية و السلم و تسليح الجماهير، فان الجيش الاحمر راغب في التعاون مع جميع القوات لغرض المقاومة المشتركة للغزاة اليابانيين، و كان جواب جيانغ كاي تشك على هذا النداء الذي وجهه الجيش الاحمر هو انه شن في شباط ١٩٣٣ حملة التطويق الرابعة ضد الجيش الاحمر. و قد احرز الجيش الاحمر، مسترشدا بخطط الرفيق ماو تسي تونغ، احرز مرة اخرى انتصارات عظيمة في هذه الحملة المضادة للتطويق.

و في تشرين الاول ١٩٣٣ شن جيانغ كاي تشك حملة التطويق الخامسة بقوة عددها مليون. و بسبب الخط العسكري الخاطىء كليا و هو البقاء في حالة الدفاع فقط، و بسبب سياسات خاطئة اخرى كان يتبعها فريق من الانتهازيين ''اليساريين'' يرأسه تشن شاو يو و تشن بانغ شيين في المنطقة المركزية و التي تسير في خط معاكس للخط العسكري الصحيح الذي وضعه ماو تسي تونغ، بسبب هذا فشل الجيش الاحمر في سحق تطويق العدو.

و في تشرين الاول ١٩٣٤ اخترق الجيش الاحمر المركزي النطاق المضروب حوله و انسحب من قاعدته في مقاطعة كيانغسي و بدأ المسيرة الطويلة الشهيرة. و ما عدا وحدات الجيش الاحمر في شمالي شنسي، فان وحدات الجيش الاحمر في مختلف الاماكن الاخرى قد انسحبت ايضا من قواعدها الاصلية واحدة بعد الاخرى و سارت في المسيرة الطويلة و عندما بدأت القوى الرئيسية للجيش الاحمر بالسير تركت خلفها جزء من القوات لمواصلة حرب الانصار في ثماني مقاطعات.

و اثناء المسيرة الطويلة عقد اجتماع موسع للمكتب السياسي للجنة الحزب المركزية في كانون الثاني عام ١٩٣٥ في تسون يي في مقاطعة كونشو. و قد ازاح الاجتماع الانتهازيين ''اليساريين'' من قيادة الحزب و وضع الرفيق ماو تسي تونغ في مركز القيادة في الحزب.

و في تشرين الاول ١٩٣٥ وصل الجيش الاحمر المركزي الى شمالي شنسي و توحد مع وحدات الجيش الاحمر هناك بعد ان تغلب على مصاعب لا تحصى و كذلك على عقبات طبيعية مختلفة و بعد ان قطع احدى عشرة مقاطعة. و اتم المسيرة الطويلة التي قطع فيها ٢٥ الف لي[٥].

و في الوقت نفسه كان اليابانيون قد وطدوا احتلالهم و قاموا بكثير من الهجمات على شمالي الصين. و في ٩ كانون الاول ١٩٣٥ قام طلاب بكين بمظاهرة تدعو الى مقاومة اليابان و انقاذ الصين. و قد انتشرت هذه الحركة بسرعة الى البلاد كلها

٥- لي يساوي نصف كيلو متر تقريبا.

و كان هناك نهوض جديد لمقاومة اليابان و النضال في سبيل الديموقراطيةز و في تشرين الاول ١٩٣٥ رسم قرار للجنة المركزية للحزب الشيوعي سياسة اقامة جبهة وطنية متحدة ضد الاستعمار الياباني.

و من اجل تنفيذ قرار الحزب سار الجيش الاحمر شرقا من شمالي شنسي في شباط ١٩٣٦ و استعد للذهاب الى الجبهة لقتال الغزاة اليابانيين.

و في ايار ١٩٣٦ بعث الجيش الاحمر ببرقية عديدة النسخ الى الكومنتانغ يقترح فيها ايقاف الاعمال العدائية و القيام بمفاوضات من اجل السلم و القيام بعمل مشترك ضد اليابانيين. و قد قبل جيش الكومنتانغ الشمالي الشرقي الذي كان تحت امرة تشانغ شويه ليانغ و جيش الطريق السابع عشر التابع للكومنتانغ و الذي كان تحت امرة يانغ هو تشنغ قبلا الاقتراح و عقدا هدنة محلية مع الجيش الاحمر الذي أرسلا للقتال ضده. و في ١٢ كانون الاول ١٩٣٦ قام تشانغ شويه ليانغ و يانغ هو تشنغ باعتقال جيانغ كاي تشك في سيآن و قدما ثمانية مطالب و ارغماه على وضع حد للحرب الاهلية المعادية للشيوعية. و بسبب الازمة الوطنية الخطيرة في ذلك الوقت اعلن الحزب الشيوعي بان الوحدة من اجل مقاومة العدوان الياباني هي القضية الحيوية. و بعد ان بذل الحزب جهودا جدية سويت حادثة سيآن سلميا. و كانت النتيجة انتهاء الحرب الاهلية التي استمرت عشر سنين، و تحقق السلم الداخلي و بدأت المقاومة ضد العدوان الياباني.

و في هذه الظروف الصعبة فوق العادة كون الحزب الشيوعي جيش العمال و الفلاحين الاحمر – الجيش الذي هو جيش الشعب حقا ان الجيش الاحمر لم يخدم مصالح الشعب من اعماق قلبه فحسب لكنه كان ايضا يسترشد بالنظام السياسي و بالستراتيجية و التكتيك التي يتطلبها جيش الشعب. و كان هذا الجيش هو الذي وضع اسس النصر في الحرب ضد اليابانيين.

محتويات

العلم الأحمر فوق جبل

تشنغ كانغ

بقلم هو تشانغ كنغ

الاخفاق الاول

في تموز من عام ١٩٢٧ و عندما كنت قائد سرية في لواء الحرس في الجيش الثوري الوطني المرابط في ووهان، وصلتنا انباء انتفاضة نان تشانغ. و قد تحرك لواؤنا و بعض القوات الاخرى التي كانت جميعها تحت قيادة الرفيق لو ته منغ و هو عضو في الحزب الشيوعي تحركت باتجاه نان تشانغ للاشتراك في الانتفاضة. و في الطريق علمنا بان القوات الثائرة قد اتجهت الى الجنوب و كان علينا ان نتحول الى الخلف الى شيوشوى على حدود مقاطعات هونان و هوبيه و كيانغسي. و في ذلك الوقت اتصلت لجنة الحزب الشيوعي في مقاطعة هونان بقواتنا التي كانت قد نظمت للاشتراك في انتفاضة حصاد الخريف في المنطقة الواقعة في شرقي هونان و غربي كيانغسي.

و حالما وصلنا شيوشوى تلقينا تعليمات من لجنة الحزب المركزية لاعادة تنظيم قواتنا و جعلها الفرقة الاولى في الجيش الاول من جيش العمال و الفلاحين الثوري و ان تكون الفرقة تحت قيادة الرفيق لو ته منغ. و باندماجنا مع القوات المسلحة المحلية فقد انتظمنا في اربعة الوية. و عند اتمام اعادة التنظيم و ذلك في نحو منتصف آب ١٩٢٧ رُفِع العلم الاحمر الاول لجيش العمال و الفلاحين الثوري في محافظة شيوشوى في مقاطعة كيانغسي.

و بعد ذلك بقليل حدثت انتفاضة حصاد الخريف في المنطقة الواقعة في شرقي هونان و غربي كيانغسي. و كان هدف الجيش هو ((تشانغ شا)) عاصمة مقاطعة هونان. و في طريقنا محقنا عددا من قوات الاقطاعيين المسلحة. و لكن اتجاه الحرب تحول ضدنا و وقعت بنا بعض الخسائر. و تحركنا في اتجاه ون تشياشه في محافظة ليويانغ.

و كنا في وضع حرج عندما ارسلت لجنة الحزب المركزية الرفيق ماو تسي تونغ لتوجيهنا. و في الطريق اعتقلته قوة اقطاعية مسلحة عندما كان يمر قرب ون تشاشه و لم يعرف الرجعيون من هو. و قد اصابهم الفزع لدى اقتراب قواتنا فارسلوا الرفيق ماو تسي تونغ الى ليويانغ بحراسة رجلين من قواتهم، و في ليويانغ بحراسة رجلين من قواتهم، و في ليويانغ كان من الممكن ان يُعرَف و ستكون حياته في خطر. و في الطريق اخذ الرفيق ماو تسي تونغ يتحدث مع هذين الحارسين و وجد بان كليهما في الاصل فلاحان فقيران. فتحدث اليهما عن كيف ان باستطاعة الفلاحين ان ينهضوا لتحسين حياتهم. و قد تأثر احد الجنديين تأثرا عميقا. و قد ضمن الرفيق ماو تسي عطفه. و عندما غاب انتباه الحارسين مؤقتا نجا الرفيق ماو تسي تونغ بان قفز في مستنقع و بقي مختبئا حتى حلول الظلام.

و وصل سالما بعد ان تسلق عدة جبال. و قد كان منهوك القوى تقريبا عندما وصل الينا.

اني اذكر الوقت الذي وصل فيه الينا. كان يرتدي رداء فلاح و كان وجهه قد لوحته الشمس و على رأسه قبعة من القش. اما حذاؤه المصنوع من القش فقد تقطع، و كان عليه ان يسير حافي القدمين و قد تشققت قدماه. و لكنه كان يبدو سعيدا جدا يتحدث و يضحك مع الرفاق. و قد بعث وصوله فينا البهجة و السرور و انتشر الخبر في الحال بين الجيش كله – ((لقد قَدِمَ المفوض ماو.))

السير نحو جبل تشنغ كانغ

و لخص الرفيق ماو تسي تونغ لنا تجربة القتال في تشانغ شا. و حلل الوضع السياسي في ذلك الوقت. و قال: ((كان علينا الا نقوم بحملة تشانغ شا. ففي الظروف التي يكون فيها العدو كثير العدد و نحن قلة، و يكون فيها العدو قويا و نحن ضعفاء فان القتال في معركة مكشوفة لا يفيد. و ما دامت الثورة اذ ذاك في جزر فمن المستحيل مهاجمة المدن. فما الذي يجب عمله؟ لقد اقترح الرفيق ماو وجوب الذهاب الى الريف لاقامة القواعد حيث حكم العدو ضعيف و حيث لنا هناك تأييد جماهيري اعظم. و قد قُدِّم هذا الاقتراح الجديد فيما بعد لاجتماع حزبي في الجيش لمناقشته و قد ووفق عليه بالاجماع.

و اصدرت قيادة الاركان في الحال اوامرها للقوات بالانسحاب من المدن الى الريف. و في ١٩ ايلول تجمعت القوات في ون تشياشه و أُعطِيَ الامر بالسير جنوبا.

و اثناء المرور بجانب المدن كانت القوات تسير عبر طرق ضيقة في الريف تؤدي الى الجبال البعيدة. و كنا معرضين للفح الشمس و بلل المطر. و قد اصيب عدد من الرفاق بالملاريا و حُمِلوا على الحمالات. و كان رجالنا ينشدون اثناء سيرهم غير آبهين بالتعب.

لقد كانت الرحلة طويلة. متى نصل الى هدفنا؟ و كم كنا عطاشا و جياعا! و بدأ بعض الجنود يتذمرون. لقد كان هذا وقت المشقة حيث يجب على اعضاء الحزب ان يعطوا المثل. و لا استطيع ان اصف كم كان رائعا قائدنا الرفيق لو ته منغ في تلك المناسبة فاحيانا كا يسير امام القوات و احيانا في المؤخرة يشجعنا باستمرار: ((لنشد بعضنا بعضا! نحن نعمل من اجل الثورة!)) و اذا ما اصابنا الاعياء كان ينصحنا بالاستراحة اطول مدة ممكنة. و اذا ما مررنا بجانب نهر كان ينصحنا بالاستحمام و غسل ثيابنا المتسخة التي كانت تنشف سريعا تحت اشعة الشمس. لقد كان يُعنى بنا جميعا كانه اخ لكل منا.

و عندما اقتربنا من لوتشي وقعنا في كمين نصبه العدو. و قد اندفع فصيل من طليعتنا الى تل في محاولة لاحتلال قمته و لكن العدو ركز نيرانه لكي يأخذ منا هذا الموقع المرتفع و كان القتال سجالا. و رأيت الرفيق لو ته منغ يوجه العمليات شخصيا على التل. و لما كان العدو قد احتل موقعا أكثر مناسبة و كانت قواته اشد كثافة فقد انهزم فصيلنا الطليعي و قُتِل الرفيق لو اثناء المعركة.

و قد هجر صفوفنا عدد قليل جدا، انهم لم يستطيعوا الصمود في وجه العاصفة و الشدة او امام تجربة الفشل في المعارك. ان اخراج هذه العناصر المترددة لنفسها من الصفوف الثورية قد عزز الثورة بدلا من اضعافها. و اولئك الذين بقوا امناء للثورة اصبحوا اشد تصميما على المضي في النضال.

و تابعنا السير. و عند حلول شهر تشرين الاول وصلنا سان وان عبر لين خوا، و توقفنا هناك للراحة و اعادة التنظيم. و لم يتبق من قواتنا سوى لوائين و كثيرون كانوا مرضى، و الذي لم يكن مريضا كان يبدو شاحبا. و كنا جميعا طويلي الشعور و كثيرون قد انطلقت لحاهم. و كانت قلوبنا مجهدة و لكن ثقتنا بالنصر في المستقبل لم تتزعزع ابدا.

و في اليوم التالي لوصولنا اعيد تنظيم قواتنا في فرقة واحدة و بالرغم من انخفاض قوتنا الا ان ارادتنا الكفاحية قد اصبحت اقوى بكثير بعد ان استمعنا الى حديث قدمه الرفيق ماو تسي تونغ الى جميع الرفاق – حديث مليء بالثقة و التفاؤل.

و في صباح اليوم التالي استأنفنا السير في اتجاه جبل تشنغ كانغ. و كان العدو ما يزال يتعقبنا. و لما كان العدو يتقدم كالسيد المتمهل فلم يستطع ابدا مباراتنا في السير.)) كان عليه ان يتخلى عن مطاردتنا عندما تسللنا الى سلاسل الجبال و الاحراش الكثيفة.

و عند نهاية عام ١٩٢٧ وصلنا الى قلب منطقة جبل تشنغ كانغ. و كانت المهمة الجديدة التي تواجهنا هي الاستقرار و البدء باقامة القواعد. و كان العمل الاول هو

اقامة منظمات حزبية في المحافظات المحيطة بجبل تشنغ كانغ، و تجنيد الجماهير للقيام بالثورة الزراعية و مصادرة اراضي الاقطاعيين و توزيعها على الفلاحين الفقراء، و تنظيم القوات المسلحة الثورية المحلية، مثل الحرس الاحمر و كتيبة العمال و الفلاحين الثورية. و عندما قلبنا سلطة الكومنتانغ الرجعية في هذه الاماكن و اقمنا سلطة الشعب السياسية – حكومة العمال و الفلاحين – كان من الطبيعي ان تبتهج الجماهير و ترحب بنا.

لقد كان تشنغ كانغ جبلا غنيا. فقد كانت في المنطقة اراض سهلية كثيرة و كثير من حقول الارز. و كان هناك مصدر لا ينضب من الخشب و الاعشاب الطبية، و زيت التونغ و زيت الشاي، و الشاي الخ ... و كذلك مكامن معدنية غنية. ان هذه الوفرة قد ضمنت القوة للقوات الثورية لتعوض عما فقدته و لتزداد عددا.

ان العمال و الفلاحين في المحافظات السبع المحيطة بتشنغ كانغ و الذين تأثروا بثورة ١٩٢٥ – ١٩٢٧ كان لديهم وعي سياسي عال حتى قبل وصول الجيش الاحمر. و قد ضمن تأسيس القواعد الثورية في هذه المنطقة الجبلية ذات القاعدة الجماهيرية المكينة ضمن التعاظم المستمر للصفوف الثورية و كذلك تأييد الشعب و مساعدته.

و لقد كان جبل تشنغ كانغ الجميل الرائع، الصعب المرتقى لشدة انحداره، كان قاعدة ثورية جيدة. فعلى مدى ٥٥٠ لي ترتفع القمم الشامخة الملتوية و تمتد الغابات الواسعة مما يوفر لنا مناطق واسعة للقيام بحركات لا حصر لها في حرب الانصار. و هناك خمسة ممرات ضيقة خطرة كانت تدافع عنها قوة مناسبة، و قد خلقت للعدو مصاعب لا يمكن تذليلها. لقد كانت منطقة جبل تشنغ كانغ قاعدة ستراتيجية لكل من الدفاع و الهجوم.

كان الحفاظ على قواتنا المسلحة في تشنغ كانغ نقطة تحول في الثورة الصينية، لقد كان تراجعا دل على بعد نظر سياسي. لقد كان تراجعا مكننا من الحفاظ على ثمرات الثورة في تلك المرحلة و حافظ على الملاك الرئيسي استعدادا للثورة

المنتظرة. ان تأسيس و توسيع القاعدة الثورية في جبل تشنغ كانغ قد اكدا بصورة رائعة صحة الستراتيجية التي دعا اليها الرفيق ماو تسي تونغ، اي عندما تكون الثورة في جزر فيجب نقل القوى الثورية من المدن الى الريف و من ثم يجب على الريف الثوري المسلح ان يحاصر المدن و يستولي عليها.

النجاح في جمع القوى

في نسيان ١٩٢٨ احضر الرفيق تشوته اكثر من عشرة آلاف من قواته الى تشنغ كانغ من جنوبي هونان للالتحاق بالقوات التي كانت تحت قيادة الرفيق ماو تسي تونغ. و في ٤ آيار عُقِدَ اجتماع جماهيري في لانجويش الواقعة في محافظة تنغ كانغ احتفالا بهذا الحدث.

لقد كان يوما لا ينسى. فقد اقبل الربيع و كانت العصافير تغرد. و حان الوقت للحراثة و الزراعة و لكن في ذلك اليوم لم يذهب احد الى الحقول. و منذ الصباح الباكر تقاطر الناس على اختلاف اعمارهم الى المرج في لانجويش للاشتراك في الاجتماع الجماهيري. و توافد الجنود من جميع الجهات.

و كانت المنصة التي صنعت من ابواب خشبية و قوائم من البامبو و التي نُصِّبَ فوقها عدد كبير من الاعلام الحمراء كانت تُرى عن بعد. و على جانبي المنصة كُتبت الشعارات على الواح خشبية بمقاطع صينية كبيرة: ((احتفلوا بالنجاح في جمع قوى الجيش الاحمر!)) ((ليسقط الرجعيون الكومنتانغ!)) الخ ...

و قبل الساعة العاشرة صباحا غص المكان بالحضور. و في هذا الجمع الكبير كان جنود تشوته الذين قاتلوا في الشمال و في الجنوب و جنود ماو تسي تونغ الذين قطعوا عددا لا يحصى من الجبال و الانهار و صلبوا انفسهم في كثير من المعارك. و كان هناك رجال من القوة المسلحة المحلية يرتدون اردية الفلاحين و يحملون حرابا مزركشة بالشراشب الحمراء او بنادق غريبة الشكل. و كان هناك اناس من القرى المجاورة. و كان الحضور نحوا من عشرة آلاف جندي و مثل هذا العدد من

سكان الريف. و قد جلسوا على العشب و انتظروا افتتاح الاجتماع. و كانت اصوات الغناء و الضحك و الحديث و كل ما يثير ضجة قد تعاقدت لتخلق جوا مرحا للغاية.

و في الساعة العاشرة صعد الى المنصة اعضاء رئاسة الاجتماع الذين يمثلون الحزب و الادارة و الجيش و الفلاحين و رجال الاعمال. و بصفتي عريف الاحتفال اعلنت افتتاح الاجتماع فامرت باشعال المفرقعات النارية التي استمرت فترة من الزمن.

و عندما توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف اعلن الرفيق تشن يي رئيس الاجتماع ما يلي: ((استنادا لقرار لجنة الميدان فان القوة المسلحة كلها قد نظمت في الجيش الرابع من الجيش الاحمر للعمال و الفلاحين و يتولى الرفيق تشوته القيادة و يكون الرفيق ماو تسي تونغ مندوب الحزب)).

و قد تكلم كل من الرفيق تشوته و الرفيق ماو تسي تونغ في الاجتماع. و بتفاؤل عظيم اشار الرفيق ماو الى ان قواتنا في الوقت الحاضر و ان كانت ادنى من قوة العدو عددا و عدة و لكن ما تزال لدينا الوسيلة لالحاق الهزيمة به.

يجب علينا ان نكشف جيدا نقطة الضعف في العدو. و ان نهاجم هذه النقطة بكل ما لدينا من قوة. و يجب الا نَحمِل فكرة ان العدو قوي في كل شيء. ففي الحقيقة انه كالاصابع التي لها اطوال غير متساوية. و في توزيعه لقواه فان العدو يترك بعض الفجوات لا محالة، و التي يمكننا الاستفادة منها لنهاجمه هجوما فعالا. و اذا ما انتصرنا في معركة ما يمكننا ان نقسم قواتنا و نتسلل الى مؤخرة العدو لنلعب معه لعبة (الغماية). و بمثل هذه الخطط نستطيع ان نستحوذ على المبادرة و نشن الهجمات على العدو في اي وقت. لقد بعث فينا خطاب الرفيق ماو حيوية هائلة.

و بعد جمع القوى اصبح مركز و نفوذ الجيش الاحمر اشد قوة. و اخذ الناس الثوريون يطمحون في المجيء الى المنطقة الجبلية. و قد وصل مئات من عمال المناجم و الفلاحين و الطلاب من المناطق المجاورة الخاضعة لحكم الكومنتانغ و

كان يحدث ان سرية بكاملها او حتى لواء بكامله من جنود جيانغ كاي تشك يأتي الينا باسلحته.

و في الاول من آب عقد الجيش الرابع اجتماعا جماهيريا في تالونغ الواقعة على سفح جبل تشنغ كانغ للاحتفال بذكرى انتفاضة نان تشانغ. و قد القى الرفيق ماو تسي تونغ خطابا طويلا مؤكدا على اهمية اقامة قاعدة ثورية في منطقة جبل تشنغ كانغ. و قال: ((ما يزال بعض من رفاقنا لا يفهمون تماما العلاقة بين القاعدة الثورية و النضال المسلح. و تساءل هل يمكن لجيش يقاتل طيلة العام في منطقة يحتلها العدو بدون مكان يستريح فيه هل يمكن لهذا الجيش ان ينتصر؟ بالطبع لا. و قد ناشد كل رفيق لان يحب جبل تشنغ كانغ لانه جبل الثورة. و لقد حمى قوتنا الثورية و مكننا من ان نخوض المعارك بنجاح)).

و في الختام، قرأ الرفيق ماو تسي تونغ بصوت جهوري القواعد التنظيمية الثلاث و نقاط الانتباه الست. و هي في محتواها كما يلي:

القواعد التنظيمية الثلاث: (١) جميع الاعمال يجب ان تكون طبقا للتوجيهات؛ (٢) لا تأخذ من الشعب ابرة واحدة او قطعة من خيط ؛ (٣) جميع ممتلكات العدو و ممتلكات الخونة يجب ان تكون للمجموع.

نقاط الانتباه الست: (١) الدعاية يجب ان تتبع الجيش حيثما ذهب و بذلك يمكن لسياسات الثورة ان تُعرف في كل مكان، (٢) الممتلكات العامة يجب حمايتها، و يجب الا يكون هناك تبذير باموال الثورة؛ (٣) طريقة الكلام يجب ان تكون حسنة و حبية، و لا يسمح بالشتم و المشاجرة؛ (٤) البيع و الشراء يجب ان يكونا طبقا للاسعار المضبوطة و لا سنتا واحدا اقل او اكثر من سعر السوق، (٥) اعد كل شيء مستعار لنفس الشخص بعد استخدامه حالا و لا تضيعه ابدا ... (٦) يجب ان يكون التعويض طبقا للثمن اذا عطبت الادوات المنزلية المستعارة. (و فيما بعد بدلت هذه الى ثلاث قواعد تنظيمية و ثماني نقاط للانتباه).

و في الحقيقة كانت هذه ادبيات نظرية الرفيق ماو تسي تونغ عن ((وحدة الضباط و الافراد و وحدة الجيش و الشعب)) فيما يختص ببناء الجيش. و منذئذ اصبح الجيش الاحمر ليس قوة للقتال فقط بل اصبح ايضا منظما و داعية بين الجماهير. و حيثما ذهب الجيش الاحمر كان يعقد اجتماع في ذلك المكان لممثلي العمال و الفلاحين و الجنود. و عندما كان الجنود الحمر يتوقفون للاستراحة اثناء السير كانوا يذهبون بشكل جماعات صغيرة الى بيوت الشعب لنشر سياستنا. و كانوا يساعدون الشعب على القيام بكل انواع الاعمال الاضافية – تكنيس الساحات، حمل الماء، الحراثة، الحصاد و ما الى ذلك. و في كل مكان يصلونه كانوا يحترمون العادات والتقاليد المحلية. و اذا ما تطلع جندي احمر على امرأة في مكان منعزل كان يُنتَقَد من قبل لجنة الجنود. لقد كان التواؤم بين الجيش الاحمر و الشعب كالتواؤم بين السمك و الماء. ان مثل هذه العلاقات قد ضمنت للجيش الاحمر انتصارات مستمرة...

اغاني الحرب في جبل تشنغ كانغ

و لما كان رفع العلم الاحمر و احتلال القوى الثورية لمنطقة جبل تشنغ كانغ قد هدد مباشرة قوى الكومنتانغ الرجعية في المقاطعات العديدة المحيطة فقد اعتبر العدو هذه القاعدة الثورية شوكة في جنبه و كان تواقا لاقتلاعها. و كان في كل مرة يهاجم هذه القاعدة يستخدم ثمانية الى تسعة الوية على الاقل، و احيانا يستخدم عشرين لواء او اكثر. و كانت قواتنا تعد ستة الوية فقط، و نصف رجالنا مجهزون ببنادق الصيد و بالحراب الطويلة. و قوتنا الرئيسية مكونة من لوائين مجهزين بالبنادق و لكن الذخيرة كانت قليلة.

و قد تحرك العدو و اصبح ملاصقا لمنطقة جبل تشنغ كانغ. و لما كان العدو عند سفح الجبل بينما الجيش الاحمر كان على القمة فان حديث الرجال و غناءهم في احدى الجانبين كان يُسمَع احيانا من الجانب الآخر. و كان جبل تشنغ كانغ في اغلب الاحيان مغطى بالضباب. و لهذا كان العدو لا يستطيع رؤيتنا بينما كنا نعرف اين

هو بالضبط. و في وجه عدو قوي لم نرد ان نخوض معركة مكشوفة. فما الذي يجب عمله؟ لقد اقترح الرفيق ماو تسي تونغ تكتيك حرب الانصار بالكلمة التالية: ((العدو يتقدم، نحن نتراجع، العدو يتوقف، نحن نضايقه، العدو يتعب، نحن نهاجمه، العدو يتراجع نحن نطارده)). و قد دعا ايضا الى شعار: ((وزعوا القوى بين الجماهير لاستنهاضها و ركزوا القوى لتدبر امر العدو)) و نتيجة لتطبيق هذا التكتيك انتصرنا في كثير من المعارك.

و قد اظهرت جميع المعارك بان شجاعة جنودنا و روحهم الكفاحية متفوقتان كثيرا على ما لدى العدو. و كان قادتنا ممتازين. لقد رأيت الرفيق تشوته يوجه العمليات في الخط الامامي للمعركة. و قد ثُقِبَت قبعته برصاصة من رصاصات العدو. و في عدة معارك كانت قنابل العدو تنفجر قربه و لكنه كان ينجو سالما. و كان الرصاص يتطاير من حواليه و حتى كان يحدث ثقوبا في بذلته و لكنه لم يمسه ابدا. و كان مقاتلونا يقولون مازحين: ((الرفيق تشوته بطل لا يستطيع لا الخنجر و لا المدفع ايذاءه. انه جنرال محظوظ !))

لقد كانت منطقة جبل تشنغ كانغ معرضة لهجمات العدو المستمرة، و كانت محاصرة. و قد عانينا مشقة في ظروفنا المعيشة، و لما كنا لا نستطيع الحصول على الارز كان علينا ان نأكل القرع. و في الشتاء لم تكن لدينا ثياب مبطنة بالقطن. و في الليالي الباردة لم تكن لدينا اغطية، و هكذا كنا ننام نهارا، اما في الليل فكنا نمارس رياضة الركض لندفيء انفسنا. و بشكل خاص كنا نفتقر للملح. فكل رفيق كانت لديه علبة ملح بحجم علبة الكبريت لتكفيه امدا طويلا. و في الصيف كان البعوض، الكبير الحجم بصورة غير عادية، يندفع بجنون. و لما لم تكن لدينا ناموسيات فقد كان علينا ان نحرق الاغصان الخضراء و العشب لنطرد البعوض و لكن الدخان كان يخرش عيوننا فينهمر منها الدمع.

و كان يعوزنا الدواء و كنا نجد صعوبة في معالجة الجرحى و المصابين بالملاريا. و في احدى الغارات التي قام بها احد فصائلنا على بلدة قريبة حصلنا على

قدر قليل من العلاج بثمن فاحش. و كان من العسير الحصول على صحف او كتب. و قد بعث الرفيق ماو تسي تونغ بعضا من الرفاق الذين ارتدوا ملابس القرويين للاتصال بالتجار الصغار في البلدان المجاورة ليسألوهم ان يشتركوا ببعض الصحف و لشراء بعض الكتب و مع اننا انفقنا كثيرا من الدراهم فلم نحصل الا على مواد قديمة للقراءة. و من اجل شراء الارز كان علينا ان نقنع الرفاق بالنزول من الجبل. و من قائد الجيش تشوته حتى الافراد كنا نتناوب في النزول من الجبل للحصول على الارز. و كان للرفيق تشوته نقالة معلم عليها باسمه يستخدمها في حمل الارز. و كان يأخذها معه عندما يزحف الجيش.

و بالرغم من جميع المشقات لم يتخاذل رفيق واحد. لقد كنا جميعا سعداء مبتهجين. و قد كتبنا و نظمنا كثيرا من الاناشيد نتغنى فيها بالثورة. و حتى الآن ما زلت احب نشيدا كان ينشد في ذلك الوقت و هو ((زحف الجيش الاحمر.))

ان رفع اول علم احمر لجيش العمال و الفلاحين الاحمر على جبل تشنغ كانغ كان من الاحداث التي صنعت التاريخ. فمن قاعدة تشنغ كانغ الوحيدة للسلطة السياسية الحمراء نمت قواعد اكبر و اكثر. و من الجيش الاحمر الذي ولد في النضال المرير في جبل تشنغ كانغ نما جيش التحرير الشعبي الذي نراه اليوم و الآن و قد انتصرت الثورة فان الشعب لن ينسى ابدا منطقة جبل تشنغ كانغ – مصدر النجاح الثوري.

مع والدي في الجيش الأحمر

بقلم اللواء وو خوا تو

في ليلة من ليالي صيف ١٩٢٨ – و كنت حينئذ في الثانية عشرة من العمر – جاء الى بيتنا احد اقاربنا و يدعى لاي هو يون. و انني أذكر تلك الزيارة، لانه منذ ذلك التاريخ اخذ هو و والدي يبحثان مرارا مسائل دون اشراك والدتي بها. و لم اكن لافقه تماما حديثهما، و لكنني بدأت أسمع كثيرا من الكلمات و الجمل الجديدة و الملذة مثل شيوعية، ثورة، انتفاضة، اجتذاب قوة الاقطاعيين المسلحة الى جانبنا، السيطرة على جمعية الحراب الحمر الخ ... و في احدى الامسيات و فيما كنت في فراشي سمعت والدي و والدتي يتشاجران.

و كانت والدتي تزمجر: ((ان انضمامك لتلك الجمعيات الحمراء هو عبث و هراء! انك تهمل البيت و الاطفال!)) فاجاب والدي: ((من يقول بانني اهمل البيت و الاطفال؟ فمن اجل اطفالنا اقاتل الطغاة المحليين حتى نستطيع توزيع الارض بيننا نحن الفلاحين.))

و سألت والدي عمن هو الطاغي المحلي. فاجابني ببرود: ((اذهب و نم! ليس على الطفل ان يعرف امورا مثل تلك.))

و بعد امد قصير انضم والدي الى جمعية الحراب الحمر التي رفض الانضمام اليها عندما دعي اليها في البداية. و ذهبت مع والدي الى احد اجتماعاتها. و قد وجدت كثيرا من الناس هناك يتحدثون و يضحكون معا و كانوا مرحين خفيفي الروح. و كان والدي دائم الحركة في الجمعية، يذهب هنا و هناك، يحضر الاجتماعات و يناقش المسائل. و لم اكن لأعلم ما هو الشيء الذي يشغله.

و في مساء ٢٨ تشرين الثاني جاء والدي الى البيت بعد غياب دام ثلاثة ايام و كان مستعجلا جدا. و دون ان يفكر في الجلوس نادى علي ''شياو هاي''. فسألته ماذا يريد مني و في تلك اللحظة جاءت والدتي تحمل طعام العشاء.

فدفع والدي الاطباق جانبا و بحلق فيَّ هنيهة ثم قال: ((خذ قدحا من اقداح الخمر و اذهب الى بيت الاقطاعي وو وين لو و اقترض قليلا من الملح و انظر ان كان هو في البيت!)) و ذهبت هناك و وجدت بأن وو وين لو قد بدأ في تناول عشائه. فعدت و اخبرت والدي.

و وضع والدي قبعته على رأسه و خرج. و لكنه عاد ليقول لي: ((اذهب و العب قرب باب بيت وو وين لو و راقبه. فاذا خرج الحق به عن بعد حتى ترى اي بيت يدخل ثم تعال بسرعة الى الجمعية لاعلامي بذلك. و اذا لم يخرج فابق قريبا من الباب و سابعث خوا كاو ليراك.))

و فعلت ما امرني به والدي. و انتظرت قرب بيت وو وين لو حتى الساعة العاشرة ليلا عندما رأيت رجال جمعية الحراب الحمر يحملون حرابهم و سيوفهم و هم يقبلون خلسة من مختلف الجهات. و كان خوا كاو يسير في مقدمة الرجال فسألني ان كان وو وين لو قد خرج. فاجبته بالنفي. و في لحظة طوق رجال جمعية الحراب الحمر منزل الاقطاعي. و قد تسلق بعضهم الجدار و هبطوا الى الساحة و فتحوا البوابة ليدخل منها الرجال المسلحون بالحراب و السيوف. و كان الاقطاعي و زوجته مستغرقين في النوم. و قبل ان يستطيع المقاومة كان قد اوثِقَ بالحبال و الاسلحة من خلفه. و كانت زوجته شديدة الفزع حتى انها انزوت في زاوية و ركعت و هي ترتجف. و عندما تطلعْتُ اليها خاطبتني قائلة: ((يا ابن اختي العزيز، نحن من نفس العشيرة فماذا يعني هذا؟))

و كنت جذلا فقلت لها: ((نحن جميعا شيوعيون. و الآن سيكون مصيركم ايها الاثرياء مصيرا سيئا)). و بصقت عليها مرتين ثم لحقت بالجمع الذي اخذ الاقطاعي الى ما وراء الجبل.

و كان الناس يناقشون الاحداث بحيوية: ((لقد نجحت الثورة. غدا سنقيم السوفييت!))

و فكرت بيني و بين نفسي ((ما اروع هذا، بضربة واحدة اصبحنا جميعا شيوعيين حقيقيين! و اردت ان اسأل والدي و لكنني لم اجده. و نفذ صبري لدرجة انني اخذت اصيح باسمه. و سمعني خوا كاو انادي فقال لي بان والدي سيعود بعد هنيهة، و ان على الجميع ان يذهبوا الى القاعة الاثرية. و ذهبتُ هناك فوجدتُ المكان غاصا بالناس.

و في منتصف الليل جاء والدي و لاي هو يون و تشو وين خوان جاءوا من منزل تاو وو، و قال لاي هو يون: ((غدا سيقام السوفييت.))

و لمّا كنت طفلا لا استطيع ان افقه شيئا سألت على الفور: ((ما هو السوفييت؟ هل نحن الآن جميعا شيوعيون؟))

فقال لاي هو يون: ((ايها الوالد الطيب! هل تريد ان تصبح شيوعيا؟ ان والدك شيوعي، لا بأس ففي يوم ما ستصبح شيوعيا ايضا!))

و اضاف خوا كاو بصوت مسموع من الجميع: ((ان هذا الفتى الصغير هو واحد منا منذ هذه الليلة. لقد ارسل لمراقبة وو وين لو.))

و اخذني لاي هو يون بين ذراعيه و قال: ((ايها الفتى الصغير، انك لست بسيطا. هل تعرف ما هو الشيوعي؟)) فاجبت: ((الشيوعي يقاتل الاقطاعي.))

فقال لاي هو ين: ((صحيح، الشيوعي يكرس نفسه لمصلحة الفقراء. ان السوفييت يعمل من اجل الفقراء.))

و في اليوم التالي اقيمت المنظمات الحمراء – الحكمة السوفياتية للبلدة، لجنة الارض، لجنة النساء، منظمة الاطفال الطلائع. و قد اعيد تنظيم جمعية الحراب

الحمراء و اصبحت الكتيبة الثانية للجيش الاحمر الاحتياطي و اصبح خوا كاو آمرا للكتيبة و والدي مندوب الحزب.

و فيما بعد بدأت هذه الكتيبة في السير الى المنطقة الشرقية لمهاجمة حصون الاقطاعيين، و قد ذهبتُ مع القوات.

لقد كان ذلك اول درس لي في حياة الجيش الاحمر. و لمّا كنت ولدا صغيرا و لست طويلا، كنت دائم الخوف بأنني لست مرغوبا في، و هكذا، كلما ذهبت كنت امثل دور ''اليافع'' بكل ما استطعت. و عندما كنت اسير وراء والدي، محتذيا حذاء كبيرا جدا على قدمي، كنت احاول ان اقلد خطوات والدي. و بالطبع ما لبثت حتى تخلفت و اصبح علي ان اركض لالحق به. و عندما وهنت خطاي بسبب الحذاء الواسع جدا، كان والدي يعلم اني تخلفت فيعود ليراني. و كنت اتظاهر بأنني على ما يرام و انظر اليه و كأنني لا اشكو شيئا. و حاولت ان اواصل السير و لكنني احسست بأنني ازداد تعبا. و اخيرا قال لي والدي: ((من الافضل ان تعود الى البيت، انك تصبح عائقا، و تتخلف عنا!)) فرفضت و عاندت. ثم اشتد غضبه و قال: ((لا فائدة من ذلك، يجب ان تعود.)) و لمّا رأيت ان من العبث معاندته عدت رغما عني. و لكنني، و قبل ان ابتعد كثيرا، عدت الى الجيش مرة اخرى دون ان يراني والدي. و لكن امري قد انكشف مرة اخرى. و طلب الي ان اعود. و عندما كنت جالسا القرفصاء بعناد في جانب الطريق و والدي فوق رأسي كنت انظر بغيرة الى القرويين الذين يمرون بجانبي و هم بروح عالية. و كنت ساخطا اشد السخط و لكنني لا استطيع ان افعل شيئا و لحسن الحظ دعا احدهم والدي لامر ما، فاتهزت الفرصة و اختلطت بافراد الجيش مرة اخرى. و مضيت في السير معهم.

و هبَّت ريح هوجاء و بدأ الثلج يتساقط و حنينا ظهورنا و خفضنا رؤوسنا لنواجه العاصفة. و كان الوقت ظهرا عندما جاء والدي ليتفقد الجنود. و لمّا رآني اراد اعادتي الى البيت. و لكنني اعلمته بأنني افضل الموت بردا عن الرجوع و قد تحقق ان من العبث محاولة ارغامي على الرجوع. و حينئذ نزع قميصا ليلفه حول رأسي.

و مع انني قلت له بأنني لا اشعر بالبرد إلا ان الحس كان قد انعدم في اذني و في وجهي و كانت اسناني تصطك ثم قال الاخ الكبير وو خوا كوان لوالدي: ((سر في طريقك، انا سأعنى به.)) و مضى والدي في سيره بعد ان نظر الى مرة اثر اخرى.

و بعد سير دام اربعا و عشرين ساعة وصل الجيش الى نانت و باليشو. و استعد لتطويق حصن لانغ بان و حصن ليشان. و كان الفجر قد طلع لتوه عندما وصل الجيش الى لي تشيالو على بعد ستة ((لي)) الى الغرب من حصن ليشان. و كان الحرس مستغرقين في النوم، و قد جعلتهم بضع طلقات ان يولوا الادبار. و تقرر ان ترابط قيادة كتيبتنا هنا. و فيما كانت القوات تتسلق الجبل لتطويق الحصن، انشغل خوا كوان و العم وين مو في ذبح الخنازير و طهي الارز. و قد ساعدت في غلي الماء. و فيما كنت آخذ بعض الحطب من احد الاكوام امسكت بحزام و سحبته فوجدته مربوطا ببندقية مصنوعة في هان يانغ. و قد اصابتني هزة شديدة.

و عند الظهيرة و فيما كان خوا كوان و وين مو يقدمان الطعام للجيش اعلما والدي عن الاكتشاف و ارسل والدي شخصا لتفتيش البندقية و ذهبت معه. و لمّا رأى آمر الكتيبة خوا كاو البندقية ابتسم و قال لوالدي: ((حسنا جدا، لقد اصبح لدى كتيبتنا الآن سلاح فولاذي.)) و امرني والدي بالعودة الى مقر قيادة الكتيبة و ان اترك البندقية، فرفضت. فقال بأنني ارفض الاوامر و يجب ان أعاقب. و تأهب ليضربني. و عند ذلك فقط خفت و عدت راكضا.

في ربيع ١٩٢٩ رابط الجيش في قرية صغيرة تقع شمال نهر يوتشا لمنع جنود الاقطاعيين في الحصون الجبلية من مضايقة منطقتنا السوفياتية. و غنم الجيش من العدو تسع بنادق. و قد وصلت من فوق بندقيتان من بنادق الفرسان الى آمر الكتيبة و مندوب الحزب. و لمّا كانا غائبين اخذت اعبث باحدى البندقيتين، و لم اكن اعلم بانها محشوة. فانطلقت منها رصاصة قتلت بقرة تخص القرويين. و كدت اموت رعبا، فاسرعت لأرى مختار الحي. و كان طيبا و لطيفا و كان يحبنا نحن الاطفال. و قد اثارته حالة الفزع التي كنت فيها و كذلك اضحكته. فقال: ((انتم ايها الاطفال

تخلقون دائما المتاعب لي. هل تعلم بان عليك ان تدفع اربعة عشر ينا فضيا من اجل البقرة؟)) و بعد ان قال ذهب ليرى القرويين.

و عاد والدي، و عندما سمع بما فعلته اشتاط غضبا فضربني على اذني و اوثقني و قال بانه لن يقدم لي أي طعام حتى اوافق على العودة الى البيت. و كنت اعلم بان والدي القوي الارادة لا يحب ان يرى اي ولد يصرخ و لهذا حبست دموعي. و لكنني كنت دائم التفكير في ان الامور تسير بشكل سيء بالنسبة لي. فماذا استطيع ان اعمل اذا اصر على ارسالي الى البيت؟

و في هذه اللحظة جاء آمر الكتيبة خوا كاو، فوبخني و اعلمني بان علي ان اطيع الاوامر في المستقبل. ثم حل وثاقي، و كم كنت مسرورا لذلك.

و عدت الى عملي في غلي الماء و لكن قبل ان يغلي الماء جاء والدي فقال غاضبا: ((مرة بعد اخرى قلت لك بانك ما زلت صغيرا، انت لا تعرف شيئا الا خلق المتاعب. اريد ان تعود الى البيت و تنتظر هناك عامين و لكنك لا تصغي الي.))

و كان علي ان ارجوه قائلا: ((في العام الماضي سلك امري. فلماذا لا استطيع ذلك هذا العام. انا لم اعلم بان البندقية محشوة و هذا السبب في انني لمستها. فمن الآن و صاعدا سأقوم بعملي على خير وجه و ساطيعك. هل يعجبك هذا؟))

و فيما كنت اتكلم جاء خوا كاو و آخرون. و طلبوا الي ان اغني لهم اغنية. و احسست بان هذا سيساعدني على الخروج من الوضع السيء الذي كنت فيه و نظرت الى والدي ثم وقفت اغني:

مع مطلع القمر الاول يقبل العام الجديد

الفقراء حزانى

ليس لديهم الا القليل ليأكلوه

ليس لديهم ما يرتدون

انهم يقتاتون

بالجوع و البرد

الاغنياء يسكنون القصور

و يرتدون معاطف الفرو و الثياب القطنية

و يجلسون الى جانب النار.

اللحم و السمك

اكثر مما يستطيعون اكله

....

و مع مطلع القمر الثاني تفتحت الازهار

و ثار العمال و الفلاحون

و طوح بالاقطاعيين

و وزعت الارض بين الفلاحين.

....

و كلما واصلت الغناء ازدادت جذلا و حبورا. و عندما انهيت غناء الاثنى عشر قمرا، كنت اتصبب عرقا و كاد نفسي ينقطع. و انفجر الجميع بالتصفيق. حتى والدي ابتسم معبرا عن سروره مع انه حول وجهه عني لكي لا اراه. و بعد ذلك اقترب مني و قال بلهجة جدية: ((ابتداء من الغد يجب ان تتعلم كل يوم مقطعين الى جانب قيامك بالعمل. و اذا احدثت مرة اخرى أي ازعاج ستُرسَل الى البيت في الحال.)) و كنت اجيبه بـ ((نعم.)) ((نعم.))

و بعد اسبوعين! اصبحنا نعتبر في تنظيم الجيش الفرقة العاشرة الحمراء. و قد التحق خوا كيو و آخرون بالكتيبة الثامنة و العشرين بينما منح والدي فرصة للراحة في مقر قيادة الجيش. و لمّا كنت ما ازال فتى عينت في الطلائع لأكون جنديا بدون سلاح. و كان هناك نحو اربعين فتى خصص لهم صف للدراسة السياسية الى جانب سيرهم مع الجيش. و كانت الدروس تشتمل على بعض المبادىء الاساسية للثورة مثل ما هي الطبقة؟ ما السبب في فقر الفقراء و غنى الاغنياء؟ ... و ما الى ذلك. و

قد تركت هذه الدروس انطباعا عميقا في نفسي و عززت ارادتي للقيام بالعمل الثوري.

و مر اسبوع آخر. و جاء والدي يعلمني بانه تلقى امرا للذهاب الى المؤخرة للعمل في الناحية الشرقية من محافظة كونغ. و ارادني ان اذهب معه. و قد اعلمت والدي بانه يستطيع الذهاب بدوني ما دمت غير راغب في ان اترك مكاني. و قال والدي بانه ينوي ارسالي الى المدرسة فأجبته: ((لا ان الحياة طيبة هنا حيث اعيش مع اناس كثيرين. نحن ندرس كل يوم. ان المدارس هناك لا يمكن ان تكون حسنة كالجيش الذي هو جامعة كبيرة.))

و لمّا رأى بأني مصمم على البقاء تخلى عن محاولاته لأقناعي. و كان مطلبه الوحيد ان اكتب اليه مرة كل شهر. و اخبرته بألا يقلق علي بعد عودته لأني ساحاول القيام بعملي على احسن وجه. و تركني، و لكنه عاد بعد هنيهة حاملا زوجا من حذاء قماشي اشتراه من احد الفلاحين. و ألبسني الحذاء و وضع يده على رأسي و تطلع في وجهي و قال: ((في المستقبل، يجب عليك الا ترفض طلب النصيحة من الرفاق!))

و كنت اهمهم ((أم)) ثم اخذت ابكي – و لم اعرف السبب في بكائي. و اغرورقت عينا والدي بالدموع ايضا و لكنها لم تتساقط. و بعد ان تحدث قليلا مع رئيسنا تركنا و انصرف. لقد كانت تلك هي المرة الاخيرة التي رأيت فيها والدي الحبيب الذي احبني و اعتنى بي و علمني و ادبني.

في عام ١٩٣٢ جرحت في معركة هوكو. و كنت في لو شان امضي دور النقاهة عندما علمت بأن والدي قد التحق بالقوة الرئيسية لجيش الميدان الرابع الاحمر في حملة اتجهت غربا. و في عام ١٩٣٥ و بعد ان التحقت بقوات جيش الميدان الرابع الاحمر في المسيرة الطويلة الى خواماتشة في مقاطعة ننغ سيا اخذت استعلم في كل مكان عن والدي. و قد أُعلِمتُ فيما بعد بأن والدي قد قدم التضحية العليا في سيتشوان.

لم استطع ان اكبت حزني. و بدون ان ادع احدا يعلم خرجت من القرية، و اتكأت على شجرة كبيرة و اخذت أنشج بالبكاء. لقد ذكرني موت والدي مرة اخرى بأنني لم اسمع شيئا عن مصير والدتي و عن مصير العائلة كلها. و كلما زاد بكائي ازداد حزني حتى اظلمت في عيني الارض و السماء.

و على حين غرة وجدت احدا يقف الى جانبي فالتفت و رأيت الرفيق وين منغ تي سكرتير الفرع العام للحزب. فمسحت دموعي و حاولت النهوض. فأجلسني و جلس بجانبي و طوق كتفي بذراعه و قال: ((هل تعرف من الذي قتل والدك؟)) فأجبته بانهم الرجعيون الكومنتانغ. ثم سألني لماذا قتلوا والدي. فقلت لانه عمل من اجل الثورة لتمكين الفقراء من النهوض. و واساني و طلب الي ألا استمر في البكاء. ثم قال بأن في ايدينا بنادق و سنجعل الرجعيين الكومنتانغ يدفعون دينهم الدموي. ثم اخذ يدي و ساعدني على النهوض و قال: ((عد الآن الرفاق في انتظارك)).

وسرت معه وسط الظلام – الى الرفاق الذين محضوني كل اهتمام. و مرة اخرى، احسست بدفء محبة الوالد – الدفيء العظيم لدى الحزب. لقد مات والدي اما الآن فان الحزب هو الذي يأخذ بيدي.

و بعد ايام قليلة استأنفت السير مع الرفاق على الطريق الذي لم يكمله الشيوعيون الاولون و والدي.

قطعة الارض المزروعة بالبطاطة الحلوة

بقلم الجنرال وو شيان أن

جرت هذه الحادثة عام ١٩٢٨ في محافظة خوان ان في منطقة هوبيه – هونان – انهوي السوفياتية.

لقد كانت ليلة من ليالي الخريف. و أوى الناس الى فراشهم، و كل شيء هادىء ما عدا حفيف الاوراق الجافة و نباح الكلاب المعتاد الذي يسمع عن بعد.

و دعانا وو خوان شيين، مندوب الحزب الى اجتماع لمناقشة كيف يمكننا الاستمرار في نضالنا لتطوير عملنا في هذه المنطقة فيما كان العدو يقوم بحملة القمع و القتل الجماعي.

و عندما شارف الاجتماع على الانتهاء سمعت اصوات عدة طلقات تبعها اطلاق نار مستمر. لقد طوقنا العدو مرة اخرى. و قد كان ذاك وضعا اعتدنا عليه.

و اتجه مندوب الحزب الى النافذة و اشار بيده الينا قائلا: ((هدوء!)) ثم اصغى هنيهة و تحول الينا و رفع مسدسه و هتف بنا ((اتبعوني!))

لقد قاد فصيل الصدام – خمسة رجال يحملون البنادق – باتجاه البوابة و قد فتح الطريق بعد ان سقط العدو الذي يحاصر البوابة تحت وابل من الرصاص و بضع قنابل يدوية و تَعَقَبَت العدو مفرزة الحراب و جرت معركة حامية. لقد كان الجنود البيض شرسين في الحقيقة و لكن السيوف الكبيرة التي يحملها الحرس الاحمر كانت لا ترحم. و في النهاية اخترقنا الحصار.

و قبل طلوع الفجر وصلنا الى قمة جبل قريب حيث استرحنا. و لم يجرؤ العدو الذي كبدناه الخسائر على ملاحقتنا. و لكننا نحن ايضا لن نستطع مغادرة المكان! لقد احكم العدو حصار الجبل كله بفوج كامل و بعض من قوات الاقطاعيين المسلحة.

و مرت ايام ثلاثة. و كان يبدو ان العدو ينوي اماتتنا جوعا. و كنا نقتات بالاعشاب و الثمار البرية – لقد كان ذلك غذائنا الوحيد. و مرت ايام ثلاثة اخرى. كم من الزمن نستطيع الاستمرار على هذا الوضع؟

لقد كان الرفيق نيو تنغ كانغ الحداد السابق رجلا ممتلئا. و كان ثخين الخصر ، طويل الذراعين قويا كالجاموس و كان يلقب ((بالثور)). و كان يجلس خلف صخرة يراقب حركات العدو. و سرت نحوه و سألته مازحا: ((قل لي ايها الثور أما زلت تستطيع ان ترفع مطرقة الحديد التي تزن عشرة كيلوغرامات؟))

((لا استطيع ان افعل ذلك الآن يا قائد الفصيل.)) قال ذلك و قد ازاح ثيابه ليريني بطنه الفارغ ثم اردف قائلا: ((لم آكل شيئا منذ ثلاثة ايام.))

و كنت على وشك ان اجيبه عندما وضع يده الكبيرة على ذراعي و قال: ((يا قائد الفصيل، انني اقترح ان نقاتل و نفتح طريقنا. فبعد يوم واحد بدون طعام لا استطيع ان احمل حتى هذا السيف!))

و في الحقيقة فان ما قاله الثور كان بالضبط هو ما اردت قوله. و اخبرته بانني سأطلب التعليمات من مندوب الحزب.

و كان الجندي تساي تو تسي و هو فتى ملىء بالحيوية و النشاط و الذي كان لا ينقطع عن الحديث و الغناء، كان اذ ذاك جالسا تحت شجرة كبيرة مطرق الرأس لا يحرك ساكنا. و عندما اقتربت منه رفع رأسه ببطيء و افتر ثغره عن ابتسامه متعبة.

و سألته: ((ماذا تقول ايها الفتى، كم من الزمن تستطيع الصمود؟)) فبحلق في بسأم، و لم يفه بكلمة، بل اكتفى بهز رأسه. و قلت لنفسي و انا متوجه الى مندوب الحزب ((لو كان لديه شيء يأكله لكان قد انطلق بالغناء.))

و كان قلب مندوب الحزب مشحونا اكثر من اي واحد منا. و قد وقف هناك مقطب الجبين. لقد كان متيقنا بان وجود هذه المفرزة من الحرس الاحمر كان امرا

حيويا ويؤثر على تنفيذ العمل الثوري في هذه المنطقة و على اقامة السلطة السياسية الحمراء. هل نقاتل للخروج من التطويق؟ بالتأكيد! و لكن هذه ليست اللحظة المناسبة. ان العدو متيقظ و علينا ان ندفع ثمنا باهظا اذا حاولنا القتال للخروج من التطويق الآن.

و قد قطع وصولي عليه حبل افكاره.

و قال قبل ان ابدأ: ((انا اعرف)) ثم مضى قائلا بلهجة قاطعة: ((لقد اصابنا الجوع هنا لاننا نريد ان يفقد العدو يقظته و بذلك تصبح الظروف مناسبة لنا للقتال و الخروج من التطويق)) فقاطعه قائلا: ((و لكن لا يمشي الحال اذا لم نأكل، حتى ''الثور'' لم يعد يستطيع ان يتحمل اكثر.))

((عند حلول الظلام، اذا لم يهاجمنا العدو فسنرتب ان يذهب البعض لقطف الثمار البرية، فهذه هي الطريقة الوحيدة في الوقت الحاضر.)) ثم قال و كانه يتحدث الى نفسه و ليس الي ((ان الرفاق الذين أرسلوا للقيام باعمال الاستطلاع يجب ان يعودوا هذا المساء.)) ثم سرح نظره في الافق البعيد.

غربت الشمس. و اخذ الظلام يحل تدريجيا.

ان العدو لم يهاجمنا و لا مرة واحدة طيلة الايام الثلاثة. و اثناء النهار كان العدو يحاول تصيدنا و يرسل صيحات سخيفة مثل ((ليس لكم من مهرب الآن! من الافضل لكم ان تستسلموا في الحال! و اذا أبيتم فستموتون جوعا!)) وبعد المغيب كان يسود السكون المطبق. و اليوم كان الشيء نفسه.

و طبقا لتعليمات الرفيق وو خان شين اخذت فريقا صغيرا من الرجال لقطف الثمار البرية. و كان من بينهم الفتى تساي تو تسي و قد عادت اليه حيويته و نشاطه و اخذ ينشد:

مسكني الجبل الشامخ و الغابة الكثيفة

و طعامي الثمار البرية و الاعشاب البرية

لا اخشى المصاعب و الآلام،

لا استسلام بل المضي في القتال

حتى يُحرَز النصر في يوم من الايام

و يغدو شعب البلاد كلها سعيدا ....

و توقف في منتصف النشيد. و صاح بانفعال: ((ايها الثور، هنا شيء رائع قطعة ارض مزروعة بالبطاطا الحلوة!)) و قد جعل الجوع الفتى تساي ينسى النظام و قد استخدم كلتا يديه في الحفر لاقتلاع احدى الادران و اوقفه ''الثور'' قائلا: ((لا تلمسها)) و حول جسمه الضخم معطيا ظهره للفتى ساي و ابتلع الثور ملء فمه من اللعاب. و لدى سماعه كلمات الثور استرد الفتى وعيه. و تطلع الى الرجل البدين و استأنف الغناء.

و لمّا كان فصل الخريف يشارف على الانتهاء فاننا لم نستطع ان نجد إلا كمية قليلة من الثمار. و هكذا حصل كل رفيق على حبة او حبتين، و المريض لم يحصل على اكثر من خمس. و هذا المقدار القليل لم يساعدنا كثيرا. و تطلعنا في وجوه بعضنا بعضا. و لم يتكلم احد منا حيث كنا نعرف ما يفكر به كل واحد. و كان الفتى ساي هو اول من تكلم: ((يا مندوب الحزب، هناك قطعة ارض مزروعة بالبطاطا الحلوة)) و تكلم ببطء ليضفي على كلماته طابع الاهمية.

و في الحقيقة كان مندوب الحزب اول من اكتشف قطعة الارض هذه، ففي ذلك اليوم الذي تسلقنا فيه الجبل و فيما كان يتطلع حواليه رأى قطعة الارض هذه.

و قد خلقت كلمات ساي خلافا فالبعض قال باننا يجب ان نأكل البطاطا و اعترض آخرون على ذلك. و كل فريق ادلى بحججه.

و كان مندوب الحزب على وشك التكلم عندما عاد الرفيقان اللذان ارسلا لاستكشاف مواقع العدو. و قررنا ان نقاتل للخروج من الطوق.

و بعد ثلاثة اشهر و في ليلة باردة ذهبنا في عمل الى وانغ تشيا تاوان و هي قرية ليست كبيرة جدا تقع في سفح الجبل في الجنوبي الشرقي. و عندما دخلنا القرية

لاحظنا ان جميع الابواب مغلقة و لم نستطع ان نفعل شيئا سوى الجلوس في الشارع.

و بعد قليل اقبل علينا رجل من طرف القرية الآخر. و أصرَّ على ان نذهب الى بيته. و كان من المستغرب في المناطق المحررة حديثا ان يتصرف الناس بهذه الطريقة! و قد دهشنا جميعنا.

و بعد ان دخلنا الى بيته احسن الشيخ وفادتنا الى اقصى حد و طلب الينا ان نجلس و قدم لنا الشاي. و قد ازدادت دهشتنا. ماذا يريد منا؟ و قد منعتنا اللياقة من ان نوجه اليه أي سؤال، و لم نستطع ألا نترك الرجل يفعل ما يريد و نحن ننتظر.

و بعد ان اشغل نفسه بعض الوقت جلس الشيخ. ثم بدأ حديثه و هو ينقل ناظريه في كل منا واحد بعد الآخر فقال: ((ايها الرفاق الجنود الحمر. اقص عليكم قصة غريبة. في فجر احد الايام جاءت مفرزة من الجنود الحمر – و لم اعلم من اين جاءوا. و وقفوا على الجبل هنا. و جاء الجنود البيض من كل صوب و احكموا تطويقهم. و في المنحدر ليَّ قطعة ارض مزروعة بالبطاطا الحلوة. و قد اقلقني الوضع. فقد كنت اسمع ان الشيوعيين يستحوذون على الاشياء و يسرقونها. و لمّا لم يكن هناك أي شيء يؤكل فكيف يمكن ألا تُلمس بطاطتي الحلوة الجميلة؟ لقد ذهبت كلها! لقد ذهبت كلها! ان البطاطا الحلوة يجب ان تكون قد أُكِلت كلها! و قد حاوَلتُ عدة مرات ان اذهب هناك لأرى جلبه الامر و لكن الجنود البيض كانوا يطردونني. لقد كنت قلقا في الحقيقة و لكنني لم استطع ان افعل شيئا.

و في احدى الليالي و في منتصف الليل سمعت اصوات طلقات نارية متواصلة لفترة طويلة. و قد خمنت بأن الجنود الحمر يقاتلون للخروج من الطوق و كنت مصيبا. و في صباح اليوم التالي ذهب الجنود البيض. و كنت شديد السرور لدرجة انني اسرعت الى قطعة الارض و الرفش بيدي لاخرج بطاطتي الثمينة. و قد نويت ان آخذها الى البيت و اخزنها لفصل الشتاء. و في مثل هذا الوقت المضطرب لا يمكن ان يرتاح فكري اذا ابقيت هناك أي شيء يصلح للأكل.

((و عندما وصلت الى قطعة الارض وجدت جزءا كبيرا خاليا. و قد غضبت اشد الغضب حتى كاد يغمى عليَّ. و قلت: ((ان ما يقوله الرسميون صحيح – فالشيوعيون يستحوذون على الاشياء و يسرقونها. و قد اشتطت غضبا حتى اخذت اشتم و اشتم. ثم تحسن حالي. اذ بينما كنت اضرب الارض بالرفش و انا في تلك الحالة من الغضب، و بعد ان قلبت التراب ظهرت لي صرة بيضاء. ما هي؟ و فتحتها. خمسة ينات فضية! و بعد ان نفضت التراب رأيت كتابة تقول: ((ايها العزيز، نحن شيوعيون. و لمّا كان علينا ان نقاتل الجنود البيض فقد اكلنا بطاطتك الحلوة. و ها نحن ندفع لك خمسة ينات نرجو قبولها.))

((هل كنت أحلم؟)) لقد كانت هناك خمسة ينات فضية و هي تبرق. و بالتأكيد فانكم ايها الشيوعيون افضل اناس على الارض. انني لن اصدق مرة اخرى الانباء الكاذبة التي يرددها الكومنتانغ. و قد تملكتني رعشة حتى انني توقفت عن الحفر و نزلت عن الجبل بسرعة و معي الصرة الصغيرة و وددت لو اصل الى البيت بخطوة واحدة و اسرعت أقصُّ هذه القصة المثيرة على جيراني و سكان القرية كلها.))

و شد الشيخ عينيه المعروقتين و لمس كتفي برفق و قال: ((ايها الرفيق هل تعلم اين ذهب اولئك الرجال؟ اريد ان اراهم بعيني.))

و اكثر من مرة حاول الفتى ساي ان يقاطع الشيخ و لكنه كان يتوقف بعد ان يحدجه الثور بنظرات تهديدية. و مع ذلك فلم يستطع ان يمسك لسانه عن الكلام مدة اطول. و دون ان ينتظرني حتى اتكلم صاح قائلا: ((انظر حواليك ايها الجد، انهم يصغون الى قصتك!))

و نهض الشيخ بغتة و امسك يدي بقوة. و أخذ ينظر في وجوهنا واحدا بعد الآخر بينما كنّا نحن الحرس الاحمر نبتسم و قد غمرنا شعور السعادة و شيء من الاعتزاز. و قد شعرنا جميعا بأن سيلا من الدم الساخن يتدفق من اجسادنا.

أسلحة من صنع محلي

بقلم خوانغ منغ تشونغ و وي تشون غيي

لغم من صنع محلي

لقد حدثت أمور كثيرة عام ١٩٢٨ في القاعدة الثورية القديمة على الحدود الواقعة ما بين محافظتي تونغ لان و فنغ شان في مقاطعة كوانغسي.

لقد كنت واحدا من ثلاثين رجلا في الفصيل الثاني من كتيبة الفلاحين للدفاع عن النفس في الجبال الغربية في منطقة قومية ياو، تحت أمرة الأخ باه[٦]. و كانت لدينا بنادق بسيطة من صنع محلي .. و كانت أفضلها البندقية ذات الماسورتين. و كان الجيش الأبيض يعلم بأن سلاحنا بسيط و ذخيرتنا قليلة فكان باستمرار يحاصر مواقعنا و يفتش المنطقة. و في مثل هذه الحالات كنا نخفي انفسنا مع أن أيدينا تتلهف لخطف بعض البنادق التي كان يحملها العدو. و في الحالات التي كنا نقاتل فيها كانت ذخيرتنا تنفذ بسرعة و كنا نضطر للانسحاب.

و عندما حاصر العدو المنطقة الجبلية أصبح تزودنا بالذخيرة صعبا. و قد قلق علينا أبناء شعبَي ياو و مياو في الجبال الغربية فباعوا بقرهم و غنمهم و وجدوا منافذ لهم للخروج من الحصار ليشتروا ذخيرة لمساعدتنا. و قد باع هوانغ بو هان البالغ من العمر خمسين عاما، و الذي كان يقطن قرية تشو فنغ في مركز فو هوو

---

[٦]- وي باه تشون الذي سقط فيما بعد شهيدا، كان أحد قادة حركة الفلاحين بين شعوب تشوانغ و ياو و مياو في محافظة يو كيانغ في مقاطعة كوانغسي. و كان قد درس في المعهد الوطني لحركة الفلاحين الذي أسسه الرفيق ماو تسي تونغ. و أصبح فيما بعد عضوا في الحزب الشيوعي الصيني. و بعد تأسيس الجيش الأحمر السابع أصبح فيه قائد الفرقة الحادية و العشرين. و عندما سار الجيش السابع نحو الشمال بقي هو في منطقة يوكيانغ ليواصل النضال. و كان يتمتع بمكانة عالية بين الأقليات القومية التي تروي كثيرا من القصص و الأساطير عنه. و كانت هذه الأقليات تطلق عليه تحببا اسم ((الأخ باه)). و كان العدو يكرهه و يسميه ((باه قائد العصابة)).

باع ثورا كبيرا. و بالثمن الذي باعه به لم يستطع إلا شراء عشرين صفا من الرصاص لتقديمها لنا.

و قال لآمر فصيلنا خوانغ هنغ تنغ: ((أنا طاعن في السن و لا أستطيع مقاتلة القوات البيضاء. خذ هذا، و أخبرنا عندما ينفذ فاننا سنجد طرقا أخرى للحصول على المزيد.))

ان الأمور لا يمكن أن تستمر على هذه الشاكلة. فالظروف المعيشية للناس القاطنين في المنطقة الجبلية هي ظروف تعيسة و ليس لديهم الكفاية ليأكلوا و مع ذلك فانهم يقدمون لنا الطعام. و الآن يزودوننا بالذخيرة. ان هذا لا يمكن أن يستمر!

و قال الأخ باه: ((فلنصنع ألغاما أرضية بطريقة محلية!))

و لكن ما شكل هذه الألغام الأرضية؟

و وجدنا بعض أنابيب البامبو و ملأناها بملح البارود و بقطع مكسرة من أواني الطبخ و أولجنا فيها كثيرا من الكبريت. فاذا ما داس العدو على الأنبوب فإن الاحتكاك سيشعل أعواد الكبريت، و يمتد اللهب الى ملح البارود و من ثم ينفجر اللغم.

و في البداية صنعنا اثني عشر لغما و انتظرنا حتى يدخل العدو في الشرك.

و في ١٠ أيار زار الجنود البيض المنطقة مرة أخرى، و أرسل فصيلنا عشرين منا الى سفح الجبل خارج مركز ووتشين لسد الطريق على العدو. و طمرنا لغمين في طريق قرب سفح الجبل. و بعد نحو ساعة من الزمن أقبلت دورية للعدو من قرية لونغ تشنغ. و قلنا لأنفسنا: ((في هذه المرة ستتذوق طعم ألغامنا المصنوعة محليا و التي اخترعها الأخ باه!))

و مشى الجنود البيض بخيلاء، فوهات البنادق موجهة الى الأسفل، و في أيديهم قبعات صفراء، و حول رؤوسهم فوط بيضاء، و بدلاتهم مفتوحة من جهة الصدر، و

لم يأخذوا أية احتياطات ابدا. و أخذوا يقتربون – ٥٠، ٣٠، ١٠ أمتار من الألغام – و أخذ قلبي يخفق بشدة. و لم يستطع الرفيق الواقف الى جانبي أن يضبط نفسه إلا بصعوبة. و مد عنقه و رفع بندقيته و استعد للهجوم حالما ينفجر اللغم و كانت عيناي تتابعان الجنود البيض بدقة. و لمّا اقترب أحدهم من اللغم كاد قلبي يتوقف عن الخفقان. و لمست قدمه اليسرى الأرض ثم انتزع قدمه اليمنى. و خطا فوق اللغم. و عندما مال الرجل الآخر أيضا عن اللغم بدأ قلبي ينقبض. و شكوت بهدوء الى نفسي: ((أيها السماء، هل سيتجنبونه جميعهم؟)) و في هذه اللحظة خرجت شعلة من تحت قدم الرجل الثالث و تبعها انفجار مدو. و سقط جنديان أبيضان. و صاح آمرنا. ((أطلقوا النار!)) و أطلقت عشرون طلقة في الحال و قتل جنديان آخران من الجنود البيض. و لم يعرف العدو ماذا حدث. و تفرقوا في جميع الاتجاهات. و قفز آمرنا مشيرا ببندقيته و هو يصيح: ((أهجموا، أيها الرفاق!))

وطاردنا العدو حتى وصلنا الى سفح الجبل وراء قرية لونغ تشنغ.

و منذ ذلك الوقت كانت الألغام تزرع في منطقة الجبال الغربية كلها ......

مدافعنا المصنوعة محليا

في حزيران قال الأخ باه لمقاتلي كتيبة الدفاع عن النفس في مركز لونغ تشنغ: ((في الجبال الغربية كميات كبيرة من ملح البارود و الخشب الصلد و الذي منه نستطيع أن نصنع المدافع.))

و قد ابتهجنا جميعا لهذا الاكتشاف. و أنتجت المدافع المصنوعة محليا.

و في ٣١ تشرين الأول جاء العدو الى الجبال مرة أخرى. و قد أُمِرَ وي تشونغ تشين و هو أحد المقاتلين في كتيبة الدفاع عن النفس أُمِرَ بأن ينصب المدفع في سفح تل تشنغ هنغ في مركز نالي. و بعد الظهر جاء العدو الى منحدر بسيط على بعد عشرين مترا من المدفع. و كان وي تشونغ تشين على وشك أن يسحب حبل الاشعال عندما اكتشف أمره أحد الجنود البيض. و قد استغرب الجندي لمثل هذا

الحبل الطويل فأخذه بين يديه و أخذ يتفحصه. و بصورة متهورة أخذ وي يشد الحبل بكل عزمه و لكنه فشل في تحقيق أي شيء، و في الطرف الآخر كان الجندي الأبيض يشد الحبل أيضا. و بعد بضع شدات قوية من الجانبين انقطع الحبل. ثم أخذ الجندي الأبيض يتتبع الحبل حتى وجد المدفع. فانفجر يضحك ساخرا و قال: ((وهكذا، فأنتم تستخدمون الأشياء الخشبية لايقاف رشاشاتنا الثقيلة و مدافعنا المورتر!)) ثم غسل الماسورة و حملها. و عاد وي مهتاجا.

لقد فشلت تجربتنا الأولى. و قال الأخ باه: ((لا يخيبن ظنكم. سنجعل العدو الغازي يتذوق طعم قوتنا!))

و بعد بضعة أيام جاء العدو مرة أخرى. و حمل وي تشونغ تشيين مدفعا من صنع محلي كان قد انتهى من صنعه اذ ذاك و نصبه على سفح تل مو أي شان في مركز لونغ تشنغ. و من أجل تأمين حمايته زرع لغمان على بعد نحو عشرين مترا من المدفع. و قد نصبنا كمينا في الغابة خلف المدفع و بين الصخور. و مد حبل الاشعال الى بعد عدة عشرات من الأمتار. كنت اذ ذاك في الرابعة عشرة من العمر و أردت أن أكون مع وي تشونغ تشيين لأرى المنظر الأمامي و ذلك لأتحدث عنه. و لكنه عندما رفض أن يسمح لي بالاقتراب منه اختبأت وراء الصخور.

و بعد هنيهة، أقبل خوانغ شه مين و هو أحد ضباط العدو الذي كان يجيء دائما لتفتيش مركز لونغ تشنغ، أقبل مع دوريته. و قد قلت و قلبي مليء بالحقد: ((تعال! ستتعلم درسك بعد قليل!)) و عندما كان العدو يقترب من المكان انفعلت. و لم أدر أن كان بسبب خوفي من أن لا يستمر العدو في التقدم أو خوفي من أن لا يعمل المدفع. و عندما ازداد العدو اقترابا نفذ صبري. ((لماذا لم يشعل المدفعي وي تشونغ تشيين النار؟)) قلت ذلك لنفسي بغضب.

و في تلك اللحظة سمع دوي يصم الآذان. و قد انطلق في اثره دخان غطى العدو المقترب. و انفجر أيضا اللغمان الأرضيان. و لم أستطع أن أمنع نفسي من الصياح:

((لقد طارت ألغامنا المصنوعة محليا!)) و كانت طلقاتنا كثيفة كالمفرقعات النارية. و ولى العدو الأدبار على عجل مخلفا قتلاه في الطريق.

تسع بدلات

لقد أحكم العدو تطويقنا. و كنا نخفي أنفسنا نهارا و نتحرك ليلا. و كنا نسير دوما في دوائر و العدو يتعقبنا في سلاسل الجبال الكثيفة. و تمزقت أحذيتنا وأصبحت ثيابنا خرقا. كنا بحاجة ماسة للألبسة. و كان الأخ باه قد أعطى البدلات القليلة التي كانت لديه الى المقاتلين. و لكنه تذكر بأنه عندما ثارت كتيبة الدفاع عن النفس كانت لديه تسع بدلات في بيت وي تشنغ هو.

و في صباح ١٧ أيلول أمر الأخ باه خوانغ بو كنغ و هو أحد المقاتلين في كتيبة الفلاحين للدفاع عن النفس أمره بايصال رسالة. و قد أعطى تعليماته بتأكيد شديد: ((يجب عليك أن توصل هذه الرسالة الى قرية لونغل في مركز لونغ تشنغ و تسلمها شخصيا الى وي تشنغ هو الذي ساعدنا في صنع المدفع، ثم تحضر الثياب!))

و لمّا كان خوانغ بو كنغ يرى الرفاق في ثيابهم البالية فقد تحقق من خطورة مهمته. و وعد بتنفيذ الأمر و لو كلفه ذلك حياته. و ذهب بسرعة فائقة و سار في ممرات الجبال الصخرية و عند ظهر اليوم نفسه وصل الى بيت وي تشنغ هو. و لدى وصوله دهش اذ رأى البيت يعج بالجنود البيض، بعضهم جالسون و آخرون نائمون. لقد كانوا يأخذون قسطا من الراحة بعد تفتيشهم للجبال. و عاد خوانغ راكضا فطارده العدو و أطلق عليه الرصاص و قتله.

و سقطت رسالة الأخ باه في أيدي الأعداء و قد ابتهجوا لذلك. ((هكذا، رئيس العصابة باه يبعث برسالة!))

و أُعتُقِلَ الأشخاص القليلون الذين بقوا في القرية لاستجوابهم. و قد أُستُجوِبَ أولا وي بو تسي و هو من تشوانغ. و قد أُثِقَ الى عمود وأخذوا يضربونه بالعصا. ((هل

أنت وي تشنغ هو؟ نحن نعلم ماذا فعلت! تكلم بسرعة! أين يختبىء باه؟ في أي مكان وضعت ثيابه؟))

((أنا وي بوتسي. لم أر أبدا رجلا يسمى وي تشنغ هو، أنا لا أعرف شيئا.)) فأخذ الضابط يصيح بحنق شديد:

((عبثا ما تقول. نحن نعلم سلفا. سنرى أن كنت ستتكلم أم لا!))

فقال وي مؤكدا: ((لا أعرف و لم أر ثياب باه!))

فزمجر الضابط قائلا: ((اضربوه. انه أحد أفراد عصابة باه!))

و أخذت العصي تتهاوى على وي حتى أغمي عليه.

وكان وي تشون غيي و هو فتى من التشوانغ يبلغ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر هو الشخص الثاني الذي أُستجوب. و بعد أن أوثق الى العمود سُئل: ((ما اسمك؟ أين باه؟ أي واحد هو وي تشنغ هو؟ أجب على هذه الأسئلة و سيطلق سراحك!))

و قال الفتى بتهيب و لكن بتأكيد: ((اسمي وي تشون غيي. أنا لا أعرف باه أو وي تشنغ هو.))

و أخذ الضابط يهدده قائلا: ((أنت فتى من عصابة باه! اذا لم تتكلم ستضرب!))

فأجاب الفتى بعناد: ((أنا لا أعرف!))

فنبح الضابط قائلا: ((دعوه يتذوق شيئا قاسيا!))

و شد جنديان من الجنود البيض الحبال على يدي الفتى و قدميه. و رفع أحدهما رأس الفتى و صب في فتحتي أنفه ماء الفلفل. و مع ذلك لم يحصلوا منه على شيء.

ثم أوثقوا لو بو تشانغ و هو من قومية يا والى العمود و استخدموا نفس الأساليب الوحشية. و لكن لو أجابهم ((أنا لا أعرف!))

و كان آخر من استجوب وي تشنغ هو نفسه. فأوثق الى العمود و أمطروه بالأسئلة: ((هل أنت وي تشنغ هو؟ من الأفضل لك أن تعترف لأن الآخرين قد اعترفوا قبلك. ماذا يفعل قاطع الطريق الشيوعي الذي أحضر الرسالة؟ من أين أتى؟ أين باه؟ أين تحتفظ بثيابه؟))

و كان الجواب: ((لا أعرف. أنا وي تشنغ تشو، أنا لا أعرف وي تشنغ هو!))

فصَوَّبَ الضابط مسدسا الى صدر وي و قال بوحشية: ((هل تريد أن تحيا أو أن تموت؟ اذا اعترفت سأوفر حياتك حياة الكلب. و اذا لم ......))

((أنا لا أعرف أين وضعت ثيابه. لقد سمعت أنه الآن ...)) و توقف وي تشنغ هو عن الكلام عامدا.

و قرب عدد من الضباط البيض رؤوسهم من بعضهم البعض وأخذوا يتشاورون بهمس. ثم اقترب أحدهم من وي تشنغ هو. و قال و هو يصطنع اللهجة الودية: ((اذا اعترفت سنطلق سراحك في الحال و نعطيك دراهم. و اذا وافقت على مساعدتنا وأردت منصبا فأنا أضمن بأنك ستصبح موضفا!)) و أيد الضباط الآخرون الوعد: ((اعترف ستحصل على الدراهم و على المنصب – و من الصعب الحصول على هذه الأشياء حتى لو حملت مصباحا لتفتش عنها!))

((ان باه في الجبال الغربية. فتشوا عليه بأنفسكم.))

((في أي جبل؟ في أية قرية؟)) و شدد العدو سؤاله: ((تكلم بتحديد أكثر.))

و تطلع وي تشنغ هو على العدو باحتقار و قال: ((انه في كل جبل، في كل قرية. فاذا ظننتم أنفسكم حاذقين الى هذا الحد اذهبوا وجدوه!))

فغضب الضابط العدو و أخذ يزمجر ((اضربوه بشدة!)) و أخذوا يضربون وي تشنغ هو بقنادق البنادق و بالعصي، و لكنه صمد للضرب الوحشي و كان ينظر الى العدو بعينين مليئتين بالحقد.

و بعد أن أجهد الضابط العدو و ثقلت انفاسه و ضعفت يداه من ضربه المستمر لوي تشنغ هو قال: ((هل تريد أن تتكلم؟ اذا لم تفعل، ستُقتَل!))

((أيها القتلة! لن أقول شيئا مهما فعلتم بي!)) و كان وي تشنغ هو يتكلم بصوت خافت و لكنه لم يفقد شيئا من عناده.

و صاح الضابط بغضب شديد: ((أحضروا ماء الفلفل و صبوه في فتحتي أنفه حتى تقتلوه!))

((ان موتي لا يعني إلا خسارة رجل واحد. فما يزال هناك شعب الجبال الغربية، الأخ باه و كتيبة الفلاحين للدفاع عن النفس. انهم سينتقمون لي ...))

((لا تدعوه يتكلم!)) و سَدَّ الضابط فمه و رفع جنديان رأسه و صبا ماء الفلفل في فتحتي أنفه. و لكن هذه الفظاعات كلها فشلت في تحطيم ارادته. و لم يحصلوا منه على أية معلومات.

و أخذوا السجناء الى مركز وو تشين. و من الجواسيس عرفوا أيهم هو وي تشنغ هو، الرجل الذي أنتج المدفع المصنوع محليا. و قُتِلَ المناضل الباسل. أما الأسرى الآخرون فعندما أُطلِقَ سراحهم كانوا مثخنين بالجراح و لكن ما من أحد منهم قدَّمَ للعدو أية معلومات.

و بعد بضعة أيام حملت زوجة وي تشنغ هو و أخوه البدلات التسع التي كانت محفوظة في بيت وي الى المنطقة الجبلية و سلماها الى الأخ باه. و بحزن عميق قال الأخ باه: ((أشكركم. سأنتقم له بالتأكيد!)) و قالت زوجة وي و الدموع تتساقط من عينيها: ((فقط في كتيبة الدفاع عن النفس التي تحت قيادة الأخ باه نستطيع أن نستمر في الحياة و الأمل في مستقبل أفضل ...))

سر الأرز

((غدا في الصباح الباكر سترحلون جميعا الى قرية شياو لونغ تشنغ و تأخذون حبوبكم كلها و لا تتركوا شيئا لعصابة باه.)) كان هذا هو الأمر الذي أصدره في ١٧ آب أحد قادة كتائب القوات البيضاء الى أهالي قرية تالونغ تسنغ و القرى الاخرى في مركز لونغ تشنغ. و بترحيل جميع سكان المركز الى قرى أخرى فان العدو كان يسعى لمحاصرة كتيبة الدفاع عن النفس و ازالة مصدر تزويدها بالطعام. و في تلك الليلة أخذ الناس يهمسون بعضهم لبعض قائلين: ((خذ معك كمية من الأرز تكفي لعشرة أيام و خبىء ما تبقى بين الصخور أو في الأحراش من أجل كتيبة الدفاع عن النفس.))

و في صباح اليوم التالي أخذ الناس، تحت مراقبة العدو، يرحلون عن تالونغ تشنغ و سلالهم مليئة بالأرز. و ظن العدو بأن كل سلة مليئة بالحبوب. و لم يدر العدو بأن السلال تحوي أشياء كثيرة و ان الأرز كان مجرد غطاء.

لقد كان أبناء شعب ياو يتمتعون بوعي سياسي. فهم لم يخضعوا للعدو أبدا. و قد اقترح أحدهم و هو هوانغ تشه يوان من قرية لونغل اقترح على القادمين الجدد أن يبنوا بيوتهم في منتصف الجبل أو على قمة الجبل أو في الأحرش. و ذلك ليصبح من الصعب على العدو تسلق الجبل ليفحص كمية الحبوب المحفوظة. و قد قبل الجميع هذا الاقتراح.

و بعد أن طَرَدَ العدو السكان الى مكان جديد أقام مراكز للحراسة وأغلق الممرات الجبلية. و كان جميع الأشخاص الذين يدخلون و يخرجون يُراقبون و يُفَتَشون. و كان يمكن ادخال الأشياء و لكن لا يمكن اخراجها. و بالرغم من جميع هذه التدابير فان كتيبة الدفاع عن النفس لم تُحاصَر أبدا. و كان أبناء الياو مثل تشن بو باو و وي بو كوي و ابن الأخير، كانوا كثيرا ما يذهبون خلسة في الليل ليقدموا لنا الأرز الذي جمعه الأهلون. و أحيانا كانوا يأخذون المناضلين الى الأماكن التي خبيء فيها الأرز.

و كان العدو يفتش في كل مكان. و قد أشعلوا النار في الجبل. و كان مركز لونغ تشنغ يبدو كبحر من النيران.

((أحرقوا كل شيء! لا تتركوا عشبة واحدة يمكن أن تختبىء وراءها عصابة باه!)) كان هذا هو الأمر الذي أصدره الأعداء. و قد أُرغم لو بو لان و هو من سكان قرية لونغ سوي أُرغم على أن يقود العدو الى جبل في لونغ تشنغ وانغ و هو المكان الذي خبأ فيه الأهلون الحبوب التي وفروها. وأمره العدو باشعال النيران في الجبل. و كان قد صمم على ألا يسمح للأعداء بمعرفة المكان الذي خبيء فيه الأرز فقال لهم: ((هنا الأشجار كبيرة و متباعدة و لهذا فان هذا المكان لا يصلح أن تختبيء فيه كتيبة الدفاع عن النفس، و لكن هناك في لاتنغ شان فان الأعشاب و الشجيرات كثيفة و طويلة، و قد سمعت بأنهم يختبئون هناك!))

و قد نجح لو في أن يخدع الأعداء، و قادهم الى لاتنغ شان المهجورة و أشعَل فيها النيران. و قد انتشرت النيران الى ما مساحته ثلاثة ((لي)) جاعلة المكان أتونا حقيقيا. أما قرية لونغ تشنغ وانغ التي كان الأرز مخبأ فيها فلم تمس.

و عندما اقترب حصاد الخريف فرض العدو مراقبة خبيثة أخرى: يُسمَح لكل شخص أن يجني خمسة و عشرين كيلوغراما من الأرز الغير مقشور في اليوم فقط، و كل كمية تزيد عن هذا الحد تصادر و يفرض عليها غرامة. و لكن هذا التحديد قد فشل في تحقيق غرضه: فقد كان الناس يخرجون خلسة في الليل من الأبواب الخلفية و يمرون على الغابات و يسيرون عشرين لي في الممرات الضيقة لتسليم الأرز الغير مقشور لكتيبة الدفاع عن النفس. و لكن العدو الذي كان يزداد حيرة و يشتاط غضبا أخذ يشدد مراقبته أكثر فأكثر – و خُفِّضَت الكمية المسموح بجنيها الى خمسة كيلوغرامات لكل شخص في اليوم. و كل من يتجاوز هذا الحد يعتبر عونا ((لقطاع الطرق)).

و لكن الناس لم يأبهوا لذلك، و من بينهم كان تشن تشيو تشوان الذي قال: ((فلنجن أكثر قليلا فنأخذ الى البيت خمسة كيلوغرامات و نترك البقية في الحقول، و

في الليل نأتي خلسة و نسلم الأرز المتروك هناك الى كتيبة الدفاع عن النفس.)) و قد وافق الجميع. و كان كل واحد يأخذ خمسة كيلوغرامات الى البيت و يمر على مراكز التفتيش التي أقامها العدو. و في الليل يخرج أحد الرجال خلسة و يجمع الأرز المخبأ في الغابات و ما بين الصخور أو في الحقول أو بين الأعشاب و يسلمه الى كتيبة الدفاع عن النفس.

و في أحد الأيام أوقفَت دورية للعدو في قرية شياو لونغ تشنغ امرأتين من شعب تشوانغ تحملان روث الحيوانات و أخذت تسألهما:

((الى أين أنتما ذاهبتان؟))

فأجابت الامرأتان بهدوء: ((نحن ذاهبتان الى قرية لونغ تشيا تياو لنزرع القطن – حيث أن حقلنا هناك.)) ثم تقدم أحد الجنود البيض و أدخل عصا في السلة و حرك الروث، ثم سمح للامرأتين بمواصلة السير.

و لكن العدو لم يكن يعرف بأن هاتين الامرأتين الحاذقتين كانتا تحملان تحت روث الحيوانات الأرز و الأحذية القماشية. و في ذلك اليوم سلمتا لكتيبة الدفاع عن النفس أكثر من ثلاثين كيلوغراما من الأرز و ثمانية أزواج من الأحذية القماشية.

و فشل العدو في فرض الحصار على كتيبة الفلاحين للدفاع عن النفس. و أخذ المقاتلون الذين يلقون العون و التأييد من شعب ياو يواصلون توجيه الضربات القاصمة للعدو.

و في عام ١٩٢٩ عندما أُسِسَ الجيش السابع من جيش العمال و الفلاحين الأحمر الصيني أعيد تنظيم كتيبة الفلاحين للدفاع عن النفس في الجيش الأحمر.

قصة رجل من الجيش الأحمر[٧]

بقلم تشانغ يو تشي

كيف فقدنا خنزيرنا

انا من عائلة فلاحية فقيرة في قرية تيه تشانغ في محافظة شانغ هانغ في مقاطعة فوكين. و كان والدي عاملا في مصنع للورق. كانت والدتي تزرع قطعة من الارض استؤجرت من احد الاقطاعيين. و كان لي شقيقتان؛ و هكذا مع والدي كنا عائلة مؤلفة من خمسة اشخاص.

و عندما كنت في السابعة من العمر كان والدي يأخذني معه عندما يذهب الى العمل ليخفف العبء عن والدتي. وعندما بلغت الثامنة اصبحت ولدا عاملا في مصنع الورق. و في البيت كنت اساعد والدتي في مهماتها المنزلية مثل جمع الحطب و حمل الماء الخ ...

و في ربيع العام الذي بلغت فيه الثانية عشرة اشترينا خنزيرا و وضعناه في زريبة في ساحة الدار. و كانت والدتي تعلفه كل يوم في الوقت الذي نتناول فيه طعامنا. و كان اول شيء تفعله عندما نعود من الحقل هو الذهاب الى الزريبة و النظر الى الخنزير. و كنا نحن الاطفال نذهب معها. و كانت تدللنا بقولها: ((انتم ايها الاطفال ستأكلون اللحم و تلبسون الثياب الجديدة عندما يحل عيد رأس السنة الجديدة)) و كانت هذه مسألة مثيرة جدا لنا. فعادة لم نكن نستطيع ان نأكل الخضار في وقعاتنا بله اللحم. اما بالنسبة للملابس الجديدة فإننا لم نرها منذ امد بعيد.

---

[٧]- تحتوي هذه القصة على تجارب تشن ماو خوي الشخصية و هو احد رجال الجيش الأحمر كما رواها هو بنفسه – الكاتب.

و اتباعا لمثل امنا كنا نذهب مرارا الى الزريبة لرؤية الخنزير. و كنا نربت على ظهره و نتمنى ان يكبر بسرعة. و قد تحقق املنا قبيل انتهاء العام عندما اصبح وزنه اكثر من خمسين كيلوجراما.

و سرعان ما علم القرويون اننا سنذبح خنزيرا كبيرا، و جاء الجيران و الاقرباء من اجل الشراء. لقد دفعوا الرهائن و القسط الاول من الدراهم و قد قبلها والدي و اشترى بها حبوبا للعائلة. و في اليوم الثامن و العشرين من الشهر القمري الأخير بعد تناول الفطور اخذ والدي و والدتي يبحثان عمن هو افضل شخص في القرية يستطيع ان يقوم بالذبح. و فيما هما يتناقشان وصل احد اوباش الاقطاعي الذي كان قد سمع بمسألة ذبح الخنزير وصل الى بيتنا مع اثنين من اتباعه يحملان العصى و الحبال.

و صاح مناديا على والدي: ((فو شينغ. لقد سمعنا بأنك ستذبح خنزيرا. انك غني نوعا ما، اه)) قال ذلك و ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء.

فغمغم والدي قائلا: ((اوه ... ار ... انه خنزير صغير.))

((انه عمل ليس بالقليل ذبح حيوان. و يكون من الاصلح لك اذا جعلت العم يانغ يرتب الامر لك.))

((اوه، لا!)) قال ذلك والدي و هو ينحني المرة بعد الاخرى.

هل تعني بانك ترفض؟ حسنا، ادفع للعم يانغ الايجارات المتأخرة. لقد اقترضت منه عدة مئات من الكيلوجرامات من الارز في العام الماضي فقط. فاذا اضيفت الفائدة المركبة فذلك يصبح تقريبا مساويا لثمن خنزيرك.))

و بحلق في والدي بعينين قاسيتين و امر الرجلين بالقيام بالعمل، فتقدما الى الامام طائعين و ربطا الخنزير و حملاه. و هكذا فان عاما من الجهد الذي بذلته والدتي في تربية الخنزير قد انتهى الى لا شيء بسبب اللص يانغ.

و فيما كان ذلك الازعر التابع للاقطاعي يغادر بيتنا قال و قد ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء لئيمة: ((بعد ان نذبح الخنزير، اذا ذهبت و استعطفت العم يانغ فربما يعطيك بعض العظام!))

و قد بكت والدتي بكاء مرا عندما أخَذَ الخنزير و هو يزعق. و عندما رأيت شقيقتاي والدتي تبكي اخذتا تبكيان ايضا. و خرجتُ و هززتُ قبضتي في وجه الازعر و صرختُ: ((انك انت الذي سيأكل العظام، انت ايها الكلب القذر.)) فامسكني والدي من ذراعي ودار لي ثم دفعني فسقطت على الارض على عدة اقدام.

ان ديونا جديدة توقع عقودها قبل دفع الديون القديمة. لقد امضينا عيد رأس السنة بلا لحم و لا البسة جديدة. و في الواقع فان الطعام الذي اكلناه في رأس السنة كان حتى اسوأ من ذاك الطعام الذي ناكله في الايام العادية. و بعد ذلك بقليل بيعت شقيقتي الكبرى كعروس – طفلة.

باستطاعتي ان امضى الى ما لا نهاية في الحديث عن امور مثل هذه. و باختصار فان حقدا دفينا على الاقطاعيين قد اصبح بعد ذلك عميق الجذور في نفسي حتى اصبح جزءا من ذاتي نفسها.

قسما بدم الديك

اخذ سكان قريتنا يعرفون شيئا ما عن الحزب الشيوعي بعد تأسيس الحكومة الحمراء في جبل تشنغ كانغ. (يقع جبل تشنغ كانغ على حدود مقاطعتي كيانغسي و هونان). و لمّا كانت حبوب مقاطعة كيانغسي تُقايَض بملح مقاطعة فوكين فقد كان التجار الذين يعملون بين هاتين المقاطعتين يحملون الانباء عن الثورة التي انتشرت الى غربي فوكين حيث كنا نقطن.

و في شتاء عام ١٩٢٨ كنت اعمل في مصنع صغير للورق يقع على جبل يبعد نحو خمسة عشر ميلا عن بيتنا. و كان يعمل في هذا المصنع ايضا احد عمومتي و اثنان من ابناء عمي. و قد حدث ان افتتح سوق في احد الايام في مكان يبعد ثلاثة

اميال عن المصنع. و ارسلني ابن عمي الاكبر مع ابن عمي الاصغر الى السوق لشراء شيء من اللحم و قليل من الخمر. و كانت هذه مهمة سارة. فقد لعبنا في طريقنا ثم وصلنا الى السوق و اشترينا حاجتنا و عدنا في وقت حسبناه قصيرا جدا. و لكن عندما عدنا باللحم و الخمر لم نجد احدا في البيت. و تطلعنا في كل مكان، و اخيرا رأينا ابن عمي الاكبر يقف في ساحة الدار مع ثمانية عمال و قد ارتسم على وجوههم جميعا سيماء الجد الشديد. و كان على الارض مبخرة و شموع موقدة. و قد اوشكت الشمس على الغروب و اخذت الظلمة تشيع في ساحة الدار. و كان عمي يترأس حفلة اداء القسم. و بدأ بأن قطع رأسي ديك و جمع دمه في وعاء. و كان يتمتم: ((اننا نقسم بالشمس بانه اذا تذبذب احدنا في تصميمه فلتحرقه الصاقة ...)) ثم ركعوا جميعا و شربوا الخمر الممزوج بدم الديك. و قد تسمرنا انا و ابن عمي في الارض مبهوتين، و لم نعرف ماذا نعمل. و بصورة لا شعورية ركعنا ايضا و قد ايقظ صوت ركوعنا الآخرين لحقيقة وجودنا. و قد حاولوا طردنا من الساحة و لكننا رفضنا الخروج. و قلنا باننا نريد ايضا ان نشرب بعضا من الدم الممزوج بالخمر.

و بعد حفلة التكريس كان ابن عمي كثيرا ما يبعث بي كمراسل الى معمل الورق المجاور. و هنا يمكنّ ان اضيف بانه كان هناك كثير من مصانع الورق الصغيرة في غربي فوكين، لأن الجبال كانت مليئة بغابات البامبو – و البامبو مادة خام ممتازة لصنع الورق. و كان الفلاحون القاطنون قرب هذه المصانع يعملون فيها عندما ينتهون من الاشتعال الزراعية و من ثم يعودون الى الحقول عندما تقتضي الضرورة.

و قد سألني عمي يوما: ((ما رأيك في الحزب الشيوعي؟)) فقلت: ((اعتقد بأنه رائع))، ثم اخبرته بأنني سمعت من الآخرين: ((بأنه يحرر الناس من طغيان الطغاة المحليين، و يقسِّم الارض بالتساوي بين الناس، و يجعل الزواج قضية متعلقة باختيار الفرد، و يلغي الايجارات المتأخرة.))

فقال: ((هذا صحيح يا ابن أخي! فمن الآن و صاعدا ستستمر في كونك مراسلا لنا. و لكن يجب عليك ان تنتبه كثيرا، لئلا تدع شيئا يتسرب، و إلا فان ذلك يعني الموت لنا، هل فهمت؟))

((اجل لقد فهمت.))

((في اليوم الذي يصل فيه الجيش الاحمر جيش تشوته و ماو تسي تونغ سيحرر الفقراء و المضطهدين. و حينئذ فان امورا مثل نهب خنزير من قبل الاقطاعي لن تحدث ابدا. كن ولدا طيبا و اعمل واجبك بصورة حسنة.))

و عندما سمعت بان الفقراء سيحررون و ان الخنازير لن يغتصبها الاقطاعيون احسست بالابتهاج. و بعد هذه الحادثة اخذت اتطلع الى عمي و جماعته بانهم اعضاء في الحزب الشيوعي، و اخذت احمل لهم احتراما متزايدا. و لم اعرف إلا فيما بعد بأنهم لم يكونوا اعضاء في الحزب الشيوعي و انما كانوا مجرد اعضاء في جمعية فلاحية سرية. و على كل، فقد عملت كمراسل لهم و نقلت جميع رسائلهم السرية و التي معظمها يتعلق بالاستعدادات لانتفاضة فلاحية لتنسيق العمل مع الجيش الاحمر القادم.

و في صيف العام التالي رشحت من قبل تشيانغ ته شنغ و هو احد الزملاء العمال في معمل الورق. و اصبحت عضوا في عصبة الشباب الشيوعي. و فيما بعد قدمت عمتي التي كانت اذ ذاك شابة قدمتها لتكون عضوا في العصبة. و بعد عودتي الى البيت من اجل حصاد الخريف نظمنا، انا و تشيانغ ته شنغ و عمتي نظمنا انفسنا كفرع للعصبة في قريتنا. و كنا نذهب كل مساء بصورة سرية لحضور اجتماعات في الجبال عبر نهر صغير، و كانت المسألة موضع الاهتمام و التي نوقشت كثيرا هي كيفية توسيع فرعنا. و لم يطل الزمن عندما قدم كل واحد منا عضوا جديدا الى العصبة. و بعد ذلك، و سيرا على نهج من هم اكبر منا، اقمنا احتفالا لأداء القسم و شربنا الخمر الممزوج بدم الديك: ((نحن جميعا اعضاء في عصبة الشباب الشيوعي؛ اننا سنقتسم المصير نفسه في الحياة و الموت.)) – كان هذا هو القَسَم

الذي اديناه. و قد شدّنا الاحتفال لبعضنا البعض اكثر من قبل – و في الحقيقة فقد شعرنا بأننا اقرب الى بعضنا البعض من اعضاء عائلة واحدة.

الانتفاضة

بعد ان عدنا الى قرية تيه تشانغ من معمل الورق وجَّه الحزب تعليماته الينا لتوثيق علاقتنا بجمعية الفلاحين السرية، و تنظيم الجماهير، و الاستعداد للقيام بانتفاضة لتنسيق العمل مع القوة الاساسية في الجيش الاحمر القادمة لتأسيس حكومة ثورية حمراء. و في هذا الوقت كان الجيش الاحمر قد مد سلطته الى مناطق واسعة في جنوبي شرقي كيانغسي و غربي فوكين، كما نُظِّمَت القوات المسلحة المحلية في هذه الاماكن. اما في قريتي فقد كان هناك نشاط قليل. و هذا لا يعني بان السكان هناك لم يرحبوا بالشيوعيين، فعلى العكس من ذلك، فقد كانوا ينتظرون رؤية الجيش الاحمر جيش تشوته و ماو تسي تونغ بنفس الشوق الذي ينتظر فيه المسافرون في الليل رؤية شمس الصباح. ان عبارة ((ان الجيش الاحمر فقط هو الذي يمكنه انقاذ الشعب من الفقر)) قد اصبحت على كل شفة و لسان. و لمّا كان الشعب يميل بشدة الى نحو الثورة فأنه لا يحتاج إلا الى قليل من التحريض ليترجم مشاعره الى عمل.

و استعدادا للانتفاضة فقد استخدم جميع اعضاء العصبة و اعضاء جمعية الفلاحين السرية كل وسيلة للحصول على البسة حمراء و على اسلحة. و قد نُبِشَت الصناديق التي تراكم فوقها الغبار و حتى ثياب الاعراس للجدات و الامهات قد أُخِذَت. و كانت هذه تُعطى للفتيات و الشابات اللواتي كنَّ يعملن في الليل في قص هذه الثياب و خياطتها بشكل رايات و شعارات توضع على الاذرع. و قد استُخدِمَت مختلف اشكال السيوف و الرماح القديمة كأسلحة. و اولئك الذين لم يستطيعوا الحصول على مثل هذه الاشياء فقد استخدموا سكاكين المطبخ و الهراوات و العصي الغليضة. و قد فكر بعضهم و بحثوا في مختلف الاماكن و قد نجحوا في الواقع في اكتشاف بنادق كان قد استخدمها ثوار التايبنغ.

و في احدى الليالي المقمرة، تجمع في قرية تيه تشانغ بضع مئات من الفلاحين الذين اتبعوا خطة نظمها بدقة الاعضاء القياديون في القرية. و قد حاصرنا اولا بيت الاقطاعي ''العم يانغ'' (و كان اسمه الحقيقي تشن يانغ تشي) و هو طاغي قرية تيه تشانغ السيء الذكر و هو الرجل الذي نهب خنزيرنا. و في سكون الليل انفجرت اصوات الطبول و الضاجات محدثة ضجة مخيفة. و كان الناس يرعدون بقولهم: ((امسكوا النذل! امسكوا النذل! و قد قدت خمسة عشر فتى كطليعة و هجمنا على المكان و كان تشن يانغ تشي يحاول التسلق الى السطح ليهرب. فامسكت باحدى ساقيه و شددته من على السلم. فتحول اليَّ النذل بغضب و صفعني على وجهي. و اخذ يزمجر: ((انت ايها الشيطان الصغير، كيف تجرؤ على المجيء لتسرق عمك الكبير اذا لم يكن لديكم شيء تأكلونه فاخبر والدك لان يأتي الى مخزني و سأدعه يأخذ بعض الحبوب.))

و قد انبغت هنيهة، ثم شددت قميصه و قلت: ((لا حاجة لأن اسأل والدي ليجيء فأنا استطيع ان احمله بنفسي. هيا للعمل ايها القوم!)) و صحت بالناس. فأخذوا يزعقون بأعلى اصواتهم و جروه الى هيكل اثري من زمن اسرة تشن و أبقوه هناك تحت الحراسة.

و في اليوم التالي نُظِّمَت جمعية للفلاحين بصورة رسمية. و قد اخذت الحبوب التي كانت في مخزن تشن يانغ تشي و كذلك الخنازير التي اخذها من مختلف الناس. و من ثم و وسط الغناء و الهتاف وزعت الحبوب على فقراء القرية، وذبحت الخنازير و قدمت مكافأة لاشجع الرجال في الانتفاضة و اعطي لكل منهم نصف كيلو او كيلو.

و تحت قيادة جمعية الفلاحين، و عمادها اولئك الرجال الذين اشتركوا في الانتفاضة، تشكلت هيئة ثورية جديدة تدعى الحرس الاحمر. و قد قامت باستعدادات فعالة للمساعدة على قيام انتفاضات في قرى اخرى.

و في احدى المرات، و للتعاون مع الجيش الاحمر في مهاجمة مركز محافظة شانغ هانغ، ذهبنا نحن الحرس الاحمر حاملين الرماح و الرايات الحمراء و سرنا نحو المدينة قبل مطلع الصباح. و فيما نحن في الطريق هتف احدهم: ((اسرعوا، ايها الرفاق، لقد دخل الجيش الاحمر المدينة، و ربما يتمتع الآن باحتساء الشوربا.)) و لمّا سمعنا ذلك حثثنا خطانا و نجحنا في الوصول الى المدينة عند انبلاج الفجر. و لكن لسوء الحظ، فان الرجل الذي اخبرنا عن وصول الجيش الاحمر كان مخطأ. فالحقيقة ان الجيش الاحمر قد اخذ طريقا آخر و لم يشتبك مع العدو بعد. و لمّا وصلنا الى المدينة كانت البوابات ما تزال مغلقة.

و قد رأت قوات العدو في المدينة بأننا ''حمر'' هواة و استخفت بمقدراتنا القتالية، ففتحت بوابات المدينة و اطلقت بضع عيارات نارية علينا. و بسبب اننا كنا هيئة منظمة حديثا، و لم نر معركة من قبل، و لم يكن معنا سوى الرماح و الهراوات، فقد شُتِتنا بسرعة.

و لكن بعد اسبوعين اخذ الجيش الاحمر شانغ هانغ، لقد كانت تلك ضربة كبيرة للحكم الرجعي في غربي فوكين. و في الوقت نفسه تعلم الحرس الاحمر ايضا درسهم الاول في تصليب انفسهم في المعركة.

الطلقة الاولى

لقد كانت سياسة الحزب دائما ان يأخذ اشجع المقاتلين في النضال و يعطيهم الفرصة للتقدم. ففي تشرين الاول عام ١٩٢٩ أنتُخِبتُ انا و بعض الشباب الآخرين ممن اظهروا شجاعة في الانتفاضات، إنتُخِبنا من قبل لجنة الحزب في محافظة شانغ هانغ لندرس في مدرسة الجيش الاحمر لغربي فوكين في لانغ ين.

و قد كنت في التاسعة عشرة من العمر عندما دخلت تلك المدرسة. ولمّا كنت قد أجهدت في ايام طفولتي فقد تأثرت صحتي تأثرا سيئا. و كانت بنيتي دون الطبيعية.

و كان طلاب المدرسة يضحكون مني قائلين: ((لماذا انت هنا، انك ما تزال طفلا صغيرا. و من الافضل ان تذهب الى البيت و تعود عندما تكبر.))

و لكنني كنت احتج بشدة قائلا: ((و لكنني قد اشتركت في الانتفاضات.))

فيردون قائلين: ((اذن من الافضل لك ان تنضم لفريق الدعاية.))

و لمّا كنت منكبا على تعلم فنون القتال فقد رفضت ان أعير نصيحتهم اقل انتباه. و عندما رأت سلطات المدرسة بأنني شديد الصلابة فقد وافقت اخيرا على وضعي في صف تدريب الجنود.

ان التدريب في مدرسة الجيش الاحمر كان مسألة طريفة جدا. فكل صف لديه بندقيتان قديمتان فقط، و كان على الطلاب ان يتعلموا استخدامهما بالتناوب. و قد كنت صغيرا جدا لدرجة أنني كنت اقصر من البندقية و كان حملها على كتفي يقتضيني بذل جهد شديد. و لكن حملها كان يبعث السرور الحقيقي في نفسي لأنني كنت اعلم بانها افيد بكثير من الرمح. و عندما كان يأتي دوري في استخدام البندقية كنت أُعنى بها باعتبارها اثمن شيء. فكنت انظفها مرارا قبل الدرس و بعده. و عندما اذهب الى الفراش اضعها بجانبي و عندما كنت استيقظ في الليل كنت اتلمسها برفق.

و لمّا كنت منكبا على تعلم فنون القتال فقد رفضت ان أعير نصيحتهم اقل انتباه. و عندما رأت سلطات المدرسة بأنني شديد الصلابة فقد وافقت اخيرا على وضعي في صف تدريب الجنود.

ان التدريب في مدرسة الجيش الاحمر كان مسألة طريفة جدا. فكل صف لديه بندقيتان قديمتان فقط، و كان على الطلاب ان يتعلموا استخدامها بالتناوب. و قد كنت صغيرا جدا لدرجة أنني كنت اقصر من البندقية و كان حملها على كتفي يقتضيني بذل جهد شديد. و لكن حملها كان يبعث السرور الحقيقي في نفسي لأنني كنت اعلم بأنها افيد بكثير من الرمح. و عندما كان يأتي دوري في استخدام البندقية

كنت اعنى بها باعتبارها اثمن شيء. فكنت انظفها مرارا قبل الدرس و بعده. و عندما اذهب الى الفراش اضعها بجانبي و عندما كنت استيقظ في الليل كنت اتلمسها برفق.

و لمّا كانت الطلقات نادرة جدا فلم تُتَح لنا الفرصة لممارسة الرماية الحقيقية مع انه مضى على وجودنا في المدرسة بضعة اشهر. و قبل تخرجنا فقط أتيحت لنا الفرصة للقيام بذلك. و ما زالت اذكر انها كانت اصابة الهدف على بعد مائة متر و نحن في وضع استلقاء. و قد انفعلت بشدة و كان قلبي يخفق بشدة قبل ان نبدأ الرماية. و كنت اعلم بان اطلاق النار من البندقية يسبب رفسة و كنت لا ادري كم ستكون الرفسة شديدة. اخيرا أعطي الامر باطلاق النار و شددت اصبعي على الزناد. و حدث صوت شديد! و خرجت الرصاصة و لكن ما من احد قد عرف اين ذهبت. و في الحقيقة كانت البندقية قديمة جدا لدرجة انها فقدت الحزوز الحلزونية في ماسورتها و كان من المستحيل ان تهدف على أي شيء بثقة.

((اعطني فرصة ثانية)) قلت ذلك فيما كنت استلقي على الارض مرة ثانية. و لكن قائد الفصيل سحبني من قدمي. و قال لي بانه يجب توفير الطلقات.

و مع ذلك فقد أطلقتُ رصاصة – انها الرصاصة الاولى، و كان هذا في الحقيقة ما يهمني في ذلك الوقت.

اصبحت قائد فصيل

في اواخر خريف عام ١٩٣٠ انهيت تدريبي في مدرسة الجيش الاحمر و أمِرتُ بالعمل مع كتيبة الحرس الاحمر في محافظة شانغ هانغ. و في طريقي الى المحافظة كنت دائم التفكير بمنصبي في المستقبل. و كنت لا افتأ أسائل نفسي ((ما الذي ساعمله؟)) و لم اكن اعلم بانه في الرسالة التي وجهتها ادارة المدرسة الى الحرس الاحمر (التي كانت في جيبي مع اوراق اعتمادي) قد أوصي بي بأنني اهل لأن اكون قائد فصيل.

لقد ذهبت اولا الى بايثا لأرى آمر اللواء تشن و المفوض السياسي تشيو. و قرأ تشيو الكتاب الذي ارسلته ادارة المدرسة و قال: ((آه، و هكذا فأنت فلاح تحرر اثناء احدى الانتفاضات. حسنا، ستكون قائد فصيل.))

و في الحال احتججت و طلبت تعييني نائب قائد فصيل. فقال تشن ضاحكا: ((هل انت خائف من ان تُقتَل في المعركة، آه؟))

فاسرعت موضحا: ((اوه، لا، ان طولي لا يقارن حتى بطول البندقية كما ترى.))

و حتما فان ما قلته لم يكن هو المقصود. فان ما قصدت قوله في الحقيقة هو أنني كنت خائفا من انه ليست لدي خبرة كافية في القتال. و بدلا من ذلك، فان قِصَر قامتي التي كانت مرارا موضوعا لدعابة الاصدقاء، قد زلقت من فمي.

و قال تشيو و هو يشد على يدي: ((لا بأس من ذلك، فكلما قاتلت بصورة افضل و افضل ستغدو اكبر فاكبر.)) ثم أستَدعى السكرتير و طلب اليه ان يكتب كتاب تقديم لي و طلب من احد الجنود ان يذهب معي.

و ما كدت اخرج من الباب حتى استوقفني تشن قائلا: ((تذكر بانه يجب عليك ان تقاتل في ميدان المعركة بنفس الشجاعة التي قاتلت بها ضد الطغاة المحليين.)) فوقفت منتصبا و اجبت بصوت واضح: ((نعم ايها القائد)).

ثم ذهبت الى مقر قيادة السرية التي عُيِّنت فيها و هو في مكان لا يبعد كثيرا عن مقر قيادة اللواء. و قدمت كتاب التقديم الى آمر السرية. و قد كان أمّيا، و في الحال استدعى السكرتير ليقرأ له الكتاب. و بعد اجراء مناقشة قصيرة مع المدرس السياسي قال: ((ايها الرفيق تشن ستكون قائد الفصيل الاول!))

فقلت: ((من فضلك دعني اكون قائد الفصيل الثاني.))

فسألني: ((و لكن لماذا؟))

فتلعثمت و قلت: ((انا ... ار ... ما ازال غير قادر على اطلاق النار بصورة حسنة.))

فشجعني قائلا: ((حسنا، انت من مدرسة الجيش الاحمر.)) ولمّا لاحظ المدرس السياسي اضطرابي الواضح قال: ((ربما لم تمارس اطلاق النار كثيرا من قبل و لكنك ستمارسه كثيرا فيما بعد)) ثم ابتسم و همس بشيء لآمر السرية، ثم تحول اليّ و قال: ((حسنا سندعك تكون قائد الفصيل الثاني.))

و اثناء تناول طعام العشاء اعلن آمر السرية عن تعييني امام رجال السرية؛ و قال: ((ان الرفيق تشين كان احد المشتركين في احدى الانتفاضات و قد ناضل ضد الطغاة المحليين، و هو خريج مدرسة الجيش الاحمر. و قد عُيِّنَ الآن قائدا للفصيل الثاني. فلنرحب به بالهتاف.))

فانفجرت عاصفة من التصفيق و الهاتف. و تطلعت عليهم و اخذ قلبي يخفق بشدة. لقد كانوا جميعهم اطول مني و قد احسست بانهم جميعا يتطلعون اليّ و كأنهم يقيسونني.

و بعد العشاء قدم نائب قائد الفصيل الثاني ليّ قادة مفارز الفصيل الثلاثة و قدم لي تقريرا مختصرا عن الامور بشكل عام.

و قال لقادة المفارز: ((ان القائد الجديد لفصيلنا خريج مدرسة الجيش الاحمر. انكم ستطيعون اوامره و تتعلمون منه.))

و قد لاحظت بانه مثل المدرس السياسي في السرية قد شدد بشكل خاص على كلمات ''مدرسة الجيش الاحمر''.

و قد حاولت جهدي ان ابدو مجربا. و قمت بتفقد الثكنات. لقد كان هناك اثنان و ثلاثون رجلا في الفصيل و جميعهم من الفلاحين المحررين. و كانت اسلحتهم مؤلفة من اربع بنادق موزر و ثلاث بنادق مصنوعة باليد و تستطيع اطلاق رصاصة واحدة فقط. و مع ذلك فقد كنت راضيا كل الرضا عن التجهيزات. ان رجال الفصيل

كانوا في الواقع مجهزين بصورة افضل بكثير من الحرس الاحمر الذين حاربت معهم ضد قوات الرجعيين. ثم سلمني نائب قائد الفصيل و شاحا احمر (و هي علامة الضابط اثناء النوبة) و صفارة و لائحة.

و بعد ان تركني تطلعت على هذه الاشياء و اضطربت غاية الاضطراب. و قد احضر ليَ جندي النوبة وعاء للغسيل، و لكني جلست في الغرفة ساهما. و قد دخل و خرج عدة مرات و لكنني بقيت ساهما. لقد كنت منهمكا في التفكير بكيفية اجراء التدريب. ((واحد، اثنين، واحد – واحد، اثنين، واحد.)) لقد بقيت اردد ذلك في نفسي. و فجأة فكرت بامر هام: لقد كنت امّيا – فكيف يمكنني قراءة الاسماء؟ فجمعت قواد المفارز و سألتهم: ((هل يستطيع احد منكم ان يقرأ و يكتب؟))

فاستفهموا قائلين: ((ماذا تريد ان نفعل لك يا قائد الفصيل؟))

فقلت بارتباك شديد: ((حسنا انتم ترون بأنني أمّي و لا استطيع قراءة الاسماء.))

فقالوا بقنوط: ((و لكن ما من احد منا يعرف القراءة و الكتابة.))

ثم دعوت نائب قائد الفصيل لمناقشة الامر. و لمّا علم بما يضايقني قال: ((لا بأس، انا اعرف كل اسمائهم غيبا و يمكنني ان اعلمك هذه الاسماء)). و بعد ذلك اخذ يذكر لي اسماء جميع رجال الفصيل.

ثم اوينا جميعا الى الفراش، و كان قادة الفصيل و الجنود ينامون جميعهم على مصطبة كبيرة. و بعد قليل كان الجميع قد استسلموا للنوم و اخذوا يشخرون. و اخذت أنقلب يمنة و يسرة و لم استطع النوم. و اخذت افكر، هناك اثنان و ثلاثون رجلا فكيف استطيع ان اتذكرهم جميعا؟ و قد احسست بان المسألة ميؤوس منها. و هكذا نهضت و ذهبت الى المدرس السياسي طالبا النصيحة.

فقال لي: ((انت خريج مدرسة الجيش الأحمر فلماذا انت قلق الى هذا الحد بشأن التدريب؟))

((حسنا، فانت ترى بأنني كنت في المدرسة اتلقى الاوامر دائما و لم يحدث ان اعطيت الاوامر ابدا. و بالاضافة الى ذلك فلم اقض في المدرسة وقتا طويلا.))

((لا بأس، فستعرف كيف تدبر الامور شيئا فشيئا.)) فاحمر وجهي خجلا. ((ان أسوأ شيء هو أنني امّي و لا استطيع قراءة الاسماء)).

و هدّأ المدرس من روعي وقال: ((في البداية يمكنك ان تدع الكاتب يقرأ الاسماء لك. و من ثم تستطيع ان تحفظ اسماء الرجال غيبا و لن يكون هذا صعبا جدا لان هناك اثنين و ثلاثين اسما فقط.))

و قد احسست بالفرج بعد محادثتي مع المدرس. و عدت الى فراشي و سرعان ما نمت.

من المحتم أنني اظهرت ارتباكا شديدا اثناء التدريب في تلك الايام القليلة الاولى. و كان الجندي المكلف برعاية شئوني يلقبني سرا بـ ((شياو كيو باي تشانغ)) أي (قائد الفصيل الشيطان الصغير). و كان احيانا يدعوني بهذا اللقب حتى بحضوري. و لكنه كان امينا علي و لم يهمل واجبه ابدا. و في كل مرة أنتهي فيها من تناول الطعام كان يحضر لي الماء لأغسل قدمي.

و لمّا كان لدي بعض ''التدريب المنظم'' في التمارين العسكرية و مع انه قليل، فقد كنت افضل مدرس في السرية و كان قائد السرية يطريني و يشجعني بمختلف الطرق، و كان احيانا يدعني ادرب افراد السرية كلها. و كان الجنود يتجمعون حولي مبتهجين و يقولون: ((ان قائد الفصيل قد جاء من مدرسة الجيش الأحمر. اننا سنعمل جاهدين لأن نتعلم و لن نجعل تعليمك يذهب سدى.))

و كان قائد اللواء يأتي احيانا و يراقبني و انا اقوم بالتدريب. و كان يقول للجنود: ((ان قائد الفصيل تشن مدرس ممتاز، و عليكم ان تحاولوا جهدكم للتعلم منه.))

و من جانبي، كلما كنت اسمع ذكر مدرسة الجيش الاحمر او كلما كان قائد اللواء يقول لي بشكل خاص: ((عليك ان تتعلم القراءة و الكتابة)) كان قلبي ينقبض جزعا و خجلا من تأخري.

معركتي

و بعد تعييني قائدا للفصيل الثاني بقليل وصلتنا انباء تقول بان قوات العدو في مركز محافظة شانغ هانغ تريد القيام بغارة على لوفنغ و لانتشياتو و ما يحيط بهما للاستحواذ على الحبوب و في الحال صدر امر من قائد اللواء للقيام بهجوم على العدو بعد منتصف الليل و ذلك لحماية الفلاحين و منع العدو من الاستحواذ على موسم الخريف.

و عندما تلقيت الامر اعتراني شعور من الانفعال و الاضطراب. لقد انفعلت لآن القتال ضد العدو قد هز مشاعري بشدة. و شعرت بالاضطراب لانه لم تكن لدي تجربة في القيام بالقيادة و قد صدر الامر بان يقاتل الفصيل الثاني في الطليعة. و كان هذا يعني بأنني و رجالي سنكون في الخطوط الاولى من المعركة. و في المساء تطور شعور الاضطراب لديَّ الى شعور بالكآبة.

و أخذت افكر، لقد تغلبت على الصعوبة في القيام بالتدريب و الآن برزت صعوبة اخرى و هي ادارة معركة لاول مرة في حياتي. و عندما ذهبت للفراش لم يزايلني القلق و لم استطع النوم. و اخيرا طرأت لي فكرة. لقد قلت لنفسي: ((ولِمَ هذا القلق، عندما يحين وقت القتال سأقود الهجوم و هذا كل شيء.))

و بعد منتصف الليل قدت رجالي و سرت. و كانت النجوم تتلألأ في السماء و كان سكون الليل مخيما و لا يمزقه إلا وقع اقدامنا. و بعد سير سريع قطعنا فيه خمسة عشر ميلا وصلنا الى مكان قرب لوفنغ. و كان الظلام ما يزال مخيما و الديكة لم تبدأ بالصياح. و طوّقنا العدو. و سمعنا صوتا شديدا صادرا عن دورية العدو يقول: ((كلمة المرور! اية مفرزة هذه؟)) و امسكتُ بالموزر و اطلقت طلقة

في الظلام و هتفت برجالي ليقوموا بالهجوم. و اندفعنا الى الامام و صعدنا الى تل صغير. و قد أُخِذَ العدو على حين غرة و لم يدر كم هو عدد رجالنا. و بعد ان اطلق بضع طلقات خبط عشواء ولى الادبار على غير هدى. و لاحقناه لمسافة مائة متر. و قد احسست فجأة بألم في الورك ثم سقطتُ على الارض فاقد الوعي.

و كان يبدو لي كأنني اسمع بان العدو قد سقط في برك السمك و حقول الارز و اسمع صوت السقوط. و قد وصل ايضا رجالنا الذين كانوا في المؤخرة و واصلوا مطاردة العدو. واشتد اطلاق النار حتى غدا كانه المفرقعات.

و أُرسِلتُ الى مستشفى الجيش الاحمر في غربي فوكين في تاي يانغ با للمعالجة الجراحية مع سبعة آخرين ممن اصيبوا ايضا بجراح. و قد سألني احد النزلاء القدامى عن سير المعركة. و لم استطع الاجابة على سؤاله فابديت ملاحظة عامة و قلت: ((حسنا، عندما يَرى الأرنب (أي العدو) نمرا فليس امامه إلا ان يهرب باسرع ما يمكن.))

و فيما بعد بعث قائد اللواء من يزورنا. و اذ ذاك علمت بان قوات العدو كانت تعد ثلاثمائة او اربعمائة، و كذلك فقد ارغَمَت عددا كبيرا من الناس على السير وراءها. و كانت قوات العدو مجهزة بالسلاسل و الحبال و تريد اخذ جزء كبير من الحبوب من موسم الخريف الذي جناه الفلاحون. و نتيجة لحملتنا فلم يفقد الفلاحون حبة واحدة من الحبوب. و قد اوقعنا بالعدو ما بين سبعين الى ثمانين اصابة و غنمنا العشرات من بنادقه. و بعد ذلك كتب قائد اللواء رسالة يخبرني فيها بان سبع بنادق قد اضيفت الى عتاد الفصيل الثاني. و نصحني بالا افكر بشيء سوى صحتي و اكد لي بانه بعد شفائي ستكون لي فرص وافرة لمقاتلة العدو. و في الختام اعلمني بان لواءنا قد رُفِّعَ و اصبح وحدة من الجيش الأحمر الثاني عشر. و قد احسست بمنتهى السعادة لهذه الانباء.

العودة لأداء الواجب

بقيت في المستشفى اكثر من شهرين. و كانت انباء الانتصارات الجديدة التي يحرزها الجيش الاحمر تردنا كل يوم تقريبا. و كان من اكثر الانباء المشجعة هو ان قائد ميدان العدو قد اسر حيا من قبل الجيش الأحمر في المنطقة السوفياتية المركزية في كيانغسي. و ما زلت اذكر بان المستشفى كان يتلقى كل يومين نسخة من صحيفة مين شي جه باو (فوكين الغربية اليومية) و هي الناطقة باسم الحكومة الحمراء في فوكين و كوانجتونغ و كيانغسي. و كانت انباء الانتصارات التي تحملها الصحيفة تؤجج الحماس في صدورنا. و كان نزلاء المستشفى يحسون بالملل فهم لا يريدون البقاء في المستشفى و كانوا تواقين للعودة الى اداء الواجب. و بعض منهم ممن جددت ضماداتهم قبل يوم و الذين كانوا يعانون آلاما مبرحة قالوا بأنهم بخير و اصروا على العودة الى مراكزهم. و كانوا يقولون للممرضة: ((ايتها الرفيقة، انظري الى جرحي – انه بحالة جيدة جدا، و مع ذلك فانك تريدينني ان ابقى هنا.))

و قد حدث ان احد النزلاء، مدفوعا برغبة شديدة للعودة الى الثكنات، ترك المستشفى سرا دون ان ينتظر كتاب الخروج. و فيما كان يهيم على وجهه صادف في طريقه عددا من الفتيان الطلائع و قد عقدوا حول اعناقهم ربطة الطلائع الحمراء و بالاضافة الى ذلك كان بعضهم يضع على ذراعه شارة حمراء مكتوبا عليها كلمة ''خفر'' و يحملون الرماح. و قد ظنوه بانه هارب و اوقفوه.

فصرح محتجا: ((ماذا! هل هناك شيء اسمه هارب في الجيش الأحمر؟ أنني عائد الى الثكنات.))

و لكن الطلائع اصروا على قولهم: ((عفوا، و لكن عليك ان تبرز لنا ورقة المرور حتى لو كنت عائدا الى الثكنات.)) و لمّا فشل في مسعاه عاد الى المستشفى.

و كان النزلاء الذين سمح لهم بمغادرة المستشفى موضع غبطة اولئك الذين بقوا فيه. و في الاجتماع الذي جرى لتوديعهم، كان النزلاء الذين جراحهم ليست خطيرة يقولون: ((حسنا، لا يمكنكم ان تسبقونا كثيرا، فربما عدنا غدا.))

و في احد الايام ضجرت حقيقة من حياة المستشفى. فتعكزت على عصا و ذهبت لارى لو هيو تشنغ مدير المستشفى.

و حالما رآني وبخني قائلا: ((ما هو القصد من مجيئك على هذه الصورة، عد الى فراشك بسرعة!))

((و لكنني ايها المدير، قد شفيت من جرحي. فارجوك واتوسل اليك ان تدعني اعود الى الثكنات.))

و لمّا رأى عصاتي ابتسم و قال: ((ايها الشيطان الصغير انظر ماذا تمسك بيدك.))

((اوه، أني ارى ماذا تعني. حسنا، انا لا احتاجها في الحقيقة.)) فالقيت بالعصا على الارض و عضضت على اسناني و درت في الساحة ثلاث مرات هرولة.

فقال المدير: ((توقف عن الركض سادعك تذهب.))

و كنت أهنيء نفسي على حظي السعيد عندما دخلت الممرضة و قالت لي: ((عد، عد، من اخبرك بان تخرج من غرفتك.))

و قد جعلني هذا احس بقنوط شديد. لقد كنت على وشك الخروج من المستشفى و الآن تبدد ذلك الامل و لحسن الحظ تشفع لي المدير و قال: ((دعيه يخرج لانه من الصعب جدا إبقاؤه هنا مدة اطول. ثم اضاف ضاحكا ((و بالمناسبة فانتبهي الا تدعيه يخرج بدون كتاب الخروج لانه إن فعل ذلك فمن الممكن ان تعيده الطلائع باعتباره هاربا.))

و غادرت المستشفى في تاي يانغ با و توجهت الى الثكنات في شيبو لنغ بروح عالية.

و لمّا كان شفائي ليس تاما فحالما اصبحت بعيدا عن المرأى عرجت على احد البيوت و استعرت عصا. و بمساعدة العصا مضيت في سيري حتى اقتربت من الثكنات و عندها القيت بالعصا بعيدا.

و حالما وصلت الى الثكنات ذهبت اولا الى مقر قيادة الفصيل الثاني. و كان جميع رجال الفصيل تقريبا غرباء عني. و قد تعرفت على واحد منهم فقط و كان جنديا عاديا فاصبح قائد مفرزة. و اعلمني بكل ما جرى اثناء غيابي. و اعلمني بان قائد السرية و الجندي الذي كان مكلفا برعاية شئوني قد قتلا في المعركة. اما المدرس السياسي فقد نقل الى منصب جديد. و بسبب التوسع السريع في الجيش الأحمر فان كثيرا من رجال السرية قد رُقِّعوا و اصبحوا في عداد المِلاك و نقلوا و نقلوا الى وحدات اخرى. و لكن واحدا من قادة المفارز السابقين في الفصيل الثاني و اسمه ليو ما يزال في السرية. و قد حارب ببسالة في معركتين فاصبح الآن قائد فصيل.

و كنت مطرقا حزنا على وفاة قائد السرية و الجندي المكلف برعاية شئوني عندما دخل عليَّ ليو. و لمّا رآني وقف وقفة التهيؤ وحيّاني. فاسرعت اليه و شددت على يده. و كنا شديدي التأثر فبقينا نتطلع على بعضنا البعض فترة طويلة قبل ان ندخل في الحديث.

و قد اخذني ليو و اراني جميع التغيرات. فلم يعد هناك رماح في السرية. فكل جندي لديه بندقية و كثيرون لديهم قنابل يدوية. و فيما كنت ابدي اعجابي بتحسن عتاد السرية اقبل قائد السرية الجديد و المدرس السياسي اللذان لم ارهما من قبل. و قدمني ليو لهما. و صافحاني بحرارة و عبرا عن سرورهما لعودتي. و قدمت لهما الكتاب المرسل من المستشفى. و بعد قراءته قررا في الحال ان يجعلاني قائد الفصيل الاول.

وسألاني: ((هل شفيت من جرحك؟))

فاجبت: ((لقد شفيت عمليا، مع ان الرباط لم يُفَك بعد.))

فاضافا قائلين: ((استرح جيدا، لقد عدنا لتونا من مقر قيادة اللواء. ان تطورا جديدا في الوضع على وشك الحدوث و لن يطول الزمن عندما تعود الى المعركة مرة اخرى.))

و قلت: ((جيد، لقد كنت افكر في القتال في هذه اللحظة)). ثم قلت لنفسي: ((اذا دخلت معركة اخرى ساصبح اكثر تأكدا من نفسي.))

الدفاع عن هوكانغ

ان التطورات التي تحدث عنها قائد السرية و المدرس السياسي هي كالآتي! لقد حشد الكومنتانغ فرقتين و هما تندفعان الى الامام من لونغ ين و تابو في عدة اتجاهات و هدفهما الاستيلاء على هوكانغ مركز الحكومة الحمراء في غربي فوكين. و لهذا فقد رفع شعار الدفاع عن المنطقة السوفياتية في غربي فوكين و انتشر هذا الشعار بصورة واسعة بين الجماهير.

لقد كان جميع سكان المنطقة السوفياتية في غربي فوكين منشغلين. و قد نُقِلَ المسنون و العجزة الى الجبال. و قد انتشر الشباب في المحافظة يفتشون عن قطع الحديد و ملح البارود. واعدت النقالات و اقام الحرس الاحمر عدة مراكز للخفر. و اقيمت خطوط الدفاع في مقاطع الطرق و نصبت فيها مدافع قديمة من مخلفات جيش التابينغ و المدافع الخشبية التي كان يصنعها السكان المحليون. و كانت لمدافع التابينغ مواسير معدنية طولها نحو سبعة اقدام و قطرها من خمس الى عشر بوصات. اما المدافع الخشبية فقد كانت تصنع من جذوع الاشجار الساقطة في الجبال. و كانت تُجَوَّف و تُطَوَّق باطارات حديدية. و كان مرمى هذه المدافع محدودا، و لكنها اذا ما ملئت بقطع الحديد و ملح البارود فتصبح لها قوة انفجارية هائلة، و في حالة الهجمات الكتلية تستطيع ان تقتل عددا كبيرا على بعد عدة مئات

من الامتار. امّا جذور البامبو الكبيرة في الجبال فكانت تسقط و تُقطّع الى قطع شائكة و تعامل ببول البقر و تجفف على النار و كانت تغرس في الأماكن التي يقدر ان يمر منها العدو. و كانت هذه القطع الشائكة قوية و حادة و سامة. فاذا ما داس احد عليها فان قدمه تخرق. و كنا ندعو المنطقة المزروعة بهذه الاشواك ''موقع اشواك البامبو''.

و قام جنود الجيش الاحمر في مختلف الاماكن باستعدادات فعالة للهجوم. و قد اعطيت سريتنا مهمة قطع الطريق على قوات العدو الزاحفة من لونغ ين و كانشه باتجاه يونغ تنغ. و في احد الايام عقدنا اجتماعات تأهبية و تهيأنا للحرب بنشاط. و كان جميع الجنود يتمتعون بروح عالية. و بعد الاجتماعات انشغلوا بتنظيف بنادقهم و فحص الطلقات و ربط احذيتهم المصنوعة من الاعشاب. و من اغطية الفرش التي صادروها من الطغاة المحليين صنعوا اكياسا تتسع لعدة ارطال و بذلك يستطيعون ان يحملوا الارز في جعبهم.

ثم جاء اليوم الذي انتظرناه بشوق. و قد بدأنا زحفنا عند غروب الشمس و وصلنا ليلا الى مكان يبعد نحو اربعة اميال عن كانشه. و نصبنا كمينا على قمة تل قرب الطريق. و هناك، كنا على اتم الاستعداد و شددنا على بنادقنا ننتظر العدو بشوق.

و عند الفجر رأينا قوات العدو خارجة من كانشه و هي تقترب، انها لم تكن تدري بأنها تسير نحو حتفها. و حافظنا على السكينة و تركنا احد الافواج يمر بجانب سفح التل. و عندما اقترب الاعداء اكثر قليلا بدأت مدافع التابينغ و المدافع الخشبية التي كانت مع حرس يونغ تنغ الاحمر و التي كانت مشرفة على الطريق، بدأت في العمل. ثم انقض الحرس الاحمر على العدو كدبر من النحل، و قد ترددت صرخاتهم المدوية في جينات الجبال. و في الوقت نفسه هجمنا من موقعنا و انقضضنا على قوات العدو من الخلف و نحن نصرخ: ((اقتلوهم! اقتلوهم!)).

و كانت قوات العدو غير متهيئة ابدا لهذا الهجوم فاصابها الذعر الشديد. و حاولت ان تجد مخرجا للعودة الى كانشه و لكن كثيرا منهم دُفِعوا الى الجبال حيث قُتِل منهم اكثر من مائة.

و كان من بين الاسلحة التي غنمناها رشاش مكسيم الذي غنمه الفصيل الثالث. و لمّا كانت هذه هي المرة الاولى التي نرى فيها مثل هذا السلاح فلم نعرف كيف نستعمله. و تطلعنا عليه باستغراب و سألنا احد اسرى الحرب عن كيفية استعماله. و بعد فحص سريع اخبرنا بان هناك قطعتين مفقودتين منه. فارسلنا على الفور بعض الرجال للتفتيش عن القطع المفقودة. و وُجِدَت القطعتان و رُكّبَ رشاش مكسيم بجميع قطعه. و لمّا لم يكن احد منا قد استعمل الرشاش من قبل فمن الطبع يان نشعر بحماس عظيم. و جعلنا احد اسرى الحرب ''معلمنا'' و بدأ الدرس في ساحة المعركة. و حل الليل و كنا لم ننم منذ اربع و عشرين ساعة. و لكننا كنا مأخوذين بهذا الشيء الجديد و لم يكن احد منا يريد النوم و كذلك كان شأن المدرس السياسي. و وقفنا في الصف لتلقي التعليمات، و اخذ واحد بعد الآخر يطلع على فن استعمال السلاح الجديد.

و لم يكن ''المعلم'' متحمسا كما هو شأن الطلاب و قد غفا عدة مرات. و قد نفذ صبر احد الرجال و قَرَص الأسير في اذنه قائلا: ((لقد تعبت من تعليمنا، آه؟))

و كنت اعلم بأنه فعل ذلك مازحا، لأنه كان متحمسا جدا لأن يتعلم كل شيء عن السلاح الجديد. و لكن كان علي ان اوقفه لأن ذلك خرق لنظام الجيش الاحمر. و سألته: ((هل نسيت سياستنا فيما يتعلق بمعاملة الأسرى؟ فأعترف على الفور بخطأه و أعتَذرَ. و لكن حماسه و حماس الآخرين للتعلم كان ما يزال عاليا. و كانوا يَدَعون ''المعلم'' يأخذ قسطا من الراحة اما هم فلم يفكروا بذلك. و لكي يحافظوا على عدم انقطاع تقدمهم فقد كانوا عندما يستريح ''المعلم'' يأخذون في التعلم من بعضهم البعض.

لقد كانت المعركة مسرة و نجاحا. و كان من الممكن ان تكون تجربة تامة لو لم تزل قدمي و أسقط مما سبب انتكاسا لجرحي. و قرر قائد اللواء بأن اعود الى المستشفى مرة اخرى. و لم استطع إلا أن اطيع، و هكذا حُمِلتُ على نقالة و أرسِلتُ مرة اخرى الى المستشفى في تاي يانغ با مرة ثانية.

لقد تعززت السرية

لقد كانت اقامتي الثانية في المستشفى طويلة و خلال فترة معالجتي شن العدو ما لا يقل عن ثلاث عمليات تطويقية ضد الجيش الاحمر و جميعها انتهت الى الفشل الذريع. و فيما كانت تجري الهجمات و الهجمات المعاكسة ما بين قوات الكومنتانغ و قوات الجيش الاحمر كان على المستشفى ان ينتقل اكثر من مرة. و أثناء فترة النقاهة قبلت عملا في المستشفى و أصبحت رئيسا لحرسه.

و في تشرين الاول عام ١٩٣١ ارسلني الحزب لأتدرب في الفريق السياسي في الجيش الأحمر الثاني عشر. و كانت فترة تدريبي قصيرة جدا – عشرين يوما فقط. و بعدها عُيِّنت مدرسا سياسيا في السرية الثانية في اللواء ٢٠٦ من الفرقة ٣٦.

لقد ادهشني غنى السرية الثانية بالعتاد. و كانت الحقيقة هي ان الجيش الأحمر بعد ان واجه عدة حملات و خاض عدة معارك غنم من العدو كميات هائلة من الاسلحة واللوازم. و كان مع رجال السرية حتى بنادق ((تشانغ – تشنغ)) بحرابها اللامعة. و قد ارتدوا البسة غُنِمَت من قوات الكومنتانغ، و بالطبع فقد نزعت عن القبعات اشارة الكومنتانغ الكريهة. و باحذيتهم المطاطية الجديدة فقد ظهروا أخّاذين في الحقيقة. و لكن الشيء الذي جعلني سعيدا اكثر هو ان كل سرية اصبح لديها الآن رشاشات. و قد اشتد سروري عندما علمت بأن العدو قد زودنا ليس بالاسلحة فقط بل بالرجال ايضا. فقد كان ثلث افراد السرية تقريبا من جنود الكومنتانغ الذين كانوا يقاتلون ضدنا. لقد اسرناهم و اعدنا تثقيفهم، و سرعان ما اصبحوا رجالا مخلصين في الجيش الاحمر. و قاتلوا ببسالة ضد قوات جيانغ كاي تشك. و بهذه الطريقة كان رجال الجيش الأحمر يُعَزَزُون باستمرار.

و كان سكان المناطق السوفياتية ايضا شديدي التوق للألتحاق بالجيش الأحمر. ففي ربيع ١٩٣٢ تقرر ان تبقى سريتنا في شانغ هانغ لفترة قصيرة للأستراحة و اعادة التنظيم. و قد مُنِحْتُ اجازة لزيارة اهلي. و كلفت ايضا بمهمة العودة بمفرزة من المجندين خلال اسبوع. و بمساعدة السوفييت المحلي انجزت مهمتي في خمسة ايام فقط و احضرات معي الى الجيش الأحمر ثمانية و عشرين من الشباب المتطوعين.

و قبل ان نعود اخبرتهم بالمشقات القاسية التي يجب على رجال الجيش الأحمر ان يتحملوها و بالتنظيم الدقيق الذي يجب عليهم التقيد به، و قلت لهم: ((نحن قرويون اصحاب و بالطبع فنحن كقرويين اصحاب لا نستسيغ فكرة الانفصال عن بعضنا بعض: و نحن نرغب ان نعيش معا و اذا كان لا بد فسنموت معا في نفس المكان. و لكننا في الجيش الاحمر لسنا احرارا في ان نفعل ما نرغب في عمله. علينا ان نتقيد بالنظام. يجب علينا ان نذهب الى أي مكان يطلب الينا رؤساؤنا الذهاب اليه. علينا ان نكون ((على استعداد للمرور في اية محنة من اجل الثورة)).

فأكَدوا لي قائلين: ((ان الناس الذين يلقون الاضطهاد من البيروقراطيين و الاقطاعيين في العالم كله هم اعضاء في عائلة واحدة. ان جميع الفقراء في العالم هم رفاق و ابناء وطن واحد و ما دمنا نقاتل ضد الرجعيين فأننا سنتبع الجيش الأحمر حتى نهاية الأرض، و نحن على استعداد لتحمل كل انواع المشقات.))

و سرعان ما توحد جميع المجندين و المقاتلين القدامى في السرية في ارادة واحدة و قلب واحد. و هذا طبيعي تماما، ففي الحرب الثورية تصبح الروابط الطبقية اقوى من أي شيء آخر، انها تربط الناس برباط وثيق، لا يمكن قطعه.

الى الامام! الى الامم!

اصبح الجيش الأحمر شديد الفعالية بعد الانتصار الذي حققه في الحملة الثالثة ضد التطويق.

و عندما انهيت مهمة التجنيد التي كُلّفتُ بها و عدت الى السرية كانت قواتنا قد بدأت السير فتركنا شانغ هانغ و مررنا خلال شون وي و انيوان في المنطقة السوفياتية الوسطى في مقاطعة كيانغسي و قد خضنا معركة موفقة عند شوي كو في نام يونغ في مقاطعة كوانختونغ ثم عدنا بطريق سنفنغ و يوتو و ننجتو و كوانجتشانغ في المنطقة السوفياتية الوسطى في الكيانغسي بعد ان قطعنا مئات الاميال. و من اجل فتح ممر بين المنطقة السوفياتية الوسطى و المنطقة السوفياتية في شمالي شرقي كيانغسي قمنا باعمال حربية متحركة لعدة اشهر. و في شتاء ١٩٣٢ اخذنا نان تشنغ و كيني و تسيكي و كنا نزحف باتجاه لنتشوان خالقين الذعر في اوساط قوات العدو المرابطة في نان تشانغ عاصمة كيانغسي.

و قد خضنا احدى المعارك في خوانغ شه تو بعد الاستيلاء على نان تشانغ. لقد كانت معركة كبيرة ابدنا خلالها فوجين من قوات جيانغ كاي تشك. و طاردنا قوات العدو دون توقف مدة عشرة ايام دون اعتبار للجو ان كان صاحيا او ممطرا و كنا نقطع كل يوم اربعين ميلا. و في نهاية الزحف ذهب جميع الرجال ليناموا على الفور. و لم يبدِ احد منهم أي تذمر. لقد تعلموا من تجاربهم بأنه كلما طال زحفهم كلما كانت وليمتهم اعظم (و كلمة وليمة كانت شائعة في الجيش الأحمر و تعني عدد قوات العدو التي تباد).

و عندما كنا نقوم بالزحف ليلا كنا نأخذ احيانا فاصلا من الراحة يستمر عشر دقائق. و كان الرجال يخشون ان يسيطر عليهم النعاس فينامون و يتخلفون عن السير و لهذا كثيرا ما كانوا يجلسون جماعات جماعات و ايديهم متشابكة. و هكذا عندما ينهض الرجال لإستئناف السير يستيقظ اولئك النائمون اوتوماتيكيا.

و مع ان هذه فكرة حسنة لكنها احيانا لم تكن تفي بالغرض. و الحادثة التالية و التي هي غاية في الطرافة و هي بالاحرى نكتة دليل على ما نقول. فقد جلس خمسة جنود و قد شبكوا ايديهم مع بعضهم البعض كالعادة. و قد غرقوا جميعهم في نوم عميق و عندما استيقظوا وجدوا أنهم لوحدهم. و كانوا تواقين للحاق برفاقهم

فاسرعوا بالسير، و قد ساروا في طريق اخرى و وصلوا الى وحدة اخرى من وحدات الجيش الأحمر التي كانت مشتبكة مع العدو في معركة بالسلاح الابيض. و ظنوا بأن هذه وحدتهم و اشتركوا في الهجوم. و قد أسروا عددا من الاسرى، و عندما عادوا الى مقر الوحدة اكتشفوا خطأهم. و بعد لأي وجدوا فريقهم و انضموا اليه.

الى الامام! الى الامام! فصيل بعد فصيل، و سرية بعد سرية واصلوا مطاردة العدو. و كان المتقدمون يسحبون المتخلفين و المتخلفون يدفعون المتقدمين. و لم يكن الرجال يفكرون بأي شيء سوى الزحف الى الامام. و كان البعض يغلب عليه النعاس و هو سائر. و في الوقت نفسه كان المدرسون السياسيون يذهبون الى الامام و الى الخلف ليعنوا باولئك الذين اصابهم التعب الشديد و لا يستطيعون الاستمرار في السير. و كثيرا ما كان عليهم ان يسيروا وراء الطابور. و في احدى المرات وصلنا الى مفترق للطرق و توقفنا لنعطي الطريق لاحدى الوحدات الشقيقة. و اثناء توقفنا هناك غلب علي النعاس و نمت. و لم استيقظ إلا عندما دفعني احد الرجال من الخلف و هو يقول: ((ايها المدرس، لقد ذهبت القوات)) و عندها نهضت و اسرعت للحاق بالجيش.

هدايا العام الجديد للعدو

بعد الختام المظفر لمعركة خوانغ شه تو عدنا من ليتشوان الى المنطقة المحيطة بننجتو و شنجتن و لوكو لنأخذ قسطا من الراحة و لإعادة التنظيم. و كان العدو اذ ذاك يعبِّد طريقا من هوانغ الى يوانغ فنغ لتسهيل المواصلات و القيام بهجوم منتظر علينا. و كاجراء مضاد قمنا بهجوم سياسي في مكان قرب شنكانغ و تانغ كو.

و كان العام الجديد يقترب، و قد تلقيت سريتنا من القيادة العليا كمية كبيرة من اللحم و الفستق السوداني و الخمر. و قد فكرنا بأن ظروف جنود جيش جيانغ كاي تشك، و معظمهم جندوا قسرا، كانت ظروفا تثير الشفقة. و بينما كنا نتمتع باللحم و الشراب اخذنا نتحدث عن بناة الطرق بقلوب شفوقة. و كنا نقول لبعضنا البعض:

((انظروا انهم يقومون بعمل شاق في عيد رأس السنة فلنرسل لهم بعضا من هدايا العام الجديد.))

و في الحال برزت مسألة كيفية ارسال الهدايا لهم. و كنا نعلم بأن ضباط جيش العدو يخافون من تأثير هذه الهدايا على جنودهم. و لهذا كان ارسال الهدايا بصورة مباشرة خارج الموضوع. ثم طرأت لاحدنا فكرة طريفة. و طبقا لخطته استفدنا من ظلام الليل و اودِعنا في مكان قرب موقع العدو نحو خمسين كيلوجراما من اللحم و الفستق السوداني و مأكولات اخرى و معها بعض منشورات الدعاية عليها شعارات مثل: ((نحن نرحب بجنود الكومنتانغ لأن يأتوا الينا مع بنادقهم و ينضموا للجيش الأحمر)). ((الجيش الأحمر هو جيش الفقراء)) ((يا جنود الكومنتانغ المضطَهَدين وجِّهوا بنادقكم الى الكومنتانغ.)) الخ ...

و أُضيء قنديل أحمر و وضع بجانب الهدايا. و عندما رأى الأعداء القنديل اخذوا يطلقون النار و لكننا كنا قد اختبأنا. و اخذنا نصيح من بعيد: ((يا جنود الكومنتانغ نرجوكم ألا تطلقوا النار علينا، لأن الفقراء في العالم كله هم اعضاء عائلة واحدة. اثناء قتالنا ضد الطغاة المحليين حصلنا على بعض اللحم و الخمر و ها نحن نبعثه لكم كهدية للعام الجديد. انها موضوعة قرب القنديل الأحمر، نرجوكم ان تذهبوا و تأخذوها.))

و بعد الحملات الثلاث المضادة للتطويق تعلم جنود جيش الكومنتانغ كثيرا من الامور من الاسرى الذين كنا نطلق سراحهم بعد ان نعاملهم معاملة حسنة. لقد علموا بأن الجيش الأحمر هو جيش الفقراء و ان الجنود الحمر يقاتلون ضد كبار الإقطاعيين و البيروقراطيين الفاسدين و الطغاة المحليين و انهم لا يحملون ضغينة لجنود جيش جيانغ كاي تشك. و عدا هذا فانهم يفعلون ما يقولون، انهم لا يكذبون ابدا. و هكذا فان كثيرين منهم ذهبوا الى حيث كانت الهدايا و بعد ان اخذوها جاءوا الى جانبنا مع بنادقهم.

و كنا احيانا نستخدم سلاح القوس و النشاب لنشر دعايتنا. فكنا نربط منشورات الدعاية بالسهام و نطلقها على مواقع العدو. و قد استخدمنا طرقا اخرى لنشر دعايتنا، منها ان نكتب الشعارات على الواح خشبية و نطليها بزيت التونغ و نلقي بها في نهر كان. و كان التيار يحمل تلك الالواح الى نان تشانغ عاصمة كيانغسي. و قد افادت في تشجيع الشعب و لعبت دورها في تحطيم معنويات العدو.

نزاهة رجال الجيش الأحمر

و بعد ذلك بدأ العدو حملته التطويقية الرابعة. و قام رجالنا من لوكو و اتجهوا شمالا. و بعد يومين من السير السريع وصلنا الى جبال خوانغ بي و تونغ بو الواقعة ما بين بي خوانغ و كوانغ تشانغ. و هناك نصبنا كمينا. و قد تنبأنا بأن قوات العدو التي تتحرك من بي خوانغ و كوانغ تشانغ ستمر من هناك. و لهذا كان الاشتباك معهم متوقعا.

و خيم الليل و ساد السكون في الجبال. و فيما كنا نتطلع الى الامام الى "وليمة" دسمة كانت قلوبنا تخفق من شدة الانفعال. و في صباح اليوم التالي انتشر ضباب كثيف و كانت قمم الجبال تبدو كأنها جزر في البحر. و سمعنا صهيل الخيل عن بعد. لقد كان تنبؤنا صحيحا. ان فرقتين من قوات العدو تسيران من بي خوانغ الى كوانغ تشانغ و كانت قوات العدو تبدو في سيرها كانها افعى كبيرة و كان رأسها و ذنبها خارج نطاق رؤيتنا و فيما كانت تمر قرب سفح الجبل انقضضنا عليها في عدة طوابير و قطّعنا الافعى الكبيرة الى اقسام عدة و قد أَخْرَجَتْ فرقتنا العدو تماما من العمل. و قد قتلنا احد قادتهما و اسمه لي منغ و اسرنا القائد الآخر و اسمه تشن شه تشي.

و لمّا نسيت كثيرا من التفاصيل فمن المستحيل عليَّ الآن أن اعطي وصفا كاملا لتلك المعركة. و لكن بقيت في ذاكرتي حادثة هامة غاية في الطرافة. فأذكر انه عندما انقض رجال سريتنا على العدو اسرنا مدير الدفة و عشرات من الجنود و رشاشين. و عندما أُحضِر مدير الدفة الايسر امامنا اخذ يتصرف بطريقة مضحكة.

فقد ركع امام احد رجالنا و يدعى تانغ ثم سجد امامه عدة مرات. و قد استغربنا لطريقة تصرفه و قلنا له: ((لا تخف منا ان رجال الجيش الأحمر لا يقتلون الاسرى.))

فنهض و قال: ((ارجوكم دعوني اذهب)) و خلع من اصبعه خاتما ذهبيا و القاه في يد احد رجالنا و ارتسمت على وجهه الشاحب ابتسامة صفراء. فسحب الرجل يده بسرعة و عاد الى الوراء عدة خطوات و قال له: ((نحن لا نريد شيئا من مثل هذه الاشياء.)) و احمر وجهه استنكارا.

فبُغِتَ الاسير و ظن بأنه لم يوفق في جعل تانغ يفهم قصده. فبلع ريقه و غمزه بعينه و همس قائلا: ((أطلِقْ سراحي و سأرضي خاطرك، فبامكاني ان اجعلك ثريا. اني املك خمسة آلاف ريال فضي و هي مدفونة في واد صغير. فاذا ساعدتني على العرب سآخذك هناك و ستُخرج الدراهم. انها كافية لمنحنا السعادة بقية حياتنا.))

فدفع تانغ بيده و وبخه مزمجرا: ((ان ما نريده نحن رجال الجيش الاحمر هو القضاء على الرجعيين و ليس الدراهم.))

و أُخرجَت الخمسة آلاف ريال و حوِّلت الى خزينة الجيش كملكية عامة. امّا بالنسبة لمدير الدفة فبالطبع احتفظ به اسيرا.

البقاء في المؤخرة

و بعد ان تعلمت قوات جيانغ كاي تشك دروسا عدة لم تعد تعمل بطريقة هوجاء. فقد اتبعت استراتيجية جديدة و هي بناء الحصون فيما هي تتقدم، و كانت تتقدم ببطء شديد ميل او ميلين او ثلاثة اميال في كل مرة. ثم شنت الحملة التطويقية الخامسة. و لسوء الحظ كان يسيطر على الحزب المنحرفون ''اليساريون''، و بدلا من أن يعمل الجيش الأحمر طبقا للستراتيجية و التاكتيك اللذين وضعهما الرفيق ماو تسي تونغ فقد اقترف مغامرات مهلكة. ان هذا الانحراف قد جعله يقترف حماقات كبرى و اوقع بالجيش خسائر جسيمة.

و اثناء اشتباك الجيش الأحمر مع العدو، قاتلت سريتنا اولا في ليتشوان و كوانغ تشاننغ و تشيانغ و تيننغ منطقة الحدود الواقعة ما بين كيانغسي و فوكين و من ثم في يونغان و ليان تشنغ و شويكو و كوتيين في فوكين. و في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٣٤ عدنا الى وين فانغ و هناك اشتبكنا مرة اخرى مع قوات الكومنتانغ. و في احدى المعارك سحقت سريتنا فصيلا كاملا من فصائل العدو و نقلت هجومنا مباشرة الى مقر قيادة اللواء. و هنا القى احد جنود العدو قنبلة يدوية اصابت معصمي بجرح خطير. و أرسِلْتُ الى مستشفى كوتشنغ للجيش الاحمر في تشانغ تنغ للمعالجة ثم نُقِلْتُ الى مستشفى آخر قرب جويتشن العاصمة الحمراء و التي نُقِلَتْ فيما بعد الى تشيو باو. و بسبب اشتداد وطيس الحرب استمر المستشفى في استقبال الجرحى اثناء تنقله.

و اذكر ان عدد الجرحى الذين دخلوا المستشفى من رتب ضباط السرايا فما فوق قد وصل الى عدة مئات. و هذا يظهر كم كانت المعارك حامية في ذلك الوقت. و خلال الحرب التي كانت نضال حياة او موت وضعت السلطات شعار ''معالجة سريعة للجرحى''. و قد حسن طعام المرضى و كثير منهم قد شفي باسرع من المعتاد. و قد عادوا الى الجبهة حالما اصبح بامكانهم السير بدون عكازات. و قد كنت بين فريق من المِلاك يبلغ عددهم نحو مائتين و كنا ننتظر شفاءنا و نحن على احر من الجمر.

و في عصر احد الايام دعا سكرتير فرع الحزب في المستشفى الى اجتماع لجميع الرفاق و ادلى بالتصريح التالي: ((ايها الرفاق، ان قوات العدو تقترب الآن من جويتشن العاصمة الحمراء. و قد قاد الرئيس ماو تسي تونغ الجيش الأحمر و ترك جويتشن. انه سيستمر في القتال ضد العدو و لأقامة مناطق سوفياتية جديدة (أي ان المسيرة الطويلة قد بدأت). و بالنسبة لمرضى المستشفى فيجب اتخاذ تدابير عاجلة بشأنهم. فاولئك الذين شفوا و يستطيعون السير سيذهبون في الحال للحاق بالقوة الاساسية للجيش الأحمر. و اولئك الذين جراحهم خطيرة او انهم عاجزون

عن السير سيُرسَلون الى مختلف الاماكن للإقامة هناك من اجل القيام بنشاطات في المستقبل. ايها الرفاق، تذكروا ان الامانة للثورة يجب التمسك بها بأي ثمن. و اولئك الذين تُركوا في المؤخرة هم بذور الرئيس ماو تسي تونغ من اجل القيام بنشاطات ثورية في المستقبل. و مهما عَظُمَت المشقات و مهما كان الطريق وعرا واصلوا نضالكم و سيأتي ذلك اليوم الذي يعود فيه قائدنا الرئيس ماو تسي تونغ مرة اخرى)).

و بعد ان انتهى من القاء كلمته خيم السكون على المكان لبرهة. ثم ارتفع صوت جهوري من بين الجمع: ((نحن نريد ان نتبع الرئيس ماو و نقاتل للخروج من الحصار)). و عندها رفع جميع الرفاق الحاضرين ايديهم معا تأييدا للإقتراح. و كثير من الايدي التي ارتفعت كانت ما تزال في الضماد. نحن نريد ان نذهب حيثما يذهب الرئيس ماو)). لقد هتفوا بذلك بأعلى اصواتهم. و قد تطلع بعض الرفاق بحسرة الى اطرافهم و اجسادهم المضمدة و ادركوا انهم لا يستطيعون اللحاق بالرئيس ماو. و بعض الرفاق القوا بعكازاتهم و قد سئموا منها و صاحوا: ((اعطونا بنادق، اعطونا بنادق ...)) و تطلعت بيأس الى معصمي المصاب بجرح خطير و لكنني مددت ساقي لأعَوِّض عن ذلك و كررت الهتاف مع الرفاق الآخرين: ((فلنذهب حيثما يذهب الرئيس ماو.))

و لكن نظام الجيش الأحمر كان نظاما حديديا و يجب ان نطيعه في كل الظروف. و كان علينا ان نسلخ انفسنا عن القوة الرئيسية في الجيش الأحمر. و قد كبتنا مشاعرنا بقدر المستطاع و سمحنا لأنفسنا بأن نُنقَل الى مختلف الأماكن.

لقد سقطت العاصمة الحمراء بيد الاعداء. و ها هو دوي المدافع يعلو و يقترب.

طريق جديد

لقد اخذت اصوات المدافع تزداد علوا و هذا قد دلنا على ان العدو يقترب.

و جاءني احد الرفاق المصابين بجروح خطيرة، و هو المفوض السياسي في اللواء و اسمه خوانغ. و كان صدره مضمدا و احدى ذراعيه في الجبيرة.

و خاطبني قائلا: ((هيه! ماذا ستفعل؟))

فاجبته: ((سأعود الى فوكين و التحق بقوات الأنصار!))

((رائع!))

و التفَّ حولنا الرفاق الآخرون و قالوا بصوت واحد: ((فلنذهب سوية.))

و كنّا خمسة عشر شخصا جئنا من مختلف الوحدات و لكن كان يجمعنا رأي واحد و إرادة واحدة و كان هناك ثلاث ممرضات من فوكين و قد صممن على الإنضمام الينا جاعلات عددنا ثمانية عشر. و بثقة و شجاعة سرنا في طريق جديد من النضال.

و اصبح المفوض خوانغ قائدنا باتفاق الجميع. و كان مصابا بجروح خطيرة و قد وَجَدَ صعوبة في السير. و كثيرا ما كان الالم المنبعث من صدره يرتسم على وجهه فيعض على شفتيه. و لكن تحت حاجبيه الكثيفين كانت عيناه المتوقدتان تدللان بوضوح على تصميمه و قوة شكيمته. و اثناء سيرنا لم نسمعه يئن ابدا و لكننا كنا نسمعه مرارا يقول بصوت الواثق: ((ان الرئيس ماو سيعود مرة اخرى)). ان ثقته بعودة الرئيس ماو كانت مصدر تشجيع لنا. و قد احسسنا بانه مهما كانت المصاعب التي ستواجهنا فلن نتراجع.

و اخذت قوات العدو التي كانت اذ ذاك ثملة بالنجاح تنشر اللهب في كل مكان من الجبال لتتأكد من عدم بقاء احد من رجال الجيش الأحمر مختفيا في شعاب الجبال. و في مثل تلك الظروف كان علينا ان نسير في طريق ملتوية لكي لا نمكن العدو من رؤيتنا. فكنا نختفي نهارا في الوهاد، و نواصل سيرنا ليلا الى فوكين. و كنا نَقْطَع في كل مرحلة عشرة اميال في الحد الاقصى.

و جميع الرفاق الخمسة عشر كانوا مصابين بعجز بهذا الشكل او ذلك. ما عدا قدرتنا على السير فقد كانت سليمة. و كانت الممرضات الثلاث اللواتي سرن معنا عونا كبيرا لنا. و لمّا كن يحملن معهن لوازم الاسعاف الضرورية فقد كن يقمن بتنظيف جروحنا و تضميدنا عندما نتوقف عن السير طلبا للراحة. و قد ساعدنا هذا على الحفاظ على معنوياتنا العالية.

و في احدى الليالي و بينما كنا نسير بين جويتشن و خوي تشانغ وصلنا الى النهر. و من اجل تجنب مراقبة العدو اضطررنا لقطع النهر من مكان يصل الماء فيه الى محاذاة الصدر. و قد كان الظلام حالكا بحيث كان يتعذر علينا ان نرى وجوه بعضنا البعض بوضوح. و كوّنا سلسلة اذ امسك كل واحد بيد الآخر و اخذنا نخوض الماء خطوة خطوة. و في منتصف النهر زلقت قدم الممرضة التي كانت تحمل المعدات الطبية و سقطت في الماء. و قبل ان نستطيع الامساك بها جرفها التيار. و بعد ان قطعنا النهر وقفنا على الضفة نتطلع الى النهر اللعين و الالم يمزق قلوبنا بسهامه و قد استبد بنا الحزن و ذرفنا الدموع السخينة. و بعد ان وقفنا هناك في صمت عميق برهة من الزمن، واصلنا سيرنا و قد انحفرت في نفوسنا صورة لا تمحي لرفيقتنا في السلاح. و اخيرا وصلنا الى قمة جبل في منطقة الحدود الواقعة بين كيانغسي و فوكين. و عندما اطلت علينا كوتشنغ من بعيد طفحت قلوبنا بالفرح.

و في احد الايام نزلت من الجبل لاجمع بعض المعلومات. و قد علمت بان قوات العدو قد اضرمت النار في جميع الامكنة تقريبا التي تحيط بكوتشنغ، تماما كما فعلت في جويتش. و فيما كنت اجول في الجبال صادفت عددا من جنود الجيش الاحمر المشوهين. و كانوا قد اعفوا من الخدمة منذ امد طويل و اخذوا يقومون بحرب الانصار بشكل جماعات متفرقة. و كانت بينهم وحدة من وحدات الانصار تدعى ((فريق الزوج و زوجته)) و كانت مكونة من اشخاص متزوجين. و مثلنا – نحن ((وحدة الجنود المشوهين)). فقد شكلوا وحدة من وحدات الانصار. لقد احتل العدو قاعدتنا السوفياتية و لكن لهيب الثورة لم يخمد. و لمّا سمع المفوض خوانغ

هذه الامور، تجاهل جروحه المتقيحة و مشيته المقلقة و اشار الى الجبال المنتصبة امامنا و قال: ((هنا ساحة معركتنا، فلنواصل نضالنا الثوري و لنقاتل حتى يعود الرئيس ماو.))

((يجب ان نناضل حتى يعود الرئيس ماو)) – لقد اصبح هذا هو شعارنا. و واصلنا سيرنا نحو فوكين و نحن لا نفكر إلا بالحرب و الانتقام.

في مؤخرة العدو

بعد أن سرنا عشرة ايام وصلنا الى سيتو في محافظة تشانغ تنغ في مقاطعة فوكين. و هناك توقفنا في الاتصال بالحزب الذي وضع الترتيبات لكل واحد منا.

((اذا انطفأ النور في الشرق فانه يظهر في الغرب؛ و اذا انطفأ النور في الجنوب فانه يظهر في الشمال.)) لقد كان هذا قولا شائعا يردده رجال الجيش الأحمر. بعد سقوط جويتشن قاد الرئيس ماو تسي تونغ القوة الرئيسية في الجيش الأحمر و بدأ المسيرة الطويلة نحو الشمال. و تحت قيادة الحزب، فاننا نحن الذين تُركنا في المؤخرة واصلنا رفع مشعل الثورة، و طيلة السنين الثلاث التي تلت أنرنا طريق الشعب الذي كان يعاني الآلام في ظل الحكم الاسود حكم الرجعيين الكومنتانغ.

و في هذا الوقت انسحبت الحكومة السوفياتية لمقاطعة فوكين ايضا الى سيتو في تشانغ تنغ. ثم حاصر العدو سيتو. و من اجل تحطيم حصار العدو وجهت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تعليماتها الى تشانغ تنغ رئيس حكومة فوكين السوفياتية لتنظيم حرب الانصار في يونغ تنغ و تابو في مؤخرة العدو. و في احد الايام دعا ثمانين من مِلاك الحزب الى اجتماع نُظِمَت فيه هيئة لمِلاك الانصار و عين ليو يونغ شنغ قائدا لها و عُيِّنتُ مفوضا سياسيا فيها.

و تسلحنا باربعة رشاشات و اثنتى عشر بندقية و ببعض القنابل اليدوية مع كل منا و اصبحنا حرس الرئيس تشانغ و بدأنا سيرنا. و تماما كما كان الامر في منطقتَي كوتشنغ و جويتشن فان جميع الجبال التي مررنا بها لم يبق فيها اثر

للخضرة بعد ان اضرم العدو فيها النار. و في مدى اسبوع جلنا في عدة مناطق محروقة، و كنا نسير خفية و نحن على اعتقاد ان العدو لن يعود مرة اخرى. و اخيرا وصلنا الى تساي تشي في محافظة شانغ هانغ. و هناك رأينا جبل ين شيا الواقع في منطقتي و كان يشتعل و تتصاعد منه السنة اللهب و الدخان الكثيف الى عنان السماء. لقد كانت قوات جيانغ كاي تشك تدمر منطقتي امام عيني و كان قلبي يتلظى الما و حقدا. و في ذلك المساء اقمنا على قمة الجبل. و امرني الرئيس تشانغ ان اقوم بجولة استطلاعية. و ذهبت اولا الى بيت احد اقربائنا و اسمه تشانغ الذي كان يقطن في قرية هوبية. فذعر لمّا رآني و قال: ((أ ما زلت مهووسا بالحزب الشيوعي؟ ألا تخاف ان تجر الكارثة على عائلتك؟)) لقد كانت مهمتي عاجلة و لم يكن لدي وقت اضيعه في التحدث عن امور تافهة. و لمّا رأيت انه مضطرب و مريب و دعته على الفور و ذهبت الى بيت قريب آخر يقطن في قرية ما با لي. و كنت على وشك ان اقرع الباب عندما سمعت خفر الكومنتانغ يصيحون: ((قطاع الطرق. قطاع الطرق)). و اخذوا في الوقت نفسه يضربون الصناجات و اخذت المشاعل تومض من مختلف الجهات.

فركضت و اختبأت في قمة الجبل. و هناك رأيت ثلاث حصرا و قد نشرت عليها حبات من البطاطا المقطعة و يُظَن بانها نشرت هناك لتجف. لقد كانت في الحقيقة لقية و ابتهجت لذلك حتى نسيت كل شيء عن ارهاب العدو الذي يمكن ان يكون قد نصب كمائن في كل مكان تقريبا.

و اخذت اتمم كأنني اتحدث الى صاحب البطاطا: ((عفوا ايها القروي العزيز، في الحقيقة ليس لدي الوقت لاستسمحك في اخذ قطع البطاطا. و لكننا نحن الانصار قد سرنا يومين كاملين دون ان نذوق طعما لزاد. و لهذا ارجوك ان تبيعنا هذه البطاطا كلها لنقتات بها.)) و فيما كنت اتمتم وضعت ريالا فضيا على الارض. ثم فرشت غطاء الفراش الذي كنت احمله على ظهري و وضعت فيه قطع البطاطا كلها و

لممت اطرافه و جعلت منه صرة. ثم القيت حولي نظرة خاطفة و مضيت انهب الارض بقدمي.

و كان الرئيس تشانغ جالسا على صخرة. و بالطبع كان مسرورا جدا اذ رآني اعود. و فيما كان يقرش قطع البطاطا اخذ يصغي الى تقريري بانتباه. و عندما انتهيت، صمت لحظة ثم نهض. و قال: ((ايها الرفاق لقد خنا قضية وجودنا هنا.)) ثم اشار الى نهر يجري تحت الجبل و استطرد قائلا: ((علينا ان نقطع ذلك النهر الليلة و نخترق حصار العدو، اننا لا نستطيع البقاء هنا و ننتظر حتى يأتي العدو و يأسرنا.)) و قد كان الليل حالك الظلمة و لم استطع تبين وجهه جيدا. و لكن صوته كان يعبر عن الهدوء و التصميم.

و هكذا نزلنا من الجبل و اتجهنا الى النهر، و لم يكن لدينا شيء نسبر فيه غوره و خصوصا ان الليل كان حالك الظلمة. و قد ايقظت هذه المغامرة الليلية ذكرياتي السابقة. و تذكرت بأنني عندما كنت فتى في عصبة الشباب الشيوعي كنت مرارا اقطع هذا النهر سباحة لحضور الاجتماعات السرية في الجبال ليلا. و مرة اخرى، و انا احتضن ماء النهر الشديد البرودة، احسست بان قلبي يشتعل حماسا لا يقل في شدته عن حماس تلك الايام. و بعد ان عُمْت عشر دقائق توفقت في اكتشاف مكان كان الماء فيه ضحلا نسبيا و يمكن خوضه. و نزلنا جميعا في النهر و قد انغمرت اجسادنا حتى السرة بالماء القارس البرودة. و ما ان قطعنا النهر حتى اندفعنا الى جبل ين شيا و هو على بعد ستة اميال عن مركز خفارة العدو. لقد كنا الآن على بعد ثلاثة او اربعة اميال عن بيتي. و لكن في مثل هذا الوقت البالغ الخطورة كان من الصعب عليّ ان افكر كثيرا بعائلتي.

لقد كان هناك في السابق كثير من معامل الورق على جبل ين شيا. امّا الآن فكلها معطلة. و دخلنا احد المعامل المهمة طلبا للراحة. و هناك اوقدنا نارا و جففنا ثيابنا المبللة.

و بعد ظهر اليوم التالي ذهبت لارى احد انسبائي و كان يقطن في مكان قريب. و قد اندهش جدا عندما رآني.

و قال: ((انك بالتأكيد شجاع يا اخي. و لكنني لو كنت مكانك لسلمت نفسي للسلطات.))

لقد كنت اعلم بانه عندما تكون الثورة في جزر فان بعضا من الجماهير تميل الى الذبذبة. و قد فكرت بانه من الافضل ان اتحدث بلهجة الاهتمام الذاتي لاؤثر فيه.

فقلت له بتأكيد: ((أسَلّم نفسي؟ هذا مستحيل. دعني اخبرك يا اخي فانا الآن ضابط كبير في الجيش الأحمر.))

فسار بي الى خندق و سألني بصوت خافت: ((ما هي رتبتك يا اخي؟))

فقلت: ((لا تقلقن على رتبتي. ففي الليلة الماضية جئت الى هذا الجبل بجيش من الرجال تحت امرتي. ان جيانغ كاي تشك يحلم بانه سيسحق الجيش الأحمر يوما ما و لكن ذلك اليوم لن يأتي ابدا. ان الجيش الأحمر لم يُسحَق ابدا: انه فقط قد تحرك من مكان الى آخر. و ان الاماكن التي اخذها جيانغ كاي تشك منا اليوم سنستردها غدا.))

فحذرني قائلا: ((و على كل فمن الافضل ان تأخذ حذرك و تبتعد. فأمس اقترفت قوات الكومنتانغ اللعينة جرائم القتل و هي ستحرق بالتأكيد كل شيء في الجبال لتمسك برجال الجيش الأحمر.)) ثم اخذ ينظر اليّ من الرأس الى القدم كأنه يقيسني، و طلب اليّ ان انتظر و خرج راكضا و عاد بعد هنيهة و معه صرة كبيرة فيها بوشل من الارز و نحو خمسة عشر كيلوجراما من البطاطا و قطعة صغيرة من اللحم و كيلو من الملح. و سلمني الصرة و هو يقول: ((من حسن الحظ انك جئت اليوم لأننا سنرحل غدا، و شقيقتك قد رحلت من قبل.))

فقلت له و قد شددت على يده: ((ارجو ان تخبر والدي الا ينتظرني في البيت و قل له بأنني ساتبع الجيش الأحمر حتى نهاية حياتي.))

و بالطبع، فقد سر الرفاق كثيرا لدى رؤيتهم الصرة. و قال احدهم: ((حيثما ذهبنا نلقى مساعدة الجماهير. و يبدو بانه ما من صعوبة لا يمكن التغلب عليها.))

و بعد ان استرحنا واصلنا السير. و اثناء سيرنا الذي استمر نحو شهر و صادفنا خلاله مصاعب جمة، قابلنا في محافظات شانغ هانغ و تاي ينغ جماعات من الانصار يربو عددهم على مئتين. و قد التحقوا جميعهم بنا اثناء سيرنا. و اخيرا وصلنا الى تاشوي يان حيث كان زمام الامور ما يزال بيد حكومة سوفياتية محلية.

و في طريقنا مررنا على كثير من الجبال لم نر فيها اثرا للخضرة بعد ان اضرم العدو فيها النيران. و قد اصبحت رؤوسنا و ذقوننا كثة الشعر و غدت و جوهنا سوداء كظهر المقلى. و عندما رحب بنا الرفاق في تاشوي يان اخذنا نتطلع على بعضنا بعضا و لم نستطع ان نتمالك انفسنا من الضحك على انفسنا و لكننا كنا جد سعيدين و بروح معنوية عالية.

و منذ ذلك الحين اقيم في جبال تلك المنطقة مجلس عسكري و سياسي لجنوبي فوكين و اخذ يقود الشعب في مؤخرة العدو للقيام بنضال لا هوادة فيه ضد الرجعيين الكومنتانغ.

الاتصال بالجماهير

في هذا الوقت كنت رئيس منظمة قطاع المنطقة الاولى الفرعية في منطقة فوكين العسكرية. و كنت ايضا مسئولا عن العمل السياسي في يونغ بو المعروفة ''بالمنطقة الوسطى'' و كنت استلم بالوكالة مهام نائب سكرتير لجنة الحزب في المنطقة الوسطى و نائب المفوض السياسي لكتيبة الانصار في المنطقة الوسطى. و في مطلع عام ١٩٣٥ اخترت ثمانية رجال من كتيبة الانصار نظمت منهم فريقا للعمل. و انطلقنا من ضواحي يونغ تنغ متجهين الى تا بو في كوانجتونغ لاقامة منطقة جديدة لنشاطات الانصار. و وصلنا الى منطقة جبلية قرب تا بو. و في بداية الامر اختفينا في الشعاب و الاحراش. و كان اكثر ما يهمنا اذ ذاك هو الاتصال بالجماهير

و مع ان هناك قرى تقع على سفوح الجبال و لكننا لم نجرؤ على الذهاب هناك دون ان نقوم باتصال اولي مع السكان. و لم يطل بنا الامر حتى وجدنا ان في الجبل كثيرا من حفر الفحم. و استرقنا النظر خلال الاشجار فوجدنا ان هناك كثيرا من حارقي الفحم، رجالا و نساء، يغدون الى الحفر صباحا و يعودون مساء، و من الواضح ان هؤلاء الناس يقطنون في القرى المجاورة.

و قررنا ان نجعل حارقي الفحم اولاء هدف اتصالنا. و في مساء احد الايام، و اثناء عودتهم كل اثنين او ثلاثة معا، قفزنا الى الطريق و اعترضنا سبيلهم.

و كان احد رفاقنا يتحدث بلهجة كانتون فصاح بهم: ((لا تخافوا منا، نحن فقراء و طيبون. نحن رجال الجيش الأحمر و لدينا رسالة لكم.))

و قبل ان نتكلم لم يستطع العمال ان يعرفوا من نحن و من اين قدمنا. و تطلعوا على الاشياء التي تبدو غريبة على ظهورنا و حلول خصورنا، و من الواضح انهم شعروا بالخوف و مالوا للهرب. و لكن عندما سمعوا بأن رجال جيش الفقراء قد اقبلوا، و رأوا بأن ليس لدينا نوايا شريرة، اطمأنت نفوسهم و هدأ روعهم. و نحن الذين احسسنا بشيء من التوتر سررنا لتغير موقفهم.

و بعد ان تركناهم يتهامسون قليلا، وقف احد رفاقنا على صخرة و بدأ يتكلم: ((ايها الاخوة من طبقة الفقراء. اصغوا لي لاحدثكم عن الحقيقة. ان جيانغ كاي تشك لم يسحق الجيش الأحمر كما يدعي. ان القوة الرئيسية في الجيش الأحمر لم تُمَس و ذهبت الى مكان آخر لاقامة مناطق جديدة. و نحن قد تَخَلَّفنا للقيام باعمال الانصار. اننا نبغي تصفية الحساب مع جيانغ كاي تشك...))

و شرح للعمال المبادىء الاساسية للثورة. و اخبرهم بان على الفقراء ان يقدموا تأييدا من اعماق القلوب للجيش الذي يقاتل من اجلهم و انه يجب عليهم ان يلتحقوا بالثورة ان امكن. و فيما كان يلقي خطابه كان الرفاق الآخرون يختلطون بالعمال و

يراقبون رد الفعل لديهم. و قد اجروا معهم ايضا احاديث شخصية للحصول على معلومات تفصيلية.

و بعد انتهاء الخطاب سَألنا العمال مساعدتنا. و قدمنا لهم ثلاثة اقتراحات: (١) ألا يخبروا احدا بوجودنا في المنطقة؛ (٢) ان يحاولوا دائما حماية جيش الفقراء، و من اجل تحقيق هذا الهدف فعليهم ألا يحفظوا هم انفسهم السر فحسب بل ان يجعلوا الآخرين يحفظونه ايضا؛ (٣) اذا علموا بتسرب السر فيجب اخبارنا بذلك في الحال، و عليهم ان يحولوا دون مجيء أي احد معاد لنا الى الجبال.

و وافق العمال على اقتراحاتنا و انصرفوا. هذا، و قد كلفت احد العمال بمهمة شراء بعض السجاير و حاجات اخرى لنا، و اخبرته بأن يحضرها و يسلمها لنا سرا في اليوم التالي عندما يجيء للعمل. و علمت بأن الرجل موضع ثقة لأني اجريت حديثا معه و علمت بأنه يعاني افظع اشكال العوز و هو معاد اشد العداء لحكم الكومنتانغ الرجعي.

و في صباح اليوم التالي انتقلنا الى حرش آخر. و لكننا بقينا نراقب الطريق الذي يسير فيه العمال في غدوهم و رواحهم. و بعد قليل رأيناهم يُقبلون. و رأيت الرجل الذي كلفته بمهمة شراء الحاجات يتطلع من حوله بحذر، و من الواضح انه يفتش عن شخص ما. و سررنا بأنه لم ينس ما كلفناه بالقيام به. و اسرع اليه احدنا لإستلام الحاجات بيد الشكر الجزيل.

و هكذا بدأت صداقتنا مع هذا العامل الشاب و إسمه شه كون. و علمنا بان عمه جندي في الجيش الأحمر و قد سار في المسيرة الطويلة التي قادها الرئيس ماو. و كان سيتبع مثل عمه لو لا ان امه عجوز و ان عليه ان يُعنى بها. فقد قال: ((لم اكن اعلم ان الحياة في ظل حكم الكومنتانغ قاسية، و انني و والدتي سنحيا في مسغبة.))

و الآن هو على استعداد للإلتحاق بنا و العمل في صفوف الانصار. و اخبرناه بأن الثورة يجب ان تبدأ من دائرة اصدقائه الفقراء. و اعلمناه بأن ينظم اولا جمعية فلاحية سرية و من ثم، ينظم تدريجيا جماعات صغيرة من الانصار.

و لم نعد الآن محصورين في الجبال. لقد اخذنا نقوم بنشاطاتنا في قرية بعد اخرى.

الإنتفاضة

و من الطبيعي ان علاقاتنا مع حارقي الفحم قد اصبحت اشد وثوقا. و لكن السر لا يمكن الحفاظ عليه امدا طويلا و اخيرا تسربت المعلومات عن طريق زوجة أخ احد رؤساء الباو[٨] الكومنتانغ.

و حالما علمنا بتسرب النبأ أسرعنا بعقد اجتماع في وهدة قرب احدى القرى. و بحثنا المسألة – و ما هي الخطوات التي يجب اتخاذها. و فيما كانت المناقشة بيننا في اوجها اسرع الينا احد أعواننا من القرويين و قال و هو يلهث: ((ان رئيس الباو اللعين هو في طريقه الى مجلس المركز للإخبار عنكم)). ان هذا قد عقد الامور – و بعثنا في الحال بشخص لتدبر أمر رئيس الباو.

و مع مرور الزمن اكتسب الانصار القوة و المكانة. و قد حفَّزَ و جودهم فرق الانصار الصغيرة و جمعيات الفلاحين السرية فغدت نشيطة جدا.

و كان الفصل ربيعا و كانت القرى تعاني نقصا في الحبوب و ذهب الناس الى سوق في سان هو با لشراء الحبوب و لكنهم لم يجدوا هناك أية حبوب. و في الوقت نفسه كان لأحد الإقطاعيين مذخر كبير للحنطة و لكنه رفض أن يبيع منه. و الجوع هو أم الثورة. و هكذا قررنا ان نستبق الامر. و نشطنا عن طريق فرق الانصار الصغيرة و جمعيات الفلاحين السرية و حرضنا الجماهير على النضال ضد الاقطاعي المحتكر. و أخذت موجة الغضب تتصاعد بين القرويين الجياع. و في

---

[٨]- باو الكومنتانغ مكون من مائة عائلة و كان لكل باو رئيس.

مساء احد الايام و عندما حان موعد العمل جندنا من عدة قرى قوة عددها ثلاثمائة رجل. و كالإنتفاضة التي نظمناها في منطقتنا، فقد كان في مقدمتهم اعضاء فرق الانصار الصغيرة و جمعيات الفلاحين السرية و كانوا يحملون اسلحة مختلفة الاشكال و الانواع – سيوف و حراب و عصي و هراوات الخ. و خوفا من التعرف على شخصياتهم اخفى الرجال وجوههم. فبعضهم لطّخَ وجهه بصبغ اسود و البعض الآخر وضع اقنعة لا يرى منها إلا عينان غاضبتان. و سار الجياع الى بيت الإقطاعي و هم واثقون من النجاح و سرعان ما احتلوه و فتح المخزن و قام قادة جمعيات الفلاحين بتوزيع الحبوب على المشتركين بالإنتفاضة.

لقد كان منزل الإقطاعي بغرفة المكينة المستعملة لخزن الحبوب قلعة حقيقية و كان مكانا لإرهاب الفقراء. و لكنه الآن اصبح في يد الجماهير و ابوابه قد فتحت على مصاريعها. ان هذه الحقيقة بحد ذاتها كانت حافزا لجماهير الشعب التي لم تفتح ابواب منزل الإقطاعي فحسب و لكن ابواب قلبها هي.

و بالطبع فقد ذعر العدو من الإنتفاضة الشعبية التي كانت في الحقيقة مأثرة من مآثر البطولة. و في اليوم التالي ارسل الى القرية فصيل من قوات الكومنتانغ في الفرقة ١٥٨ التي كانت اذ ذاك مرابطة في محافظة تابو. و قد اخذت قوات الكومنتانغ تعتقل الفلاحين بلا تمييز و قتلت عدة اشخاص. و لكن القرويين ابعد من ان يخافوا و يخضعوا فأصبحوا أشد جرأة و أنضم نحو ثمانين من الشباب الى قوات الانصار.

"تبرع"

و كان هناك اقطاعي كبير آخر يقطن في سان هو با قرب مركز محافظة تابو و اسمه تشانغ. و لم يكن اقطاعيا يملك الكثير من المال و الحبوب فحسب بل كان ايضا قصابا للخنازير. و كان جميع الناس القاطنين على بعد عشرة اميال من سان هو با و الذين كانوا يُعنون بتربية الخنازير مَدينين لهذا الإقطاعي و كانوا يستدينون منه الدراهم بفوائد فاحشة لشراء خنازير صغيرة و اذا ما كبرت هذه الخنازير

يبيعونها للإقطاعي تشانغ بأثمان بخسة. و اذا ما هلكت الخنازير بسبب الامراض التي تُصِيبها فعلى الفلاح ان يعيد الدراهم التي استدانها مع فوائدها. و اذا ما عجز عن دفع الدين تعرض لإهانات و عقوبات لا تحتمل. و بإختصار كانت مهمة تشانغ جزارا للحيوانات أمّا في طريقة سلبه للناس فكان جزارا بشريا.

و منذ زمن جعلنا تشانغ هدفا لنضالنا و لكننا كنا نؤمل بأن يعود عن غيه. و عندما رأينا في النهاية بأنه من العبث إضاعة مزيد من الوقت معه، كما كانت عادتنا في معالجة امر الإقطاعيين و الطغاة المحليين بعثنا برسالة له اعلمناه فيها بصراحة بأنه يقطن قريبا جدا من الجيش الأحمر، و حذرناه من مغبة استغلال الفلاحين بهذه الصورة الفاحشة و اقترحنا عليه بأن يتبرع لنا بقسم من ماله الحرام و بذلك نستطيع ان نشتري بنادق لنقاتل بها الكومنتانغ الرجعيين الذين يضطهدون الشعب بوحشية.

و سرعان ما جاء الرد من تشانغ، و لمّا فتحنا خطابه قلنا لبعضنا البعض و نحن نتضاحك: ((ها هو قلب حنون بين اعدائنا الطبقيين.)) و لكن تشانغ برهن على انه اقسى الانواع، فقد كتب في رسالته: ((اجل لدي دراهم و ارغب في مساعدتكم لشراء بعض الرشاشات. و لكن عليكم ان تأتوا شخصيا الى بيتي لتسلم التبرع.))

و فهمنا ماذا يعني فقد كانت هناك حامية من قوات الكومنتانغ ترابط في سان هو با. و من الواضح انه كان يعتقد بانه و املاكه في أمان تحت حماية قوات الكومنتانغ المسلحة و اننا غير قادرين على الحاق ادنى ضرر به. غضبنا اشد الغضب.

لقد كان اليوم الخامس من الشهر الخامس – انه يوم مهرجان مركب التنين. و قد علمنا بان قوات الكومنتانغ في سان هو با قد نقلت الى مركز المحافظة و ان الحامية الجديدة لم تصل بعد. و سمعنا ايضا بأن تشانغ سيذبح كثيرا من الخنازير و انه استأجر اناسا لحمل اللحم و بيعه في القرى. و قلت لنفسي بانه من المستحيل جدا ان يأتي تشانغ لمراقبة البيع. و هكذا قدت نحو ثلاثين رجلا و وزعتهم على الممرات الجبلية التي تصل سان هو با بالقرى المجاورة.

و انتظرنا في الممرات من الفجر حتى الساعة التاسعة صباحا. و مر ستة رجال من حاملي اللحوم و لكننا لم نر تشانغ. و كان الملل قد اخذ يتسرب الى نفوسنا عندما سمعنا عن بعد صوت البوق، الذي كان يستخدمه بائعو اللحم في القرى. ثم رأينا رجلين يحملان خنزيرين مذبوحين و قد ناء كاهلاهما بثقل الحمل. و كان تشانغ يمشي خلفهما بزهو، و قد حمل في يمناه قبانا و في يسراه البوق الذي ينفخ فيه.

و عندما مرَّ حاملا اللحم قفزنا من مكمننا و سقطنا على تشانغ بهجوم مفاجىء لقد كان قتالا بين عشرة و واحد و سرعان ما القى به على الارض. و حاولنا ان نوثق يديه و قدميه بحبل. و لكنه كجزار فقد كان قويا و ليس بالامكان تدبر امره بسهولة. لقد كان قويا و رشيقا. فثنى جسده و على حين غرة امسك بخصية احد رجالنا و شد عليها بقوة، فأُصيب باغماء شديد، و نحن الذين اصابتنا حيرة مؤقتة لم نعرف ماذا نفعل. و في تلك اللحظة الحرجة تناولت حجرا كبيرا من الطريق و جمعت كل قواي و القيت به على كتف تشانغ، فاطلق صرخة حادة و افلت يديه. ثم اوثقناه و حملناه معلقا على عمود كالخنزير المحمول الى المسلخ. و قطعنا عشرة اميال دفعة واحدة و اخذناه الى مقر قيادتنا.

و لم نعامل تشانغ معاملة سيئة جدا. و غير تشانغ فكره و لم يعد يصر على دعوتنا لزيارته شخصيا في بيته، و طلب ورقة و كتب باختياره رسالة الى جماعته يطلب اليهم فيها ان يبعثوا الينا في الحال بالدراهم التي هيأها لاعطائها للرجعيين الكومنتانغ كهدية. و الى جانب التبرع ''النقدي'' طلبنا اليه ان يخيط لنا ثلاثين بدلة كالتي يرتديها جنود الكومنتانغ. و بالطبع كان لديه الادراك الكافي للاستجابة الى مطلبنا. و فيما بعد عندما اخذنا نتخفى بهذه البدلات قمنا بكثير من الامور الهامة التي سنتحدث عنها في الفصول التالية.

في عرين النمر

لقد اخذنا ننشط اكثر فاكثر في تابو. و احيانا كنا ندخل عرين لنمسك بالاشبال.

و في مكتب ادارة المركز الكائن في احدى القرى الواقعة على بعد ثلاثة اميال عن تشه تشو بنغ كان يرابط نحو ثلاثين جنديا من جنود الكومنتانغ و كانوا يُعرَفون ''بفصيل الأمن'' في المركز. و كانوا يذهبون عادة الى مختلف الاماكن اثناء النهار لإرغام الشعب على دفع ضرائب الحبوب و الإيجارات. و كانوا يعتدون على النساء و يقومون بكل أنواع الأعمال الشريرة و لا يختلفون بذلك عن قطاع الطرق. و لكن بقدر ما كانوا شرسين في معاملة الشعب فقد كانوا جبناء في معظم المجالات الاخرى. فاذا ما حل الظلام كانوا يختبئون في بناية محصنة قرب القرية لا يجرؤون على الخروج حتى صباح اليوم التالي. و قد كان الشعب يحقد عليهم اشد الحقد و لكنه كان لا يقوى على مقاومتهم.

و في عصر احد الايام قدت عشرين من رجالنا بكامل اسلحتهم و قد ارتدوا بدلات الكومنتانغ التي صنعها لنا تشانغ سرا، و سرنا نحو القرية التي يرابط فيها ''فصيل الأمن''. و في الوقت نفسه نصبنا رشاشا على قمة جبل قريب من ''حصن'' العدو و في مواجهته. و قد فعلنا ذلك لمنع قوات العدو من المجيء لمساعدة ''فصيل الأمن'' عندما تسمع صوت الرصاص اذا ما حدثت معركة. و بالطبع فان نار الرشاش الكثيف يستطيع ان ينجح في ضرب الحصار على حصن العدو.

و سمعنا رجال ''فصيل الأمن'' الكومنتانغ ينشدون نشيد الكومنتانغ في مكتب ادارة المركز...''ان مبادىء الشعب الثلاثة هي عقيدة حزبنا''. و من هذا استنتجنا بانهم على وشك تناول الطعام. و عندما تصورنا كم ستكون دهشتهم عندما يروننا احسسنا بالفرح.

و بدون أي اعلان دخلنا ساحة المكتب و كان حدسنا صحيحا لأن رجال ''فصيل الأمن'' كانوا قد اصطفوا لتناول طعام العشاء.

فإستعلم منا قائد الفصيل قائلا: ((من أين أتيتم؟)) فاجبته: ((لقد أُرسِلنا من قبل رئيس المحافظة لقمع قطاع الطرق)). و في الوقت نفسه التفت الى رجالي و غمزتهم فصوبوا في الحال مسدساتهم الى الأعداء و صاحوا: ((ارفعوا أيديكم)).

و اسرنا اكثر من عشرين جنديا من جنود الأعداء و لم نلق إلا مقاومة بسيطة من جانبهم كما غنمنا كمية كبيرة من الذخائر. و انتظرنا حتى خيم الليل و اخذنا جميع الاسرى و الغنائم الى مقر قيادتنا في الجبال.

تحريم التفتيش

و كلما ازددنا جرأة في نشاطاتنا كان الرجعيون الكومنتانغ يزدادون هلعا. و من اجل تعزيز مكانتهم المتدهورة فقد سنوا نظاما يدعى بـ ((الحراسة المشتركة للباو)). و بعثوا بعدد من صنائعهم و كذلك برجالهم و جعلوهم خفراء في المراكز الرئيسية. و كانت مهمتهم تفتيش جميع المارة لمعرفة ما اذا كانوا من الحمر أم لا. و كانوا يعملون على نوبات و هكذا كانت مراكز الخفارة تعمل ليل نهار.

و لكن مهما كانت المكائد التي استخدموها فلم يستطيعوا إيقاف نشاطاتنا التي كانت تنفذ بأجرأ الاساليب لأننا في تابو كيفما انفسنا بسرعة مع الوضع و تعلمنا استخدام مختلف انواع التمويه. و كنا عادة نتزيا بزي التجار. و كنّا نرتدي لباسا غربيا او قنبازا صينيا و نضع النظارات على عيوننا و كان هذا الزي الأخير زيا كانتونيا. و ''كتجار'' لم نكن نربح اموالا من الشعب ابدا بل كنا نوفق كثيرا في فرض المكوس على ارواح الأعداء!

و قد تناهى الينا بان احد اعضاء خفارات العدو ينهب الناس اثناء قيامه بما يسمى ''بالتفتيش'' و قررنا ان نلقنه درسا.

و في صباح يوم غائم ممطر ارتديت و اثنى عشر من رجالنا البسة التجار. و انتظرنا حتى حان الوقت الذي كان المسافرون يصلون فيه عادة من مركز محافظة تابو الى قرية ماوبنغ. ثم نزلنا من الجبل في طريق ملتوية و وصلنا الى الطريق العام متظاهرين باننا تجار من المدينة. و كان كل واحد منا يحمل سلة من القش و فيها بعض الثياب و قد اخفى في ثناياها بندقية موزر محشوة بالرصاص. و فيما كنا

نسير متظاهرين بعدم الاكتراث اوقفنا اربعة من صنائع العدو للقيام بالتفتيش. ((من أين انتم قادمون؟)) القوا علينا هذا السؤال مصووبين الينا نظرات قاسية.

فتقدمت و قلت ببرود: ((لقد جئنا من المدينة و لدينا جوازات مرور.))

فهمز احدهم و تقدم لتفتيش سلتي و كان الثلاثة الآخرون من حوله. و اخراج رجالنا في الحال بنادقهم الموزر و قتلوا الثلاثة ببضع طلقات. اما الرجل الذي تقدم لتفتيش سلتي فقد جمد في مكانه من الدهشة فسحبت بندقيتي و سرعان ما اخترقت صدره رصاصة.

ثم كتبنا تحذيرا و وضعناه في جيب احدهم. و يقول التحذير: ((من الآن فصاعدا يجب إلا يقوم احد بتفتيش الانصار الحمر. و اذا ما تجاهل احد هذا التحذير فان مصيره سيكون كمصير هؤلاء الرجال الاربعة.))

و بعد هذا الحادث اصبح من النادر ''لفصيل الأمن'' ان يرسل خفرا. و اذا ما قام بذلك في بعض المناسبات لم يكن رجال الخفر ليجرؤا على نهب الناس. و بالطبع فان كثيرا من رجال الخفر كانوا يقومون بعملهم تحت الضغط. و بالنسبة لهؤلاء الرجال، فمادامو لا ينهبون و لا يضايقون الناس فكنا نتركهم و شأنهم و لا نسبب لهم ازعاجا. و فيما بعد و عندما كان رجال خفر العدو يرون اشخاصا يبدون مثل ''بعض الناس'' كانوا يعلمون ما يحدث لهم اذا تصرفوا تصرفا غير حكيم و كانوا ينتبهون لتجنب النزاع معهم.

الحياة في الجبال

و الآن سأقدم صورة خاطفة عن حياتنا في الجبال.

منذ اللحظة التي بدأنا فيها بنشاطات الانصار في الجبال تحت قيادة الرئيس تشانغ تنغ تشنغ في المقاطعة، تعلمنا كيف نناضل ضد الطبيعة و الوحوش المفترسة كما نناضل ضد الرجعيين الكومنتانغ. و لقد كانت حياتنا في الجبال حياة دائمة الحركة.

فكنا يوما نعيش في هذا الجبل و في اليوم التالي ننتقل الى جبل آخر. و لم نكن نبالي لا بحر و لا بالقر و لا بالعواصف و لا بأي نوع من انواع الطقس القاسي.

و مرة كنا نفتش عن مكان نأوي اليه في احدى القمم. فرأى ليو يانغ شنغ قائد فصيلنا كومة كبيرة من اوراق الشجر الجافة. فرأى ان يأخذ قسما منها ليجعل منها فِراشا. و لكن ما ان يبدأ يجمع الاوراق حتى برز من الكومة رأس حنش حجمه كحجم جوزة الهند، و كان لسانه يتحرك كلسان اللهب. فما كان منه إلا ان اسرع في تسلق شجرة كبيرة طلبا للنجاة.

و في ليلة من الليالي و فيما كنا نناقش احدى المسائل في كهفنا اندفعت الى الكهف احدى رفيقاتنا بسرعة شديدة لدرجة ان تيار الهواء اطفأ القنديل الزيتي الموضوع على المصطبة. و لم نعرف السبب و اسرعنا الى بنادقنا. و سألناها عن الامر و لكنها كانت تلهث و لم تستطع الكلام. و عرفنا سبب خوفها عندما سمعنا نمرا يزأر في الخلاء.

و اذكر انه مرت عليَّ تجربة مماثلة عندما جئت الى جبال تابو لأول مرة. و كان الرئيس تشانغ قد اعلمني بأن أحضُر اجتماعا هاما في مقر قيادته و اخبرني بألا اصطحب أي حارس. و توجهت في المساء و وصلت الى احدى الوهاد في منتصف الليل. و احسست شيء من التعب فتوقفت هنيهة لأُدَخِّن لفافة. و ما كدت اشعل عود الثقاب حتى رأيت شيئا اسود يندفع مسرعا امامي مخلفا وراءه تيارا باردا وقف له شعر رأسي. فقفزت و سرت مسرعا و لم اتوقف حتى وجدت نفسي في قرية صغيرة ليس فيها إلا بضع مساكن. و قرعت احد الابواب، و بعد هنيهة خرج الي رجل. و بعد أن هدّأت من روعي سألته ان كان يستطيع اعلامي عمّا هو الشيء الاسود. فقال بان الخنازير البرية كثيرا ما تهيم في الجبال و هو على يقين بان الشيء الاسود هو خنزير بري.

و مع مرور الزمن اعتدنا على رؤية الوحوش البرية في الجبال. و لكنها كانت تبقى عادة بعيدة عنا. لأنه اذا حدث ان أُصِبنا بالجوع و لم نجد ما نقتات به كنا لا نجد إلا لحمها.

و كان علينا نحن الانصار الى جانب قتالنا ضد العدو، ان نكرس جزءا من وقتنا لتدبر امر معيشتنا.

فمسألة النوم مثلا، في البداية كنا ننام في أي مكان عندما نحس بحاجتنا للنوم. و كنا نفترش الغبراء و نلتحف السماء. و كان من النادر ان نزعج انفسنا في اختيار مكان للنوم. و فيما بعد طرأ تحسن على ذلك. فأخذنا ننام حيث توجد الاشجار فقط. و في مثل هذا المكان كنا نجعل من الشرشف ارجوحة بربط اطرافه بغصون الاشجار و ننشر فوقها قطعة كبيرة من الورق المدهون بالزيت و ذلك ليكون سقفا يقينا من المطر. و كنا نجعل من اوراق الشجر و الاعشاب فراشا، و حول مكان الفراش كنا نحفر حفرة صغيرة تتفرع منها ميازيب و ذلك ليجري فيها ماء المطر دون ان يصيب الفراش. و في مثل ''غرفة النوم'' هذه التي يحتاج بناؤها الى الخيال اكثر من حاجاته الى المهارة، كنا غالبا ما نجلس و نسلي بعضنا بعضا برواية القصص، و ننام عندما نحس بالتعب، و نحلم بالمستقبل المشرق.

و قد حققنا قفزة كبيرة في تحسين ظروفنا المعيشية عندما حصلنا على الفؤوس و المناشير من الاقطاعيين. فكنا نقطع الاشجار و نقيم بيوتا بسيطة فيها مقاعد و مناضد بسيطة. و مع تحسن ظروفنا المعيشية اصبح لدينا مزيد من الوقت للدراسة. و كنا نذهب احيانا الى مركز المحافظة و نقتلع بعض الصحف الملصقة على جدران الشوارع و نعود بها. و اذا ما جلسنا في غرفتنا نأخذ في تحليل محتوى صحف العدو – و التي كانت مادة للدعاية – على ضوء معرفتنا السياسية، و نضع التخمينات عن وضع الجيش الأحمر الذي يقوده الرئيس ماو تسي تونغ.

ان المساكن الصغيرة كانت بيوتنا، و الحياة البيتية تشمل على العمل و الراحة و الترفيه. و عملنا المنزلي يشمل على سحن الأرز، الذي نحصل عليه من

الإقطاعيين، بمدق خشبي في جرن مصنوع من البامبو. و كنا نفتقر احيانا للحبوب، و عندها كنا نعتمد على المنتجات البرية في طعامنا. من هذه: الثمار و التوت البري و الاعشاب و نوع من الحيوانات الصغيرة كالضفادع التي تكثر في الأخاديد. و كنا نصنع احذيتنا المظفورة من نوع من العشب. و لم يكن قص شعرنا منتظما و كان كل واحد منا حلاقا للآخر. و للترفيه كنا نلعب الشطرنج و نصنع بيادقه من الخشب و نجعل من الارض رقعة نرسم عليها المربعات. و كان الغناء هواية كل منا و كنا ننشد اناشيد من نظمنا. و لسوء الحظ فقد نسيتها كلها ما عدا اثنين او ثلاثة. و من احبها الينا هذا النشيد:

يا رفيقي العزيز، يا اخي، ارجوك الا تقلق

اصبر و عش في الجبال

ان النصر في الثورة سيُحرَز بالتأكيد

ما دمنا نواصل عملنا و نضالنا

يا رفيقي العزيز، يا اخي، ارجوك الا تقلق.

اصبر، و ارفع رأسك امام الشدائد

ان النصر في الثورة سيحرز بالتأكيد

ما دمنا نواصل نضالنا بحماس.

و كنا شديدي الحذر و نستخدم كل الوسائل لضمان سلامتنا. و قد وضعنا كل انواع الحواجز حول "بيت الانصار". و في سيرنا كنا نتجنب الدوس على العشب لئلا تترك اثرا يفيد منه العدو في ملاحقتنا. و لتدبر امر كلاب بوليس العدو كنا نقضي حاجاتنا في الاخاديد التي تغسلها السيول المنحدرة من الجبال و احيانا كنا ندفن البراز.

و في احدى الليالي، و بعد ان اقمنا منازلنا "بيت الانصار" بقليل جاءنا الرفيق تشن تان تشيو عضو لجنة الحزب المركزية من مكان الرئيس تشانغ في المقاطعة. و كان ذاهبا الى هونغ كونغ بحرا و ارادنا ان نقوم بحراسته في سفره خلال تابو و

قد بقي في ''بيتنا'' ليلة واحدة. و رويت له تاريخ و حدتنا: كيف تطورت من ثمانية اشخاص الى نحو مائة، و كم من الرجعيين قتلنا؛ و كم هي المبالغ الثورية التي حصلنا عليها من الطغاة المحليين عن طريق ''التبرع''؛ و كيف دبرنا انفسنا في اعماق الجبال و الاحراش. و قد اهتم لذلك عميق الاهتمام و ابتهج لدى سماعه حديثنا.

و في اليوم التالي دعانا الى اجتماع و اشاد بالعمل الذي انجزناه. و قد اثنى علينا لكوننا قادرين في نفس الوقت على القيام بنشاطات الانصار، و القيام بالعمل بين الجماهير و حل مشاكل معيشتنا في غمرة الصعوبات الجسيمة. و قد اقترح علينا تلخيص تجاربنا التي يمكن تعميمها على مناطق الانصار الاخرى كمثل يُحتَذى. و بعد الاجتماع غادَرنا و قد بعثنا معه حرسا مسلحا.

و عليَّ ان اقول بان الكلمة التي القاها الرفيق تشن كانت حافزا عظيما لكل واحد منا، و قد الهبت حماسنا اكثر فاكثر لمواصلة النضال.

توجيهات من اللجنة المركزية

في هذا الوقت حققت نشاطات الانصار في تابو نجاحات عظيمة، و كانت الروح المعنوية لدى رجالنا اعلى من قبل. و لكن و انا في غمرة التفاؤل استدعاني الرئيس تشانغ. و قد كرهت ان انفصل عن رفاقي. و في الحقيقة كنت انتزع نفسي من بينهم.

و عندما رآني الرئيس تشانغ ادرك احاسيسي من ملامحي. و كان جالسا على فراشه و الوقت مساء. و بدأ حديثه معي: ((ألا تحس بأنك ستفارق رفاقك، آه؟))

((اجل، لا.)) قلت ذلك بصوت منخفض محاولا ان اخفي مشاعري.

ثم قال و كأنه يكافئني: ((حسنا دعني اقول لك خبرا طيبا. انني اعلم بأنك تقوم بعملك على اروع صورة و انك لا ترغب في ان تتركه. و لكن هنا مهمة اخطر بكثير من عملك في تابو.))

((ما هي المهمة ايها الرئيس؟)) قلت ذلك على الفور مستعلما عندما سمعت بانني ساقوم بمهمة اكثر خطورة. فأجاب: ((لقد تسلمنا توجيها من لجنة الحزب المركزية.))

((ماذا؟)) قلت مستعلما و كنت بالكاد اصدق اذني.

((توجيها من اللجنة المركزية)) و قد كرر ذلك مرتين و ثلاثة كلمة كلمة، بصوت مع انه واضح، إلا انه بدا لي كأنه يرتعش من الانفعال المكبوت. و احسست كأنني اسمع قلبه و قلبي يخفقان بشدة.

فوقفت منتصبا و اصغيت بانتباه. و اعلمني الرئيس تشانغ بالتفصيل عن بيان اقامة جبهة وطنية موحدة لمقاومة العدوان الياباني الذي اصدرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاول من آب (اغسطس) عام ١٩٣٥. و قد امرني ان اتحرك في اليوم التالي و اتسلق الجبال و انقل التوجيه الى المِلاك و الانصار في مختلف الاماكن و اخبرهم بان يشنوا في الحال حملة دعاية بين الجماهير.

لقد كنت اجهل في البداية ماذا يراد مني و لهذا شعرت بالاستياء من فكرة انتقالي. اما الآن فقد تبدد كل استيائي. و قد انتظرت على احر من الجمر طلوع النهار لأغادر مكاني. و قد تمنيت لو كان لي جناحان لأستطيع ان انقل للرفاق باسرع وقت توجيه اللجنة المركزية الذي ينتظرونه منذ امد طويل. و قد احسست بأن المهمة الجديدة التي أُسندت اليَّ أي ان اكون رسولا للجنة المركزية هي شرف عظيم.

و حثني الرئيس تشانغ على ان ادرس بعناية الافكار الرئيسية في البيان و احفظها جيدا في ذاكرتي و كانت كما يلي: ان مقاومة اليابان و انقاذ و طننا قد اصبح الواجب المقدس لكل مواطن صيني. و مرة اخرى فان الحزب الشيوعي و الحكومة الشعبية يدعوان ابناء وطننا الى التعاون. ان مختلف الاحزاب و الجماعات يمكن ان تختلف الآن او انها كانت تختلف في الماضي في آرائها السياسية و مصالحها، و الناس من جميع الاوساط لها آراء و مصالح متضاربة؛ و مختلف الجيوش منغمسة

الآن او كانت منغمسة في الماضي في نشاطات عدائية. اما الآن فجميع الخلافات و النزاعات يجب أن توضع جانبا. ان روح القول المأثور: ((يمكن للاخوة ان يتخاصموا فيما بينهم و لكن يجب عليهم ان يتحدوا للدفاع عن انفسهم ضد العدو المشترك))، ان هذه الروح يجب ان تسود اليوم. ان الحروب الأهلية يجب ايقافها فورا. يجب ان نجمع كل مصادرنا – البشرية و المادية و المالية و العسكرية – من اجل المهمة المقدسة الوحيدة أي النضال ضد المستعمرين اليابانيين و انقاذ وطننا.

لقد كانت هذه هي الآراء الرئيسية في البيان، و خوفا من نسيانها بقيت اتلوها حتى اصبحت على يقين بأنها قد رسخت في ذاكرتي.

وسألني الرئيس تشانغ قائلا: ((أتفهمها؟ هل تستطيع تذكرها؟))

((نعم))

((و هل انت على يقين من ذلك؟))

فقلت ثانية ((نعم)).

و لمّا كنت قد سرت مسافة طويلة فقد أنهكني التعب و سرعان ما استسلمت للنوم الى جانب الرئيس تشانغ. و كنت اكرر تلاوة التوجيه حتى في منامي و استيقظت مرات عديدة في الليل. و اخذت افكر، اذا كنت انا نفسي متنبها الى هذا الحد، فلن يكون اقل تنبها جميع الرفاق الآخرين اللذين يقومون بنشاطات الانصار في الجبال و الاحراش و الذين يقطنون الكهوف عندما اعلن التوجيه من بعيد، بعيد جدا.

و اخذت اتسلق الجبل تلو الجبل. و في خلال اسبوعين زرت ست وحدات من وحدات الانصار. و قد انار بيان ((الاول من آب)) افكار جميع المناضلين الانصار كما تنير المنارة الطريق لسفينة في خضم البحر. ان الطريق الذي ابانه الحزب للانصار في شعاب الجبال كان هو ايضا الطريق الذي أبانه لشعب البلاد كلها – طريق النور و الحرية.

عندما وصلت الى تانغ بي، قرب خوليه، كان الانصار في ذلك الموقع قد خاضوا معركة مظفرة ضد مليشيا الكومنتانغ الرجعية، و في هذه المعركة اخرجوا من العمل، سرية كاملة. في الحال أعلنت لهم توجيه لجنة الحزب المركزية. و عندما انتهيت من الكلام طاروا فرحا – و اخذوا ينشدون و يرقصون و انشغل بعضهم على الفور في كتابة يافطات و مناشير الدعاية لالصاقها او توزيعها. و استعد آخرون للذهاب الى القرى ليلا للقيام بالدعاية بين الجماهير و هكذا يمكن للأنباء ان تنتقل من شخص الى عشرة و من عشرة الى مائة حتى يغدو لبيان ((الاول من آب)) تأثير واسع. و قد قطع جميع الانصار العهد على ان ينفذوا بامانة السياسة التي يدعو اليها توجيه اللجنة المركزية. و قالوا بأنهم سيسعون الى الصداقة و الاتحاد مع جميع اولئك الذين من الممكن مصادقتهم و الاتحاد معهم، و بذلك يمكن تكوين جبهة وطنية متحدة لمقاومة اليابان. و للتدليل على انهم يدافعون عن قضية مقاومة العدوان الياباني، فإنهم لن يهاجموا قوات جيانغ كاي تشك ما عدا في حالة الدفاع عن النفس، و بذلك يمكن حفظ القوى للقتال ضد المعتدين الى جانب شعب البلاد كلها.

ان صوت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي قد لمس شغاف قلوبنا جميعا. و لم يكن لدينا من شك بانه سيصيب شغاف قلب الشعب في البلاد كلها.

و واصلنا نشاطات الانصار في شانتونغ و يونغ تنغ و تابو حتى انفجار حرب مقاومة العدوان الياباني و عندها تركنا الجبال.

قائد الفرقة المحبوب

بقلم اللواء تشن شي ليين

في شباط من عام ١٩٣٣ اشتبك الجيش الثلاثون التابع لجيش الجبهة الرابعة الأحمر في معركة مع قوات امراء الحرب في سيتشوان، و ذلك في شمالي شرق مقاطعة سيتشوان. و أصبت بجروح في معركة تل هو فنغ الواقع في جنوبي محافظة تاشيين، فنُقِلت مع الجنود المنسحبين من الجبهة نحو شوان هان في شمالي محافظة تاشيين.

و كان اول ما احسست به، بعد ا نافقت من حالة السبات، ندف الثلج القارسة البرودة التي كانت تتساقط على وجهي. و اخذت أرجف من البرد و كانت شفتاي قد جفتا عطشا حتى اصبحتا على وشك التشقق. و في تلك الحالة التي كان يسيطر علي فيها شعور غامض رأيت نفسي قرب نبع بارد. و اخذت اعب الماء بيدي و اشرب بجنون، و لكن ذلك لم يطفىء النار المتأججة في حلقي. فانفعلت و نهضت فجأة. و احسست كأنني اتأرجح على قارب، ثم سمعت اصوت انفاس لاهثة و وقع اقدام. و تبين لي انني على نقالة و لكن عينيَّ المتعبتين ازدرتا بالجهود التي بذلتها لفتحهما.

و على حين غرة توقفت النقالة المهتزة، و رفع المراسل الذي يسير بجانبها رأسي بلطف و وضع زجاجة ماء على شفتي، و عببت منها بنهم. و عندها انتعشت و فتحت عينيَّ. و كانت السماء ملبدة بالغيوم. و كانت قواتنا تسير بسرعة في طريق ضيقة تحاذي حافة النهر.

و لمعت في ذهني صورة معركة تل هو فنغ واصبحت الآن في حالة يقظة تامة. و سألت بقلق: ((في أي مكان جُرِحْت؟))

فأشار المراسل الى جسمي. و عند ذاك فقط احسست بألم خفيف ينبعث من الجرح. و لفت انتباهي معطف طويل يغطي جسدي، و هو من القماش الصوفي

الخشن، و كان معطفا ممزقا، و له جيبان مخاطان على ناحية الصدر. و لم يكن ذاك المعطف غريبا عني.

فقبل ان نحتل محافظة تاشيين، و هي مؤخرة ليو تسي هيو امير حرب سيتشوان، اخذنا حزمة من العتاد العسكري. و في ذلك اليوم، كنا مجتمعين في مقر قيادة الفرقة عندما احضر رفيق من دائرة التموين بعض الألبسة للرفيق وانغ لييه شان آمر الفرقة. و قد رفض قبولها و امره بارجاعها و توزيعها على الجنود. و بعد إلحاح شديد من جانبنا قبل ان يأخذ معطفا صوفيا نصف ممزق. و اخبر حارسه باحضار قطعتين من القماش و اخذ يخيط على ناحية الصدر جيبين كبيرين. و قال لنا مبتسما: ((قائد الأركان ''شو'' له مثل هذين الجيبين على معطفه، و هما مفيدان جدا لحفظ الوثائق و كذلك لوضع الغليون.))

ان المعطف الذي يغطي جسدي هو ذلك المعطف ذاته.

و قال لي المراسل و هو يراني انظر باستغراب الى المعطف: ((لقد اصبت بجرح بليغ و قد تخضبت ثيابك بالدماء و كان من الصعب جدا نزعها عنك، و هكذا اضطرت الممرضة لتقطيعها بالمقص. ثم جاء آمر الفرقة وانغ ليراك و ...)) فقاطعته قائلا و قد اتضحت لي المسألة: ((حسنا. و ماذا يرتدي آمر الفرقة نفسه؟))

ان الطقس في الشمال الشرقي من مقاطعة سيتشوان يبقى باردا في شهر شباط. و تذكرت بأن آمر الفرقة كان مع لوائنا مؤخرا و أعلم بانه ليست لديه ثياب اضافية.

فقال المراسل متجهما: ((لم ألاحظ، و أظن بأنه ما يزال يرتدي المعطف القديم الممزق.))

و لم اشدد عليه بالسؤال، و أحسست بتأثير شديد. ففي تلك الأيام، أيام النضال المرير، ما الذي يمكن ان يكون اكثر إلهاما من عناية القادة و الشعور الأخوي بين رفاق السلاح؟ و كم من الامور الكثيرة ذكّرَني بها ذلك المعطف المهترىء.

كانت المرة الاولى التي رأيت فيها آمر الفرقة وانغ هي عندما كنا في مسيرة اثناء حملة مقاومة التطويق التي قام بها جيش الجبهة الرابعة. و كنت اذ ذاك مدرسا سياسيا لكتيبة المخابرات للواء ٢٦٣ من الفرقة ٨٨، الذي كان الرفيق وانغ لييه شان آمره. و كنا مع بعضنا معظم الوقت. و لم يحدث ابدا ان سار راكبا. و كان يحمل كل شيء بنفسه عندما كنا نصل الى المكان الذي سنقيم فيه. و كان ينغمس في احاديث ودية مع السكان المحليين كلما وجد فسحة من الوقت. و كانت حاجاته أبسط من حاجات الجنود. فلم تكن لديه ثياب اضافية، و انما كان له لحاف قطني ازرق قديم رقيق، يلتف به ليلا و ينام على طراحة من القش. أمّا حاجاته الاخرى فكانت كتبا قديمة و جديدة و التي كان مغرما بها كثيرا. و عندما دخلنا سيتشوان لاول مرة هاجمنا اربعون فوجا من قوات امير حرب سيتشوان شين سانغ ياو. و تراجعنا من تشيالغ الى جبال تابا و ابقينا العدو في كانغ شاتتا في حالة ارتباك لمدة شهر تقريبا.

و في احد الايام أمر قائد اللواء وانغ لييه شان مراسلا ان ينقل رسالة هامة و اخبره بانه يجب ان يتم ايصالها مساء. و ما كاد المراسل يذهب حتى استدعاني الرفيق وانغ و قال: ((اذهب بسرعة و ارجعه!))

و ظننت انه نسي ان يخبره شيئا ما.

و اعدت المراسل. و تطلع الرفيق وانغ الى قدمي المراسل الشاب.

و كانت قواتنا اذ ذاك في ضيق. و لم تكن هناك احذية. و كان الذي يملك زوجا من الاحذية المصنوعة من القش يُعتَبَر محظوظا. و كان معظم الرجال حفاة. و الطقس في جبال سيتشوان بارد، و سقوط الثلج الكثيف امر عادي. و كثير من الجنود كانوا يعانون من تشقق اقدامهم.

و قال الرفيق وانغ و هو يتطلع الى الشباب الحافي القدمين الواقف امامه: ((لا يمكنك الذهاب حافي القدمين!))

((لا تقلق! سأكون في احسن حال!))

فقال له الرفيق وانغ: ((هذا لا يمكن، لا يمكنك السير حافي القدمين في الممرات الجبلية ليلا، احتذ حذائي!))

و قد حار المقاتل الشاب فيما يفعل حيال هذا الامر الغير منتظر. و ليس هو فقط بل انا ايضا قد تأثرت عميق التأثر عندما رأيت آمر اللواء يعطي حذاءه الوحيد لأحد الأفراد.

ثم قال الجندي و قد سيطرت عليه الحيرة ((لا، لا! لن احتذي حذاءك ايها الآمر!))

فقال آمر اللواء بصورة حازمة و هو يدفع الحذاء اليه: ((توقف عن هذا الهذيان الجنوني، احتذ الحذاء من اجل القيام بمهمتك.))

و قد تأثر المراسل عظيم التأثر لجزع آمر اللواء عليه، و احمر وجهه و سالت الدموع على خديه. احتذي حذاء آمر اللواء و حيّى الىمر و إنطلق راكضا. و بقيت اراقب المراسل حتى اختفى في الوادي ثم تحولت لأرى آمر اللواء وانغ ليبه شان و كان يسير حافي القدمين في الطريق الجبلي الوعر متوجها الى المركز الأمامي.

و ربما تبدو هذه الحادثة امرا تافها للبعض، إلا انها بالنسبة لي فقد بقيت حية في خاطري.

لقد كان الرفيق وانغ ليبه شان ليِّن العريكة لا يغضب. و لم يحدث ابدا ان وجه الى أي رفيق توبيخا شديدا حتى و لو اقترف اخطاء. و مع ذلك فقد رأيته مرة يتميز من الغيظ. و في هذه الفترة كان قد رُفِّعَ الى مركز آمر فرقة.

و في ذلك الوقت كنا نحرس كانغ شانتا. و قد حاصرنا العدو في جبل عال مقفر. و لمّا كنا في القمة فكان لنا الموقع الافضل. و لكننا كنا نفتقر الى الطعام. و لم يكن يُرى في الغالب أي قدر فوق الموقد. و في احد الايام، بعثت لنا الاركان التي تعمل في المؤخرة ببعض الحبوب التي جمعتها من المنطقة المحيطة بجبل باشان. و قد أبقى الحارس للرفيق وانغ كيسا صغيرا من الذرة لحين الحاجة. و عندما اكتشف

ذلك اشتاط غضبا. و صدف ان كنت هناك. و قد امر حارسه مرة بعد اخرى باعادة الكيس.

و لكن الحارس اوضح له قائلا: ((لقد خُصِّصَ لك من قِبَل رئيس قسم الادارة.))

فقال: ((لا اريده! خذه في هذه اللحظة!))

و حاول الحارس ان يصر قائلا: ((لقد وُزِّع، و لن يأخذوه حتى و لو اعدته!))

فأرعد صوت الرفيق وانغ: ((اعده!)) و اربد وجهه الذي كان دائم البشاشة. و لم اره ابدا في مثل هذه الحالة من الغضب.

و لم يجرؤ الحارس الشاب ان يستمر في رفضه. و تمتم بكلمات غير واضحة و اعاد كيس الذرة.

و في الوقت الذي كان الجيش كله يقاتل العدو ببطون خاوية لم يكن الرفيق وانغ لييه شان يقبل أية عناية خاصة به – مهما كانت تلك العناية – و ذلك بالضبط لأنه كان آمر الفرقة.

ان الموقف الرفاقي الذي اتخذه الرفيق وانغ لييه شان قد ترك انطباعا عميقا في نفسي.

و أخذ العدو يضغط علينا بشدة بعد ان تراجعنا شمالا من محافظة تاشين. و لم أذهب الى المؤخرة، لأن جرحي لم يكن خطيرا، و كذلك لأنني كنت مشغول البال على عملي في اللواء – و هل يتم بصورة مناسبة؟ و عدت الى اللواء بعد فترة قصيرة من الراحة.

و أقمنا مركزا دفاعيا على طول الضفة الشمالية لنهر تانغ تشيانغ في جنوبي شوان هان. و قبل أن تتم ترتيباتنا للمعركة و صل العدو الى الضفة المقابلة. و قبل طلوع الفجر تبودل اطلاق النار من الجانبين. و كنت واقفا عند ضفة النهر أراقب العدو على الضفة المقابلة فاستطعت ان أرى اشباح اشخاص على سطح النهر و

تصدر من ناحيتهم ضجة كبيرة، ان العدو، يحاول ان يقطع النهر مستخدما القوارب و عوامات البامبو. و ركزت قواتنا النار على العدو و أوقعت به خسائر جسيمة و أرغمته على التراجع.

و عندما طلع الصبح و أخذ الضباب ينحسر عن النهر، بدأت مدافع العدو تقصف موقعنا. و لاحظت بأن الناحية التي تنصب عليها نيران العدو هي أضعاف قطاع في خطوط دفاعنا فعدوت نحوه بسرعة وسط النيران و كانت القنابل تصفر فوق رأسي. و كان شاطىء النهر مغطى بالدخان و اللهيب. و قياسا على الدوي المنبعث فقد كان هناك ما لا يقل عن ١٥ مدفعا من مدافع المورتر تصب النار على موقعنا.

و عندما اقتَرَبت استطعت ان ارى رجلا واقفا وسط الدخان. و في الحال ميزته و اذا به آمر الفرقة. لقد سبقني في المجيء!

و حالما رآني سألني بقلق: ((كيف حال جرحك، هل تقيح؟))

و أعلمته بانه على خير حال و انني استطيع تحمله. ثم قلت له: ((يا آمر الفرقة، من الافضل ان تعود الى مقر القيادة. و انا مع آمر اللواء نستطيع تدبير الامر هنا.))

و دون ان ينتبه الى كلماتي واصل التطلع بانتباه الى حركة العدو على الضفة المقابلة. و فجأة سقطت قنبلة قريبا منه و عفرته بالتراب الذي انبعث من انفجارها. و قال: ((يبدو بان العدو مصمم على القتال هذه المرة!)) قال هذا و هو ينفض التراب عن ثيابه و كأن شيئا لم يحدث. و حدث ما توقعه آمر الفرقة تماما. فقد جمع العدو خمسة ألوية، و تحت حماية الطائرات و المدافع حاول مرارا عبور النهر و دفع من اجل ذلك ثمنا باهضا. و من جانبنا فقد كان لدينا الفوجان الثاني و الثالث فقط (و لم يكن الفوج الاول قد وصل بعد حين كان مشغولا بمهام اخرى) لمقابلة التحدي و نتيجة لذلك استطاع العدو ان يقيم رأس جسر. و عند الظهر ارسل العدو اربعة ألوية لعبور النهر. و كان علينا ان ننسحب الى شه كو تشي.

و قد عانينا كثيرا من الخسائر و كانت ذخيرتنا تنضب. و لحسن الحظ كان موقع شه كو تشي مناسبا. فهو قائم على مرتفع و كان موقفا دفاعيا رائعا. و هكذا جندنا الطهاة و السواس و الممرضات – و كل شخص قادر على العمل – لإقامة جدار من الحجارة لحماية حصننا. و كانت البنادق لا تستطيع ان تلعب إلا دورا صغيرا لأن الذخيرة كانت قليلة. و هكذا فقد لجيء مرة اخرى الى الأسلحة التي كان الجيش الأحمر يستخدمها عندما بدأ النضال الثوري. و اعطيت الحراب لكل رجل من آمر الفرقة حتى الجندي و معظم هذه الحراب لها كلابات. و عندما تسلق جنود العدو جدار حصننا و اصبحوا في منتصفه، اخذنا نطعنهم برؤوس الحراب ثم نسحبها و هي تحمل الضحية حيا او ميتا. و اذا حدث ان كان الصيد طويلا و كبيرا او اذا لم يستسلم بدون صراع فكنا نحتاج لعدة ايد لإخضاعه و جره كالخنزير. و بهذه الطريقة حصلنا على بعض الطلقات و اذا واتانا الحظ كنا نحصل على بعض القنابل اليدوية.

و عندما تحقق العدو بان ليست لدينا بنادق و ليست لدينا ذخيرة للرشاشات اخذ يتنمر و يتجمع قرب حصننا و فيما كان الواقفون في المقدمة يهاجمون كان اولئك الواقفون في المؤخرة يهتفون لهم مشجعين. و عندما رأى بعض رفاقنا مظاهر الزهو على العدو لم يستطيعوا ان يضبطوا انفسهم إلا بصعوبة. و لكن مظهر الهدوء الذي كان يتسم به آمر الفرقة جعل كل واحد هاديء الاعصاب.

و طيلة ذلك الوقت لم يسترح آمر الفرقة ابدا. و كان يحمل حربته و يجول هنا و هناك و يظهر في المكان الذي يتحرج فيه الموقف. و بالرغم من وفرة عدد العدو فان ألويته الخمس لم تستطع ان تنال إلا قليلا من الموقع الذي كان يدافع عنه اقل من فوجين من افواج الجيش الأحمر.

و استمر القتال حتى مغيب الشمس عندما توقف هجوم العدو.

و عند ذاك كنا منهكين جدا. و كان يبدو ان العدو سوف لا يعاود هجومه في الحال، و هكذا اغتنمنا الفرصة لطهي الارز.

و عندما جاء آمر الفرقة لاحظنا ان وجهه كان ملطخا بالدخان و الغبار و العرق و يشبه الوجه المصبوغ لممثل اوبرا بكين.

و احضر الأرز. و قال آمر الفرقة وانغ: ((تناولوا طعامكم، و انا سأذهب لأراقب العدو.)) فقلت: ((دعنا نتناول الطعام سوية، فيبدو انه من غير المحتمل ان يقوم العدو بهجوم آخر في الحال.))

و جلسنا حول طعامنا – آمر الفرقة و آمر اللواء و آمر الفوجين و الحارس و نافخ البوق. و نظر الينا آمر الفرقة. و كان من الواضح انه لا يوافق على ان يتجمع جميع الأمار معا اذ في ذلك خطر ضياعهم جميعا. و لكنه لم يلمنا بل ابدى ملاحظة فكهة: ((اذا ارسل العدو لنا ''قرعة'' فسنجد من الصعب قبول الهدية!))

و بعد ذلك، و كلّما تذكرت هذا كنت احس بأشد الندم. فلو كنّا نعلم ماذا سيحدث لما كنّا جعلنا آمر الفرقة يتناول طعامه معنا. لقد كان درسا فاجعا لم أنسه ابدا طيلة الاعوام العشرين التي قضيتها في الحرب، و ذلك هو انه مهما كانت المعركة ضارية و مهما كان المناضل الثوري مجهدا فعليه ألا يخفف من يقظته في الميدان مهما كان الأمر.

و ما ان انتهيت من تناول الطعام حتى جاء رئيس الأركان و اعلمنا بان العدو يجمع قواه و ان هجومه بات وشيكا. و نهضت في الحال و هرعت نحو الموقع الأمامي. و لم ابتعد كثيرا عندما إنفجرت قنبلة في نفس المكان الذي كنا نتناول فيه طعامنا.

و عدت مسرعا فرأيت آمر الفرقة ملقى على الأرض مضرجا بدمه الذي كان يتدفق من رأسه. و كانت الكلمات الاخيرة التي نطقت بها شفتاه: ((لا يهمكم أمري! واصلوا المعركة!))

و لم يكن هناك من حاجة لإخفاء ذلك عن المقاتلين. فقد انتشر خبر مصرع آمر الفرقة بسرعة بين الجميع. و كثير من المقاتلين اصابتهم صدمة شديدة. و لكنهم، و

الدموع تملأ مآقيهم و الألم يعصر قلوبهم كروا على الأعداء و ردّوا هجماتهم المسعورة المتتالبعة و حافظوا على موقع شه كوت شاي.

و عندما أرخى الليل سدوله تلقائيا أمرا بالانسحاب. و قد ووري الشهداء التراب، و لكن المقاتلين لم يدفنوا هناك آمر فرقتهم الذي يحملون له اعظم الاحترام. و قد حملوه أكثر من خمسين كيلومترا و واروه التراب في سفح جبل من جبال تابا.

و واصلنا خوض المعارك ضد الأعداء حول الجزء الشمالي الشرقي من مقاطعة سيتشوان، و قد ابدنا قوات امراء حرب سيتشوان، التي كانت تحتل المنطقة ابدناها وحدة بعد اخرى.

لهب على الجبل الشامخ

بقلم العقيد بنغ شو شنغ

لقد كان الخريف في عام ١٩٣٤ لطيفا. و قد تقابلنا مع قوات الكومنتانغ التي كانت ((تتعقبنا لابادتنا)) و ذلك في مكان قريب من محافظة أنفو في مقاطعة كيانغسي. و قد كنا لواء واحدا مقابل ثلاثة ألوية للعدو. و بعد معركة دامت يومين و ليلتين قتل كثير من الرفاق و كان عدد الجرحى اكثر من ذلك. و كنت من بين الجرحى.

و كلفتني القيادة بأخذ ستة من الرفاق الى مستشفى ليس له اسم او عنوان. و كل ما ذكره لي المعلم السياسي هو انه، أي مستشفى يقع في مكان ما من شمالي شرقي جبال التنانين التسعة، و ان المسئول عنه معلم سياسي يدعى كو.

و تقع جبال التنانين التسعة التي اعرفها جيدا، على حدود محافظتي انفو و بنغ شيانغ، و ترتفع عدة مئات من الامتار و تمتد الى عشرات الكيلومترات و تتصل بجبال ووكونغ و تكسوها الاشجار الباسقة و نبات السرخس. و كانت القمة التي علينا تسلقها تتطلب ان يكون الشخص قوي البنية للوصول اليها فكيف بالجرحى. و مع ذلك فقد قررنا ان نبدأ السير ليلا لنصل مع طلوع الفجر.

و تحركنا نحن السبعة عند غياب الشمس متجهين نحو هدفنا على مهل، و في يد كل منا عكاز، و كان المصاب بجرح خفيف يسند المصاب بجرح خطير.

و أصبح الظلام حالكا، و كانت ترصع السماء بضع نجوم تبدو كاليراعات التي تحوم في الليل.

و كنت مرارا أحث الآخرين على السير بقولي ((هيا، اسرعوا!)) و لكن دون فائدة. فعدا عن خو الصغير و أنا اللذين كانت جراحنا غير خطيرة، فقد كان الآخرون مصابين بجروح بليغة. و عادة كان يجب ان يحملوا على نقالات. و لكن

هذا كان خارج الموضوع. و كان تشين الصغير مصابا بجرح في رأسه و قد فقد كثيرا من دمه. و كان يئن طول الطريق. و كنت اساعده و لكننا كنا نترنح اثناء سيرنا، و كدنا ان نتدهور من المنحدر عدة مرات. و كان خو الصغير يسند رجلا آخر جرحه اشد خطورة. و اخذنا نسير بسرعة البزاقة و كنا مجهدين نتضور جوعا، فقد مضى علينا يومان لم نذق فيهما طعم الزاد. و هكذا فقد جلسنا واخذنا نأكل الأرز الجاف الذي حملناه في مناشفنا بعد ان غسلناه بالماء الذي احضرناه من الجدول.

((يا قائد الفصيل، متى نصل الى هناك؟)) سأل خو الصغير القليل الصبر، هو يلتقط حبات الأرز باصابعه.

فأجبته على الفور: ((انه ليس بعيدا جدا.))

و بصراحة، لم أكن أعلم كم من الوقت سيستغرقنا الوصول الى هناك.

و غمزني خو الصغير بخبث قائلا: ((أي، عندما نصل الى المستشفى سننام نوما عميقا و نتناول وجبة كاملة.)) لقد كان فتى خفيف الروح. و لمّا سمع بان المستشفى ليس بعيدا اخذ يرسم صورة جميلة له. و قد بعثت كلماته المرح في قلوب الجميع. و أخذنا نحن السبعة نتناقش فيما سنفعله لدى و صولنا الى هناك، و كان كل منّا يعرض آراءه. و قد اجمعنا على القول بان المستشفى سيكون رائعا، و كان الأمل يراودنا جميعا بأننا سنشفى سريعا و نعود الى قواتنا.

و قال خو الصغير: ((يا قائد الفصيل، سأقضي هناك ثلاثة ايام على الأكثر. ثلاثة ايام و انا على يقين بان يدي ستصبح بحالة حسنة.)) ان خو اخذ يقرر حتى كم يوم تحتاج يده لتشفى!

و بعد ان تحدثنا قليلا أحسَّ كل واحد بانه شديد العزم و لم يعد يحس بالجوع. و هكذا واصلنا التسلق بخطى مترنحة في الاتجاه الشمالي الشرقي.

و أخذ الليل ينحسر، و رأينا النجوم تختفي، و أخذنا نهلل لمجد الصباح. و أخذنا نسير و نسير، و لكننا لم نر أثرا لهذا المستشفى. و أخذ البعض يساوره القلق. و لم نعثر على هذا المستشفى الذي لا اسم له و لا عنوان إلا بعد ان اصبحت الشمس في كبد السماء.

في المستشفى

و عثر على المستشفى، و لكننا وجدناه بعيدا عن الصورة التي رسمناها له. و قد قادنا شاب يرتدي بزة عسكرية مهترئة الى كهف صخري، قائلا بانه قاعة المستشفى. و احنينا ظهورنا و دخلنا. لقد كان رطبا مظلما، و لم يكن ينيره إلا خيط من شعاع كان يتسرب من المدخل. و وجدنا فيه نحوا من اربعين سريرا مصنوعة من الأغصان، و على معظمها يضطجع جرحى. و ما ان دخلنا حتى نهض بعضهم و أخذوا يسألوننا عن الجهة التي جئنا منها. و قبل ان يتاح لنا الوقت للإجابة أرانا الشاب عددا من الأسرة الشاغرة في نهاية الصف و الى اليمين و طلب الينا الاضطجاع عليها.

لم يحدث ان كنّا في مستشفى من قبل، و لم تكن لدينا فكرة عمّا هو المستشفى. و مع انه لم يكن جميلا للدرجة التي كنّا نتوقعها و لكنه افضل بكثير من النوم تحت السماء.

و همس خو الصغير و هو يشد ثيابي: ((هل جميع المستشفيات على هذه الشاكلة؟)) ((لا اعلم.))

و ارتفع صوت يقول: ((لا.)) و تطلعت من حولي، و اذا بشاب سمين متوسط الطول تجمعت على جبهته حبات من العرق، تتجه نحونا. و مضى قائلا: ((اظن بانه ليس المستشفى النموذجي الذي ترغبون ان تكونوا فيه!))

و قد جعلتني كلماته احس بارتباك شديد. فأي مظهر من مظاهر الجهل بالأشياء بدا علينا في اللحظة التي وصلنا فيها. و احسست برغبتي في اعطاء خو الصغير قطعة من دماغي. و لكنني احسست بكدر شديد حتى لم استطع الكلام.

و ضحك الشاب و اقترب منا اكثر.

((هل انت قائد الفصيل بنغ؟)) قال ذلك و هو يقرأ كتاب التقديم.

((انت ... ؟))

((كومنغ.))

((هنا سبعة منا. اثنان جروحهما في القدم و اثنان جروحهما في الرأس و ....)) و قدمت له تقريرا بلهجة رسمية.

((حسنا يا بنغ، لا شك انكم متعبون بعد السفر. اجلسوا و استريحوا.)) و هكذا جلسنا على الاسرة و اخذنا نتحدث.

لقد كان الوضع هنا شديد الصعوبة، فقد انسحبت قواتنا من الأماكن المحيطة بنا و اصبح الأعداء في كل مكان. و قد انقطعت روابطنا بالجماهير. و كان هناك ارز قليل جدا و العلاجات الوحيدة كانت محلول الملح و شحم الخنزير. فماذا يجب علينا ان نعمل؟ و لمّا كنّا في حالة حرجة فليس امامنا سوى الاعتماد على ادمغتنا و ايدينا.

((يجب ان يكون هناك مخرج، لان لدينا عشرات من الرؤوس و ضعفها من الأيدي!)) هذا ما قاله المدرس السياسي كو و قد ضاقت فرجتا عينيه.

المصاعب

لقد مرت علينا ثمانية أيام في المستشفى. و كانت الحياة مبهجة جدا. و كان يقدم لنا الثريد مرتين في اليوم و احسسنا بتقدم صحتنا. و كان محلول الملح و شحم

الخنزير يفعلان مفعولهما و ان كان ببطء و لكنهما كانا يجعلان الجرح يلسع. و قد تصادقت مع الصاحب الكبير و ما الصغير و فانغ الصغير.

و كان الصاحب الكبير يعاني من جرح في رأسه. و كان عليه ان يلتزم الفراش طيلة اليوم و كان من الضروري اطعامه. و الامر السيء هو ان الشحم كان يبدو عديم التأثير على جرحه. و لكنه كان متفائلا. فلم يكن يعتقد ان جرحه سيشفى و حسب، و لكنه كان يضع الخطط للعمل بصورة افضل من اجل الحزب. و مع ان جرحه كان بليغا فقد كان يتحمل الألم دون ان يبدو اثر لذلك في وجهه. و كان يحب الحديث و المزاح مع الآخرين. و كان يقول بانه عندما يتزوج و ينجب ابناء فسيرسلهم الى الجيش ليدقوا اعناق الكومنتانغ النغال.

و لمّا كان الرفاق يعلمون بانه مغرم بالتدخين، فقد اخذوا يتطوعون لجمع اوراق الشجر له ليجعل منها ((لفائف)) و عندما كان يضع ((اللفافة)) بين شفتيه كان يقول ضاحكا: ((هذه اللفافة رائعة، انها افضل من لفائف المدينة.))

و الى جانب الصاحب الكبير فقد كان جميع الرفاق متفائلين. و ما من احد كان يحس بان الحياة قاسية. فكانوا ينظمون الأناشيد و يروون القصص و النكات التي كانت تجعل الكهف كله يضج بالضحك.

و في مساء احد الايام كان الجميع ينتظرون الطعام المعتاد. و كان خو الصغير واقفا امام الكهف و في يده طاسة صغيرة و هو يؤمل ان يملأها بالثريد للصاحب الكبير. و جلست على سريري ممسكا بيدي طاسة مكسورة من الخزف وزوجا من الملاعق مصنوعتين من الأغصان. و مر وقت طويل و لكن الطهاة لم يظهروا. و اصابتنا الحيرة جميعا.

و صرخ خو الصغير فرحا: ((ها هم!)) و ظن ما الصغير انه يضحك منهم فاندفع نحوه و كاد ان يقرعه و لكنه رأى انه قد قال الصدق.

و لكن واحدا من الطهاة الثلاثة قد جاء، و هو يحمل قدرا و خلفه يسير المدرس السياسي. كيف يكفي قدر واحد من الثريد لأربعين شخصا! و حدست ان في الأمر شيئا. و لا يستطيع المرء ان يدرك شيئا من وجه المدرس السياسي فقد كان دائم الابتسام.

((لا شك انكم قد سئمتم الانتظار!)) قال ذلك و هو يدخل الكهف. و لكن احدا لم يجب، فالجميع كانوا يفتشون في وجهه عن مفتاح لهذا اللغز.

و قال و هو يسير الى وسط الكهف: ((اجل، لقد غربت الشمس، و قد تأخر وقت تناول الطعام كثيرا.)) و أخذ يجول بناظريه من حوله و قال: ((و لكن، أيها الرفاق، ان الصعوبة التي كنّا نفكر بها قد اقبلت في الواقع. فلم يعد لدينا حبوب. و هذا آخر قدر من الثريد. و نحن آسفون، و لكن فليقتسمه الجميع. و غدا سنحاول ان نجد مخرجا. و الآن ارجوكم ان تأكلوا!))

و أخذ القدر من الطاهي و الهبال يتصاعد منه. و في ذلك اليوم كانت له رائحة مثيرة للشهية بشكل خاص. و ساد الصمت، و البعض انزل صاساته.

و ارتفع صوت يمزق السكون: ((ايها المدرس السياسي، نحن لا نستطيع ان نأكل هذا الثريد!))

و تطلعت جهة الزاوية اليسرى، لقد كان قائد السرية فانغ. انه شاب ظريف صريح، و كان يُعبِّر عن آرائه فقط عندما يعتقد ان هناك حاجة لذلك. و لهذا السبب كان يحظى باحترامنا جميعا.

و قال و هو يتقدّم خطوة الى الأمام: ((أيها المدرس السياسي، اقترح ان نترك الثريد الى الصاحب الكبير و الرفاق الثلاثة الآخرين المصابين بجروح بليغة!))

و قال الجميع بصوت واحد: ((هذا صحيح، هذا صحيح! يا قائد السرية فانغ! هذا صحيح!))

((لا!)) قال صوت أبح على حين غرة. و كان الصاحب الكبير يبذل جهدا كبيرا ليستند بيديه على سريره محاولا النهوض. و أسرع احد الرفاق لمساعدته. و كان يتنفس بصعوبة، و كانت رموش عينيه مبللة. و أخذ يقول: ((لا، أيها المدرس السياسي، لا يمكننا ان نفعل ذلك. يجب ان نقسمه فيما بيننا، نحن معا في السراء و الضراء، نحن نعيش معا و اذا اقتضى الأمر سنموت معا!))

و ساد الصمت مرة اخرى. و سار المدرس السياسي نحو الصاحب الكبير و أسند جسمه بيده و قال له: ((ارجوك ان تضطجع! استرح!))

و بعد هنيهة التفت المدرس السياسي و قال: ((حقا أيها الرفاق! يجب تقديم الثريد للذين جروحهم بليغة. و سنحاول التفكير لإيجاد طريقة جديدة. و نحن على يقين باننا سنجد شيئا ما ليؤكل. اننا سنعيش!))

و تفرق الجميع و عادوا الى اسرتهم و وضعوا طاساتهم على الأرض و اضطجعوا. و كان الهبال الذي يتصاعد من القدر يستقر على كتلة حجرية في مركز الكهف.

و نهضت و ركضت الى وسط الكهف قائلا: ((تعالوا أيها الرفاق لننشد نشيدا.)) و أخذ الجميع ينشدون:

المقاتلون في الجيش الأحمر، هم ابطال حقيقيون،
قاتلو ضد الطغاة المحليين، و قسموا الأرض و سيروا
بالثورة ...

و أخذنا ننشد و ننشد، و حتى الصاحب الكبير المضطجع على فراشه قد شاركنا في الغناء.

و حان وقت النوم. و لكن من يستطيع النوم! و سمعت خو الصغير يتقلب في فراشه. و كانت الفرش محشوة بأوراق الشجر و لهذا تنبعث منها خشخشة اذا كان النائم قلقا.

و أخذتُ افكر: ((ان هذا الطفل له من العمر اربعة عشر عاما. و لو كان احد افراد عائلة غنية لأعتُبِرَ صغيرا جدا لان يترك والدته. و الآن فانه أحتسى الكأس المر معنا. و شعرت بالكآبة.

و سألتُهُ: ((يا خو الضغير هل انت نائم؟))

((لا، يا قائد الفصيل.)) اجاب بصوت خافت، و كان يبدو كأنه يبكي.

و سألته متعجبا: ((هل تبكي؟))

فقال على الفور و بصوت عال: ((لا!))

و سألته: ((هل انت جائع؟)) و كنت اعرف بأنه فتى عنيد.

((لا، اذا كنت قادرا على الاحتمال فأنا قادر ايضا.))

و لم استطع إلا أن اثني عليه قائلا ((فتى شجاع)).

و تسربت الى الكهف خيوط من نور القمر الساطع. و أخذت طاسة مليئة بالماء البارد كانت قرب فراشي، و شربت منها جرعة، و اضطجعت على جانبي و اوقفت قرقعة بطني الخاوي.

((إننا سنعيش!)) لقد تذكرت كلمات المدرس السياسي و استسلمت لنوم مضطرب.

جلد الثور

و أخيرا وجدنا طعاما يسد مسد الحبوب – الخضروات المرة. و الإسم ينطبق على المسمى، اذ هي تبقى مرة حتى و لو غُلِيَت مرات عديدة. و كانت تُطبَخ بالزيت و الملح. و الملح هنا دواء ثمين و الاحتياطي منه آخذ في النفاذ. و هي تؤلم المعدة و تضفي على الوجه لونا اصفرا. و قد نحلت اجسامنا كثيرا و لم نكن نفرق عن الموتى إلا باننا نتنفس. و مع ذلك فلم نستطع الحصول على هذا الطعام فترة طويلة.

ففي البداية كنّا نستطيع جمعه من حول كهفنا، مع غصن او غصنين من البامبو. و فيما بعد، و عندما أتينا على كل الخضروات المجاورة لكهفنا، كان علينا ان نذهب بضعة كيلومترات للتفتيش عنها. حتى اتينا على كل ما تنبته الأرض. و حتى التهمنا الحشائش و لحاء الشجر حتى اصبحت الاشجار القريبة منا عارية.

لقد عشنا شهرا كاملا على الحشائش و لحاء الشجر. و حتى هذه اخذت في الزوال عندما بدأ الثلج يتساقط.

ماذا يجب ان نعمل؟ اننا لا نستطيع ان نترك الجميع يتضورون جوعا. و دعا فرع الحزب الى اجتماع و فيه قدَّمَ اعضاء اللجنة عددا من الاقتراحات. و قد اتخذ قرارا بان ينزل الموجه لي مع مساعد له ليفتشوا لنا عن حبوب.

و أخذ الثلج يتساقط بندف كبيرة، و كانت الريح قارسة. و ذهبنا مع المدرس السياسي الى خارج الكهف لنوَدِّع الرفيقين.

((عليكم ان تحاولوا احضار شيء ما، اننا جميعا نعتمد عليكم!)) هذا ما قاله المدرس السياسي و قد عبر عمّا نريد ان نقوله جميعا.

و في تلك الليلة لم يستطع احد ان يعرف طعم النوم. لقد كنّا نفكر بالرجلين اللذين كنّا نؤمل بان يعودا بالأنباء الطيبة و نهضنا مع شروق الشمس و ذهبنا الى نقطة مشرقة خارج الكهف لنطل على المنحدر.

و مرت الساعة بعد الساعة، و كان كل منّا ينتظر بتلهف و لكن دون جدوى.

((ايها المدرس، انظر.)) كان قائد السرية فانغ اول من رأى الأشخاص المقبلين.

و نظر كل منّا الى النقطة التي أشار إليها فرأى عن بعد بقعتين سوداوتين على الأرض البيضاء. لقد عادا. و لمّا أحكمنا النظر أُصِبنا جميعا بخيبة أمل.

((ليس معهما شيء.)) و كنت اول من أعلن ذلك. و وافق الجميع بقولهم: ((هذا صحيح، انهما لا يحملان شيئا على اكتافهما!))

و مع ذلك كان كل واحد يضغط على نفسه في مسعى لمعرفة ما اذا كانا يحملان أي شيء.

((أيهما المدرس، انظر! ما هو الشيء الملتف على خصره؟)) كان خو الصغير اول من لاحظ بأن شيئا يحيط بخصر الموجه لي. و صَوَّبَ كل منّا نظره الى لي بأمل ان يكتشف ذلك. و كلما أخذا يقتربان اصبح لونه اكثر وضوحا. لقد كان اسود.

((ما هو ذلك الشيء الاسود؟ من المؤكد انه شيء يؤكل!)) قال هذا ما الصغير و هو يقفز مستبشرا.

لقد خارت قوانا من الجوع، فقد مرَّ يوم كامل لم نبتلع فيه لقمة واحدة. و كانت كل عين مصوبة الى الرجلين اللذين أخذا يزيدان من سرعتهما. و عندما إقتربا، إستطاع كل واحد ان يرى بوضوح بأن الشيء الذي يطوق خصر الموجه لي كان جلد حيوان.

((أيها الرفاق، طعام!)) أعلن لي ذلك و هو يركض منفعلا نحونا. ثم قال: ((ايها المدرس، جلد ثور، انه يؤكل!))

و شحب وجهه بشدة و اصبح بلون الشمع. و خارت قواه و سقط على الأرض مغمى عليه.

و أسرع المدرس السياسي ليرفعه. و إتكأ لي على المدرس السياسي و هو في حالة شبه إغماء. و فتح عينيه و قال: ((أيها المدرس، رأسي يدور. اريد ان اضطجع هنيهة.))

و إلتفت المدرس السياسي الى ما الصغير قائلا: ((ساعده في الذهاب الى الفراش.)) ثم أمر ((بتنظيف جلد الثور في الحال!)).

و ذهب الموجه لي الى الكهف و هو يستند الى ما الصغير. و بدأ الآخرون ينظفون جلد الثور.

و بوجود جلد الثور ارتفعت الروح المعنوية. و أخذ كل واحد يتلمسه و يتحسسه غير آبه بالشعر. و ذهب خو الصغير بشكل خاص ليزف للصاحب الكبير الأخبار الطيبة.

و كان يجب أن ينقع جلد الثور في الماء المغلي. و قد استغرق نتف الشعر نصف يوم بتمامه من جهود ثلاثين رجلا. و لكن الجميع كانوا سعداء. و قال البعض انها وليمة في يوم عيد و قال آخرون انه يوم ننقض فيه عهد النباتية.

و قُطِّعَ الجلد الى قطع صغيرة و وضع في القدر ليُسلَق. و قد امتلأ الكهف كله برائحة مثيرة للشهية حتى أخذ كل واحد يحس بأن جوعه قد إشتد.

و عند حلول الليل كان جلد الثور قد طُبِخَ جيدا، و كان فَرَجا عظيما للجميع. و قد قُرِّرَ بأن يُحتَفَظ بنصفه لكي لا يجوع احد في الغد. و أخذ كل واحد ملء طاسة. و كان طعمه لذيذا. و كان الجلد قد طُبِخَ اكثر مما يجب و اصبح كتلة دبقة. و قد جعل خو الصغير الجميع يضحكون من اعماق قلوبهم عندما وَضَعَ شيئا من هذه المادة الدبقة حول فمه و الصق بها شيئا من الشعر فبدا كعجوز صغير.

لقد كانت اطيب أكلة منذ امد طويل. ثم جاءت عقابيل هذه الأكلة! ان جلد ثور ليس كثيرا على اربعين شخصا لمدة يومين. و لكن قد مضى على الرجال شهران دون أن يذوقوا طعم الدهن و أصبحت معدهم لا تتحمل المواد الدسمة. و لهذا و لمدة ثلاثة ايام، بقيت معدهم في حالة تلبك و أُصيبَ البعض بالإسهال. و لكن لم يخطر على بال احد ان يلوم جلد الثور. و على العكس من ذلك فانهم كانوا يتلهفون على الحصول على جلد ثور آخر.

وفاة الصاحب الكبير

و لم نستطع ان نجد شيئا بعد جلد الثور. و مما زاد مصاعبنا ان الثلج استمر في التساقط و قد نزل الرفاق عدة مرات الى سفح الجبل و لكن دون جدوى. ثم لجأنا الى طريقة لتناسي الجوع و قد اثبت بانها ناجحة جدا. فعندما كان يحين وقت الطعام

كنّا نجتمع بشكل حلقة و نصغي لحديث عن معركة من معارك الحملة ((التطويقية)) الرابعة، او عن معركة حدثت قرب البحيرة، او الى نكتة او الى اغنية، و كان يبدو بان ذلك لا نهاية له، و في ذلك الحين كنا ننسى الجوع. و لكن ماذا يجب ان نفعل بشأن الجرحى؟ و كان اخطر شيء ان الملح قد فُقد. و كان القيح يتكون اكثر فاكثر حول فوهات الجروح. و لعدم وجود الطعام كان الامر يزداد سوء.

و من بين الجرحى كانت حالة الصاحب الكبير اشد خطورة. و قد كان دائما في حالة خبل، و انتج الجرح في رأسه الى حد كبير. و لم يكن يصدر عنه أي صوت اثناء النهار، و لكن في الليل، و عندما ينام الجميع من حوله، كان يتأوه قليلا. و لكن ماذا يمكن عمله؟ و كان الجو شديد البرودة و قد قام الشخص المكلف بخدمته بوضع ما تبقى من الدهن على فوطة و وضعها على جرحه، و قد حَسَّنَت من حالته قليلا. و كان الجميع يشعرون بالحزن عليه.

و في احدى الليالي و فيما انا ادخل في فراشي قال: ((ايها الشيخ بنغ، ارجوك ان تلف لي لفافة.)) فلففت واحدة و اشعلتها و اعطيتها له. و كانت اصابعه ترتجف بشدة ((كيف حالك الآن؟ يبدو انك ...))

((لا شيء! الجو بارد. اشعر بضعف شديد في اصابعي.)) و نطق هذه الكلمات بجهد كبير، و بصوت خافت جدا حتى كان علي ان اركز انتباهي لأستطيع سماع كلماته. و حثني على الذهاب الى الفراش. و بعد منتصف الليل سمعته يئن. و عندما نهضت و استعلمت عن الامر قال ليس هناك من شيء.

و طلع الفجر، و كان من عادة خو الصغير ان يمازح الصاحب الكبير. و الآن قال له كالمعتاد: ((ايها الصاحب الكبير! ايها الصاحب الكبير! انهض! لماذا ما تزال ملتفا بشرشفك (و لم يكن لدينا لحف).))

و لكن الصاحب الكبير لم يُجب.

((ايها الصاحب الكبير دعني اسحب عنك الشرشف!)) قال خو الصغير هذا و هو يسحب الشرشف.

((آه! يا قائد الفصيل!)) قال ذلك بصوت متألم. و تحول إليَّ و ضمني اليه قائلا: ((انه ميت!))

و انحدرت الدموع على خدي. و وقف الجميع من حوله صامتين. و حتى المدرس السياسي القوي الارادة ذرف الدموع. و قال و هو يمسح دموعه: ((ايها الرفاق، اكبتوا حزنكم. يجب ان ندرك لماذا مات الصاحب الكبير و كيف مات!))

و في صمت لف الرفاق الصاحب الكبير في شرشف و حملوه خارج الكهف. و كانت الريح تعصف بشدة، و الثلج يضرب وجوهنا و قد غطّى ثيابنا. و بالرغم من البرد القارس كان كل منا يحس بوهج في قلبه. و حمل الصاحب الكبير اربعة رفاق و ساروا في وجه العاصفة الثلجية و وراءهم كل من استطاع السير متكئين على عكازات او يستندون بعضهم بعضا. لقد جاءوا و الدموع في مآقيهم يلقون النظرة الأخيرة على رفيقهم في السلاح.

و ازحنا الثلج و حفرنا الأرض بأصابعنا. و لم ينطق احد بكلمة. و استَغرَقنا الأمر اكثر من ساعة لمواراته التراب. و على قطعة من الخشب وجدها المدرس السياسي بقربه حَفَرَ بسكينة هذه الكلمات: ((جندي مجيد)) و نصبها على قبر الصاحب الكبير.

ثم تحول الينا و قال: ((ايها الرفاق، يجب ان نحيا! يجب ان نخبر الجيل الجديد كيف مات الصاحب الكبير. يجب ان نجعل غضبنا يستمر في الاشتعال حتى يصبح بحرا من اللهب، بحرا كبيرا يلف و يلتهم خونة وطننا.))

و أصغى الجميع للمدرس السياسي بصمت و هم ينظرون الى البياض اللامتناهي الممتد امامنا.

نزلنا من الجبل

و لم نعد نستطيع العيش في جبال التنانين التسعة. و بعد بضعة ايام من وفاة الصاحب الكبير، انتقلنا الى جبال وو كونغ التي تبعد عشرات الكيلومترات، و نحن ندب على الثلج الكثيف و هناك دبرنا انفسنا لبعض الوقت بالخضروات البرية و لحاء الشجر و اغصان البامبو. و تعلمنا كيف نطبخ لحاء الشجر. و لكن المؤونة أخذت تنفذ. و حتى احزمة الجرحى قد أُلتُهِمَتْ كلها. و ماذا يجب ان نفعل؟ يجب ان نعيش!

و في صباح جميل في اوائل الربيع دعا المدرس السياسي الى اجتماع. و جلسنا قرب غابة و وجوهنا متجهة الى الشمس. و سأل المدرس السياسي: ((كيف تشعرون ايها الرفاق؟))

و تطلعنا الى بعضنا بعضا دون ان نفوه بكلمة. و بعد هنيهة قال احدنا: ((اوه، بخير!))

((بخير؟ لا! ان حياتنا قاسية، قاسية جدا. و لكن بدلا من الإعتراف بذلك نقول انها حسنة. لماذا؟))

و ساد الصمت. و كان يبدو ان ما من احد قادر على إعطاء جواب شاف على الفور. ثم نهض خو الصغير، و كان ما يزال معصبا و قال: ((لأننا نحن الجيش الأحمر!)) ((صحيح! صحيح! نحن الجيش الأحمر!)) قال المدرس السياسي و هو يرفع قبضته منفعلا و كانت الدموع تتساقط من مقلتيه.

و بعد هنيهة أُعلِنَ قرار فرع الحزب. و قال: ((نحن لا نستطيع البقاء هنا، يجب ان ننزل! لقد قرر فرع الحزب تنظيم قوة مسلحة. فلدينا ست بنادق و بها نستطيع فتح منطقة جديدة و ايجاد الدراهم لحل مشكلة الطعام و مقاتلة العدو.))

((حقا! سننزل!)) و تجاوبت في جنبات الوادي زمجرة راعدة. و نظمنا. و من اجل عدم عرقلة حركتنا، و من اجل أن يسير القتال بسهولة فقد قرر المدرس السياسي ان يترك الرفاق الذين جروحهم ليست بحالة حسنة ليتم شفاؤهم الى ان نُنَفِذ مهمتنا.

و ذرف الرفاق الدموع عند الفراق. و قد احسسنا بالحسرة على اولئك الذين تُركوا بدون طعام او دواء. و لكنهم لم يبكوا. و قالوا: ((سننتظركم!)) و كان الجميع منفعلين. و تذكر المدرس السياسي على حين غرة بأن هناك بعض الأحزمة فأعطاها للمصابين بجروح خطيرة و قال: ((احتفظوا بها لتأكلوها. و لكن عليكم ان تتذكروا بانه يجب ألا تأكلوا إلا عندما يكون ذلك ضروريا للغاية. و إنتَظِرونا و لا تيأسوا!))

و نزلنا نحن الثلاثون عضوا في الجيش الأحمر بقيادة المدرس السياسي الى سفوح الجبال. و بقوة روحنا الكفاحية الحازمة احرزنا الانتصار تلو الانتصار، و في النهاية احضرنا الرفاق الذين خلّفناهم وراءنا. و هكذا تحولنا من موظفي مستشفى و نزلائه الى فصيل احرز بسرعة – الفصيل الثالث من الكتيبة الاولى. و قد ازداد عددنا و توسع مجال عملنا في المعارك الموفقة و قمنا بأعمال حرب الأنصار لمدة ثلاثة اعوام في الجنوب و اصبحنا جزءا من طليعة الجيش الرابع الجديد.

ثلاثة اعوام من النضال المتواصل

بقلم بنغ شنغ بياو

اصعب الأيام

في تشرين الاول من عام ١٩٣٤، و بعد ان بدأ الجيش الأحمر بمسيرته الطويلة، هوجمت القاعدة الثورية في مقاطعة كيانغسي هجوما عنيفا من قبل القوات البيضاء. و بصفتي سكرتيرا لفرع الحزب في ناحية تاوكو و فيما بعد رئيسا لمجلس محافظة تشاو تشنغ، فقد أُمرتُ بأن أقود ما يزيد عن مائة رجل لمواصلة النضال في الخطوط الداخلية و ذلك لإشغال العدو و تأمين انسحاب قوتنا الرئيسية.

و نتيجة لانتصاراتنا في الحملات الاربع السابقة المضادة للتطويق، فقد كانت قواتنا تتمتع بروح معنوية عالية و قبل وصول العدو، كنا مرابطين في منبسط من الأرض مستعدين للمعركة. و من القيادة حتى الأفراد كنّا عازمين على سحق العدو عندما يصل.

و لكن في هذه المرة أخطأنا الحساب. و لم نكن نفهم خطورة الوضع. و قد قللنا من تقدير سوء وضعنا حيث كان العدو يفوقنا بنسبة عدة مئات الى واحد. و أكثر من ذلك، و بسبب نقص تجربتنا في حرب الأنصار فقد كانت آراؤنا يمكن اعتبارها آراء متهورة تماما.

و في صباح احد الأيام من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) جاءت التعليمات من فوق تخبرني بأن آخذ رجالي الى الجبال في الحال حيث ان العدو قد وصل الى مكان معين. و لكنني لم اقتنع. و قلت لنفسي: ((ما الذي نخشاه؟ فالعدو لديه بندقية مع كل جندي و نحن لا نحمل العصي! إننا سنقاتله اذا جاء!))

لم أكن على درجة كافية من اليقظة. و أرسلت كشافا و اخبرت الطاهي اني هيء الطعام، مفضلا ألا أتحرك إلا بعد تناول الطعام. و عاد الكشاف و هو يلوح بيده قائلا: ((كل شيء حسنّ!)) و ما كاد ينطق بذلك حتى بدأ الرصاص ينهمر من خلفه.

لقد خُدِعَ الكشاف. و عاد من طريق فرعي بينما جاء العدو من الطريق الرئيسي و وصل الى موقعنا في نفس الوقت تقريبا الذي وصل فيه الكشاف و الذي عمل بلا وعي منه كمرشد للعدو. امّا رجالنا، المجربون في المعارك، فقد اندفعوا الى خارج القرية حالما سمعوا ازيز الرصاص. و لمّا رأيت ان عدد العدو كبيرا قدت الرجال في الحال الى المنحدر. و لكن ما كدنا نعدو بضع خطوات حتى سلط العدو علينا نار مدافعه الرشاشة من الخلف. و قد استشهد احد عشر رفيقا – و هي خسارة كبيرة لقوة من قوات الانصار تزيد قليلا من مائة.

و منذ ذلك الحين اصبح العدو اشد وحشية. و قد سار في تلك المنطقة على أفظع سياسة سياسة ''الجميع الثلاث'' – اقتلوا الجميع، احرقوا الجميع، انهبوا الجميع. و كان العدو يُهَجِّر بالقوة جميع السكان الذين يقطنون في المنطقة الجبلية و ما جاورها و في سفوح الجبال، و يحرق البيوت و يأخُذ او يحرق جميع الحبوب التي خزناها هناك. و استعاد نظام باو – تشيا[٩] و قد ضرب حولنا طوقا بعد آخر. و بنى ابراج الحصون في كل مئة متر، و أخذ يراقب حركاتنا ليل نهار.

تلك أيام واجهنا فيها تجربة قاسية و كنّا نشرب من الماء الذي يسح من الجبال، و نأكل الاعشاب البرية و أغصان البامبو و نغير مكان إقامتنا عشر مرات كل يوم. و مع ذلك لم نستطع ان ننجو تماما من مطاردة العدو. و بشكل خاص عندما أخذ الثلج يهطل فقد استطاع العدو ان يتعقب آثار أقدامنا و أخذ يطاردنا حتى انهكنا.

ألتحق بنا الرفيق خو يونغ تشيا سكرتير فرع الحزب في محافظة جوتشن مع عشرات من الرجال، و الرفيق تشانغ كاي تشن مدير التجنيد و السلاح في مقاطعة

---

[٩]- نظام باو – تشيا هو نظام المسئولية الجماعية الذي فرضه الكومنتانغ على الشعب. فكل عشر عائلات تكوِّن تشيا و كل عشرة تشيا تكوِّن باو – المعرب.

فوكين مع عدة رجال. و قد امتزجت الدموع بالضحكات عندما التقينا. و قد انشأنا بصورة رسمية قيادة للأنصار الحمر، و كان الرفيق خو يونغ تشيا آمرا و كنت أنا مفوضا سياسيا. و جددنا قوانا و تهيأنا لمنازلة العدو.

و قد سرنا ليل نهار نقطع الجبال و الأحراش و كان هدفنا الوحيد ان نتجنب مطاردة العدو لنا.

لقد كنّا ذوي خبرة بالقتال، و لكن لم تكن لنا خبرة بالفرار، و أصبحت لنا الآن خبرة كافية. و كنّا كل يوم نتسلق الجبال. و كان يحدث احيانا ألا نأكل حبة واحدة من الأرز طيلة أيام عديدة. و عندما كسا الثلج سطح الأرض لم نستطع حتى ايجاد الخضروات البرية. و عندما كنّا نصل الى مكان لنأخذ قسطا من الراحة كان جنودنا المنهكون يستلقون على الأرض و يستسلمون في الحال للنوم. و مع انهم لم ينبسوا بكلمة واحدة تعبر عن الشكوى إلا انهم عبروا عن استيائهم من نوع الحياة التي يحيونها. و قد عبروا عن مشاعرهم للملاك: ((نحن لسنا عديمي الخبرة في المعارك. لقد قاتلنا لمدة ثلاثة او اربعة اعوام و لم يمس العدو شعرة فينا. ((كم من الوقت سنظل في حالة الهرب؟)) ((إن الجيش الأحمر لم يسبق له أن عانى مثل هذه الإهانة؟))

بهذه العبارات كان المقاتلون يعبرون عن استنكارهم. و قد أحسست بأن هناك شيئا ما فيما يقولونه. إن أي شعور باليأس غير ذي موضوع في ذلك الوقت. و لكن هل نستطيع الاستمرار فيما نحن فيه؟ و لم يكن شعور الرفيق خو يونغ تشيا بأفضل من شعور الآخرين. و بدا وجهه النحيل أطول مما كان. و كانت عيناه الذكيتان غارقتين في وجهه و لم يكن صوته قويا كما كان من قبل. و لم يستطع ان يفكر في مخرج.

و عصر احد الأيام وصلنا الى مكان طلبا للراحة. و بعد ان عين الحرس، استسلم الرجال للنوم كما هي العادة. و كنت ناعسا ايضا. و لكن منظر الرفاق الذين استسلموا جميعهم لنوم عميق قد بعث فيَّ شعور الغمة. و لم تبق لدي أية رغبة في

الغفوة. و جُلتُ في الحرش لأرى المئتي رفيق. و كانوا جميعا طويلي الشعر و بعضهم طالت لحاهم. و ذَهَبَت من وجوه الشباب سيماء النضارة. ان نقص التغذية قد حول شفاههم الى جلد جاف – و كانت الشفاه اذا ما تحركت سالت منها خيوط الدم. و معظم هؤلاء المقاتلين قد انضموا الى الجيش الأحمر في منطقة القاعدة اثناء نضالهم ضد الإقطاعيين من أجل إعادة توزيع الأرض. و البعض منهم كان قد أُرغِمَ على الدخول في الخدمة العسكرية من قبل القوات البيضاء و فيما بعد حررهم الجيش الأحمر و إنضموا الى صفوفنا بعد تثقيفهم. لقد جُرِّبوا في المعارك. و هناك بعض الحالات الفردية التي جاء فيها البعض بغرض حماية بيوتهم و أراضيهم خلال الحملة الأخيرة المعاكسة للتطويق. هؤلاء جميعا كانوا مصادر الثورة فما الذي يجب عمله للحفاظ على هذه القوة من أجل معركة الغد؟

و بقيت أُفكر، و طرأت لي فكرة: ((مائتا رفيق ... هل من الصحيح ان مائتي رجل لا يستطيعون التفكير في مخرج؟)) و قد انفعلت لهذه الفكرة الجديدة. و ذهبت في الحال لأرى خو يونغ تشيا.

و قلت له: ((لاو خو لقد وجدت مخرجا!))

فدهش لذلك و سألني عمّا هو.

((علينا أن نمارس الديموقراطية، فلندع كل شخص يشترك في مناقشة حول ما يجب علينا عمله!))

((حسنا!)) قال خو موافقا بعد أن فكر هنيهة. ثم وضع يده على رأسه و قال بلهجة التأنيب: ((من الغريب اننا نسينا الديموقراطية!))

و في احدى الشعاب الجبلية دُعونا الى اجتماع لقوة الأنصار كلها. و وضعنا جميع الأوراق على المائدة و بدأنا مناقشة حرة. و في البداية كان كل واحد ينظر الى الآخر دون أن يقدم أي اقتراح. و لكن ما أن بدأ الجرس يقرع حتى قُدِّمَت آراء كثيرة. و قد انتهى النقاش الطويل الى استنتاجات بُحِثَت جيدا.

و قد قرر الاجتماع الجماهيري في الختام مقاومة التدابير المتهورة من جهة و مقاومة الفرار من جهة اخرى. و قد قررنا انه من اجل تجنب العدو، علينا، اولا تضليله باتخاذنا عدة طرق في كل مرة نبدأ فيها السير، و تعيين ثلاثة اماكن للإلتقاء فيها. و في حالة نزول الثلج يقوم بعض الرفاق بتشويه آثار الاقدام و يعودون من طرق مختلفة. و علينا أن نوفر قوانا و نبذل أقصى الجهود للحفاظ على صلاتنا بالشعب و توسيع قواعدنا طبقا للظروف الراهنة.

و كانت حصيلة ذلك في غاية الأهمية. فقد مكنتنا من تجنب كثير من الرحلات المضنية. و بالحكمة الجماعية سجل مقاتلونا نجاحا بعد آخر. و لمّا كان من الصعب على العدو ان يجدنا في الوقت المعين فكنّا نقيم السقائف على قمم الجبال. و حتى عندما يجدها العدو و يحرقها كنّا نقيم سقائف جديدة بعد بضعة أيام. لقد كنّا نستطيع الإقامة في كل مكان و نستمتع براحة أكثر. و قد توفر لدينا مزيد من الوقت للدراسة و التمرين في ساحة فتحناها بأنفسنا. و من أجل تسلية أنفسهم صنع رجالنا الماه جونغ و بيادق الشطرنج من البامبو و الخشب. و قد ارتفعت روحهم المعنوية مع مرور الأيام. و بالرغم من المصاعب التي كنّا نجدها في اتصالنا بالشعب و للحصول على الطعام الكافي، فقد جعلنا من العسير على العدو أن يتدبر أمرنا.

التنين يعود الى البحر

إن العدو الهمجي يحمل في كيانه ضعفا فطريا. فلديه نواقص و اخطاء لم يستطع ابدا التغلب عليها: اولا، ليس لديه كفاية من الرجال للقيام بعملين في نفس الوقت – مطاردة الجيش الأحمر و مسح منطقة القاعدة. ثانيا، لا يمكنه ابدا ان يفهم الخُلق السياسي السامي للجنود الحمر، ذلك هو السبب في انه يستخف دائما بقوتنا. ففي صيف ١٩٣٥ بنى ابراج الحصون في كل مكان، و نظَّمَ او استعاد كتائب الحفاظ على السلم و كتائب أقوياء الاجسام، و نظام باو تشيا. و قد اعتقد بانه قد وضعنا في موضع لا نجاة منه و إننا سنموت في الجبال. و لهذا سحب قوته الرئيسية (فيما بعد

علمنا بانسحاب قوة العدو الرئيسية التي أرسِلت لمطاردة الجيش الأحمر المركزي) تاركا بعض الكتائب الخاصة تحت قيادة وانغ تساي تي لتدبر أمرنا.

و عندما وصلتنا هذه الأنباء سررنا و مع ذلك اصبنا بخيبة أمل. لقد اقترف العدو جرائم لا تحصى و لنا في عنقه دين كبير من الدماء و لكنه قد ذهب الآن قبل ان نجعله يدفع الدين. و لكننا كنّا سعداء لأننا استطعنا أخيرا ان نخرج من طوق العدو، و اصبحنا أحرارا في الذهاب الى أي مكان و النضال مع الشعب مرة اخرى. لقد كنّا كالتنين الذي يخرج من الماء او كالنمر الذي يهيم في الجبال.

((الانتقام! الانتقام!))

في قلب كل جندي أحمر كان يتأجج لهيب الانتقام. و معظمهم جاءوا من محافظتي جوتشن و تشاو تشنغ. و عندما عادت القوات البيضاء عاد معها الإقطاعيون و الأغنياء. و اصبح بعضهم رؤساء للمراكز القروية و آخرون أصبحوا رؤساء للباو. و أخذوا يذبحون الناس و كأنهم يقرمون أعواد القنب، و لم يوفروا حتى الأطفال. و طالبوا الفلاحين بتسوية الحسابات القديمة و عادوا يبتزون ثانية إيجارات الأرض. محولين بذلك القاعدة الثورية الى جحيم حقيقي. و جنودنا المائتان، و كل منهم يحمل حقدا عميقا، اخذوا يهتفون بصوت واحد ((الانتقام!))

و قد بحثنا مليا كيف نحقق نجاحنا الأول. و قد اخترنا مكتب كوتشو (للباو المشترك) هدفا لنا، لسببين: اولا، ان رئيسه الكراكوزي كان خائنا. و قد خان منظمتنا السرية بعد استسلامه للعدو. و اقترف كثيرا من الجرائم التي أكسبته حقد الشعب العميق، و ثانيا لأن كوتشو كانت على بعد اثنين الى ثلاثة كيلومترات من كوتشنغ، و الاستيلاء عليها سيكون ذا اثر كبير في إخماد حماس أعداء الثورة.

و في ليلة قمراء وصلنا الى ضواحي كوتشو. و كان الوقت اذ ذاك ((سلاما شاملا)) للعدو الذي لم يتصور ابدا بائنا يمكن أن نأتي. و كان الحرس يُسحَبون بعد منتصف الليل. و في الحقيقة فان آخر حارس في النوبة قد عمل بغير ارادة منه

كدليل لنا. فقد تبعناه، و سرنا حول أبراج الحصون و دخلنا الباو المشترك. و قد استحوذنا اولا على الأسلحة. هتفنا ثم جررنا خارجا عشرة من الموظفين الدمى. و أخذوا يركعون و بعضهم أخذوا يرتجفون عندما رأوني، ثم أخذوا يسجدون المرة تلو الاخرى و يتوسلون كي نوفرهم. و قد ثار حقدي عندما رأيت الرئيس الدمية في مقدمة المتوسلين. فأطلقت عليه الرصاص و مات على الفور. أمّا الآخرون فقد اخبرهم بأن ينهضوا و تحدثنا اليهم ثم ابعدناهم بسرعة. و عندما غادرنا ذلك المكتب لم يجرؤ المرابط في الحصن القائم على الجبل لم يجرؤ على الحركة.

فقد فزع الخونة. و انتشر النبأ انتشار النار في الهشيم، و قد ابهج قلوب الناس في منطقة القاعدة. و أخذت التقارير تتدفق على كل مكان – ((لقد عاد الجيش الأحمر!)) و جريا على قاعدة اضرب حديدا حاميا، قمنا بغارات اخرى على مكاتب الباو المشتركة. و قد رفع نجاحنا من معنوياتنا. و بعض أفراد الحزب الذين فقدوا صلاتهم استعادوا اتصالهم بنا و قد اتسع مجال نشاطاتنا و أصبحت منطقة القاعدة تحت سيطرتنا مرة أخرى.

و مع ذلك فان الامور لم تسر بيسر.

و عادت القوة الرئيسية من القوات البيضاء و تراجعنا الى الجبال. و بعد ايام غادرنا المكان فنزلنا مرة اخرى. و لكن عندما وصلنا الى احدى القرى أخذ الناس يهربون منا. و حدث الشيء نفسه عندما دخلنا قرية اخرى. لقد كان هذا غريبا في الحقيقة! فما هي المسألة؟

و وجدنا السبب. لقد لجأت القوات البيضاء هذه المرة الى الخديعة. ففي كل مكان ذهبت اليه كانت تختفي، و تعلن بانها الجيش الأحمر في طريقه لمقاتلة الإقطاعيين. و ناشدت الناس ان يعملوا كمرشدين، ثم تقوم بقتل من يلبي النداء بالحراب او بالرصاص. و هناك رجل عجوز في الستين من عمره، معروف بانه اعمى و أصم، عمل كمرشد، فحُكِمَ عليه بالسجن خمسة عشر عاما. و قد استخدم العدو عناصر

خائنة لنشر الشائعات مثل: ((لقد تغير الجيش الأحمر!)) ((الجيش الأحمر يقتل الناس بلا شفقة!)) و ما الى ذلك من اجل عزلنا عن الشعب.

و قد جعلنا هذا نرى بوضوح اكثر أهمية العمل بين الجماهير. فعندما خرجنا في المرة الاولى من الجبال، كانت نفوسنا مليئة تماما بالرغبة في الانتقام. و لم نوجه انتباها كافيا للعمل بين الشعب. و الآن فإن العدو يستغل إهمالنا. ثم بحثنا عمل تحطيم سلطة جيانغ كاي تشك السياسية على المستوى القاعدي. و فتشنا عن رئيس كراكوزي لباو مشترك و الذي يكون نسبيا متنورا و لم يكن من السهل إيجاد مثل هذا الشخص. و بعد تأمل و بحث طويلين وقع اختيارنا على شخص يدعى وانغ كو لاو و كان في السابق رئيسا لمجلس مركزي قروي في منطقة القاعدة و الذي لم يقترف جرائم خطيرة بعد استسلامه للعدو، و الذي هو بسبب هذا غير مكروه بشدة من الشعب. و امسكنا به و جعلناه يوافق على خمسة شروط: (١) تزويد الجيش الأحمر بالأنباء السرية حالما يحصل عليها، (٢) ألا يخبر الكومنتانغ عن الجيش الأحمر إلا بعد مغادرته و ليس عند قدومه، (٣) ألا يضطهد الشعب، (٤) أن يصون عائلات الجنود الحمر، (٥) أن يساعد الجيش الأحمر على شراء الذخائر و العلاجات و الأنوار الكشافة. و قد أُطلق سراحه عندما وافق على تنفيذ هذه الشروط.

إن مثل هذه الاتفاقية اكثر فعالية من إبادة سرية للعدو. و قد عُمِمَت بسرعة في مناطق اخرى. و بعد بضعة اشهر، لم يتجمع حولنا الشعب ككل فحسب بل كثير من مكاتب الباو المشتركة الكراكوزية أخذت المبادرة في الاتصال بنا، و بعض رؤساء الباو المشتركة الكراكوزيون اصبحوا عملاء استخبارات و كانت لنا بهم ثقة مطلقة.

و في ذلك الحين اصبحنا حقيقة احرارا كالتنين في البحر. و عندما عادت القوات البيضاء بأعداد كبيرة، صعدنا الى الجبال و عشنا في سقائف حسنة البناء، و كنّا نُمضي النهار في التدريب و الدراسة، و لِعب الشطرنج و الماه جونغ بأدوات صنعناها نحن، و كنّا نمضي المساء بالغناء ورواية القصص و نحن متحلقون حول نار المخيم. و عندما غادر العدو القرى نزلنا اليها. و عندما كانت تلوح لنا الفرص

كنّا نقوم بغارات على مكاتب الباو المشتركة الكراكوزية و نوسع منطقة الأنصار. و كان الشعب يقدم لنا المساعدة المادية و انضَمَّ الكثيرون الى الجيش الأحمر. و في ربيع عام ١٩٣٧ تعاظمت قوتنا و أصبحت أكثر من سبعمائة مقاتل منظمين في ثماني سرايا.

وصول مندوب الحزب

كان ذلك في تموز آب عام ١٩٣٧.

كان جيشنا يتعاظم في غمرة النضال الدامي، و لكننا لم ننقطع لحظة واحدة عن التفكير بالحزب، تماما كالطفل الذي لا ينسى أُمَهُ مطلقا مهما كانت بعيدة عنه. إن الحزب ما يزال حيا و لم يكن لدينا أدنى شك حول ذلك. و هذا هو السبب في اننا استطعنا مواصلة نضالنا بجهد أعظم. و لكن أين الحزب؟ و متى نستطيع الاتصال بالحزب؟

و صدفة – و قد نسيت التأريج – قرأنا في صحيفة قديمة ممزقة عن نبأ المفاوضات من أجل السلم بين الشيوعيين و الكومنتانغ. و فيما بعد قرأنا عن التعاون بين الكومنتانغ و الشيوعيين من اجل مقاومة اليابان. و لكن في ذلك الحين بالضبط هاجمتنا قوات الكومنتانغ بقيادة وانغ تساي تي و شددت علينا الحصار. و منذ زمن و نحن نريد القتال ضد المعتدين اليابانيين، و لكن في الظروف الراهنة لم نكن نعتقد بإمكانية التعاون مع الكومنتانغ. و مع ذلك فقد وضعنا ثقتنا في لجنة الحزب المركزية (التي تذكر صحيفة الكومنتانغ مكانها). و لكن حتى ذلك الوقت الذي سنتلقى فيه التعليمات من اللجنة المركزية، فإننا نستطيع الاستمرار، و حتى بجهد أعظم، لتوسيع مناطق قواعدنا.

إن عددنا المحدود و عجز قوات الكومنتانغ عن ايقافنا في جميع الأماكن قد أنهك هذه القوات في النهاية. و في تشرين الأول أُعلِمنا بأن وانغ تساي تي قد ارسل رجالا للتفاوض معنا.

ولمّا كنّا لم نتلق بعد تعليمات اللجنة المركزية فلم نكن نرغب باديء الأمر في أن نبدأ بالمفاوضات، و لم نكن نعتقد بأن المفاوضات يمكن أن تؤدي الى أية نتيجة. و لكن لأننا كنّا نأمل أن نعرف من الكومنتانغ مقر اللجنة المركزية فقد وافقنا. و قد عينّا المكان الذي ستجري فيه المفاوضات.

و كإجراء احتياطي، خبأنا رجالنا خلف الجبل و وضعنا حرسا في كل مكان. و انتظرنا وصول ممثلي القوات البيضاء.

و في صباح مشرق، رأينا رجلين نحيلين يرتديان القنابيز و يحرسان رجلا آخرا يحمل سلتين على عصا و هما يصعدان الجبل. و كان في السلتين خمر و سجاير و فستق – مواد لتساعد على المفاوضات!

و عندما وصلوا أخذَت عيونهم الشريرة تتطلع هنا و هناك و سألوا و على وجوههم ابتسامات صفراء: ((من هو الآمر خو و من هو المفوض السياسي بنغ؟))

و أجاب احد الرفاق على الفور: ((انهما ليسا هنا، و اذا كان لديكم أي شيء تريدون قوله فيمكنكم أن تبدأوا. إننا نمثلهما.))

و قدم احد الرجلين النحيلين نفسه قائلا: ((إسمي كذا و كذا. إننا مرسلون من قبل الآمر وانغ.)) و مضى قائلا: ((الآن و حيث ان الكومنتانغ و الشيوعيين يتعاونون لمقاومة اليابان، فان رأي الآمر وانغ هو اننا يجب أن نحدد المناطق الخاصة و على كل منّا ألا يهاجِم الآخر.))

و قلت لنفسي: ((حقير! انهم يريدون تطويقنا في حلقة و القضاء علينا قبل أن نتصل بحزبنا.))

و ألقيت نظرة على رفيقي الذي هزَّ رأسه. و نظر حتى انتهى الرجل النحيل من كلامه ثم بدأ يجيبه ببطء: ((هذا يبدو حسنا. و لكننا لم نتسلم بعد أية تعليمات و نحن لا نثق بكم. و اذا كنتم تستطيعون إعلامنا أين لجنة حزبنا المركزية و تقديم بعض الدلائل الوثائقية حينئذ سنصدقكم.))

و قد أزعجته هذه الكلمات. و لكنه تظاهر بالابتسام و أجاب: ((أنا لست في وضع لأعرف ذلك. لقد أمرت من قبل الآمر وانغ بالمجيء للتفاوض. و الآن فإن اليابان قد غزت شمالي الصين. و يجب اعتبار شئون الدولة بانها هامة. يجب أن نقاوم اليابان معا. و هكذا ...))

و لهذا الشخص من طول البال ما يستطيع به الاستمرار في الكلام. و لا عجب فقد اختاره وانغ تساي تي للقيام بهذه المهمة. و لكن يبدو بانه لا أمل في الحصول منه على أية معلومات عن مكان مقر لجنة الحزب المركزية.

و قلت له: ((حسنا، استمر.))

و لمّا احسَّ برغبتي في أن يواصل الكلام ظن بأننا قد خُدِعنا فأخذ يغير لهجته. حتى أصبح متعجرفا نوعا ما. و بكلمات قليلة عيّنَ لنا مركزين قرويين فقط و هذا ما توقعناه.

و عندما انتهى من قوله نهض ممثلنا و صاح غاضبا: ((انتم تريدون تقييد أرجلنا ليسهل عليكم اكثر إبادتنا!))

و انعقد لسانه لهذا الانفجار الفجائي. و بقى صامتا لبرهة طويلة لا يدري ماذا يفعل. ثم قال: ((هذا رأي الآمر وانغ، هذا رأي ...)) و زالت عجرفته تماما. و بعد توقف أضاف قائلا: ((ما هو اقتراحكم؟))

و قال ممثلنا بثقة تامة: ((نصدر بيانا و لنا مطلب. أولا، إن المنطقة الممتدة ما بين جوتشن و تشاو تشنغ هي لنا، و لا يُسمَح بدخول جندي ابيض واحد الى تلك المنطقة؛ و ثانيا، نطلب بأن يدخل رجالنا بحرية مدينة جوتشن بدون تدخل من جانبكم تحت أية حجة.))

و قد دلت ملامح الرجلين على انهما قد أُحرجا. فقلت على الفور: ((نحن نعلم بأنكما لا تستطيعان اتخاذ قرار. فعودا و أخبرا آمركم وانغ. فاذا وافق فإننا سنتعاون و إلا فإننا سنتخذ سبلا مغايرة.))

و لمّا رأيت بان كليهما قد أظهرا عدم الميل في الذهاب مضيت قائلا: ((لقد انتهت محادثاتنا اليوم الى هذا الحد. و في أي وقت يوافق آمركم يمكنكم المجيء ثانية.))

و انتهت ''المفاوضات''. و نظر الرجلان الى بعضهما البعض و لم يستطيعا التفوه بشيء. و القيا نظرة تجاه المنحدر و ابتسما ببرود كما فعلا عندما وصلا. ثم قالا: ((سنطلب تعليمات من الآمر وانغ.))

و ترددا كأنهما لم يقررا فيما اذا كان عليهما ترك سلتي الخمر و السجاير الخ. و أحسستُ بالرغبة في الضحك. و لوحت بيدي و كان الانصراف. و كل ما استطاعا فعله أن قالا: ((سنجيء ثانية، سنجيء ثانية.)) و أخبرا الحمّال بأن يحمل ''الهدايا'' و ذهبا مع مفاوضاتهما! و لم يجيئا ثانية ابدا.

و منذ ذلك الحين ارتفعت ثقتنا بالنصر. و مع اننا لم نكن نعلم بعد أين هي لجنة الحزب المركزية فقد احسسنا بوضوح بقوة الحزب المتزايدة الذي كان يناضل في مكان جديد و يرغم الكومنتانغ على الجلوس للتفاوض من أجل مقاومة اليابان معا. و في كل يوم و كل ساعة كان يبدو باننا نسمع أوامره: لا رأفة مع العدو، قاتلوه بتصميم لإرغامه على التحول الى مهاجمة المعتدين اليابانيين. و بناء عليه قمنا بهجمات حققنا فيها انتصارات متلاحقة. و في اكثر من شهر بقليل اصبحت تحت سيطرتنا منطقة تمتد خمسين كيلومترا بين جوتشن و تشانغ تنغ.

و ذعر العدو. و لمّا اصبح الوضع اكثر في غير مصلحته اسرع يحمل ''الاتهامات'' ضدنا الى الرفيقين شيانغ ينغ و تشن يي اللذين كانا يواصلان النضال في منطقة القاعدة الثورية في جنوبي كيانغسي. و يجب علينا في الحقيقة أن نشكر العدو لذلك. فحينئذ فقط وجدنا الحزب و أعدنا اتصالنا به.

و في صباح يوم في اواخر تشرين الثاني تتالت علينا الأنباء بسرعة – الرفيقان شيانغ ينغ و تشن يي أرسلا الرفيق تشن بي شيين الى منطقتنا الجبلية. و وصل الرفيق و أرشده الناس الى المكان الذي كنّا نرابط فيه. و عندما صافحنا مندوب

الحزب أحسسنا بحرارة و رعشة شديدتين لم نحس بهما من قبل أبدا. إننا لم نسفك دمنا عبثا في السنوات الثلاث المنصرمة. – لقد كان نضالنا جزءا من نضال الحزب كله. و الآن أحسسنا بعمق اكثر بتعاظم قوتنا.

و أنتشر الخبر المثير بسرعة بين قواتنا. و جاء الجميع الى مقر القيادة لتحية مندوب الحزب و معرفة آخر الأنباء. و عندما قرأ الرفيق تشن بي شيين بيان الحزب الصادر في الأول من آب، و نقل لنا تعليمات الحزب و أعلمنا بأن لجنة الحزب المركزية و الرئيس ماو تسي تونغ في يينآن أخذ رجالنا يهتفون و يضحكون و يقفزون و يذرفون دموع الفرح. و تطلعنا الى الجهة الشمالية الغربية و أخذنا نهتف مبتهجين.

النقاهة في الهواء الطلق

بقلم المقدَّم ليو تي

في صيف عام ١٩٣٤ كنّا نقاتل حول محافظة خوانغ آن في مقاطعة هوبيه و كنّا نسير في كل يوم، و نغير مواقعنا في كل يوم، قد تسلقنا الجبال و خضنا الانهار و كانت ثيابنا تتبلل ثم تجف ثم تتبلل مرة اخرى. و اصبت بمرض البري بري. و انتفخت قدماي لدرجة انني لم اعد استطيع نزع حذائي. و لم ابُح بذلك لأحد اذ كنت اخشى بأن يطلب اليَّ الرفاق ان اتخلف طلبا للراحة اذا اكتشفوا كم كانت حالتي سيئة. و لهذا تحملت الآلام و تابعت السير مع الجيش. انني افضل الموت على ان اترك النضال الثوري. يا للأسف! بعد يومين او ثلاثة اصبحت قدماي اشد سوء، و انتفخت اصابع قدمي و التصقت معا، و كان الألم المحرق مبرحا. و كانت تنتابني الحمّى و الرعشة. و لم تكن ليَّ رغبة في طعام او شراب.

و أخيرا علم رفاقي بحالتي. و كنت اذ ذاك في السابعة عشرة من العمر. و كانوا جميعا يحبونني و يعاملونني كأخ صغير.

و لمّا عُرِفَ أمر مرضي أخذ كل من في السرية يأتي لرؤيتي عندما ينتهي من عمله. و قد سعوا بكل الوسائل لتخفيف آلامي، و لو كان بالإمكان ان يقتسموا تلك الآلام لفعلوا بالتأكيد ليمكنوني من السير و القتال معهم.

و تطوَّر مرض البري بري. و جاء يوم أحسست فيه بانني قد فقدت نصف جسمي و لم اعد استطيع الوقوف. و قرر القادة أن يتركونني في المؤخرة لأستريح و أشفى. و أحسست كأن سيخا من الجليد قد طعنني في قلبي. كيف استطيع ان اترك النضال الثوري للحظة واحدة؟ و بكيت، و لكن بكائي كان في أعماقي لأنني كنت اعلم بأنه في وقت الشدة فان ذرف الدموع هو علامة على الضعف و قدَّم ليَّ مدرب الجيش و قائد الفصيل و جميع الرفاق الآخرين قدموا ليَّ نصائحهم الودية. و كان عليَّ أن أتخلف.

في ذلك المساء بالذات أُرسلت الى بيت أحد القرويين. و قد استقبلني رجل طويل متقدِّم في السن له لحية أصبح نصفها ابيضا و النصف الآخر أشهبا. و حالما رآني تلمسني برفق قائلا: ((ما تزال فتى!)) و قد جعلني محياه اللطيف و صوته الناعم احس بأنه عم طيب.

و في ذلك الوقت الذي كان يجري فيه نضال مرير، كان من المستحيل اخفاء مقاتل أحمر في قرية. و قد بحث ''العم'' مختلف الطرق و قرر نهائيا إخفائي في منطقة حرشية خارج القرية، حيث المكان اكثر أمانا و إن كان بالطبع أقل راحة.

و في آخر الليل أخذني خارج القرية. و قطعنا حقلا و خضنا نهرا و توقفنا في حرش من أشجار الخروب يبعد نحو كيلومترا. و قال: ((هنا ستبقى.)) و لم يكن الحرش كبيرا و لكن الأشجار كانت عالية كثيفة الأوراق. و وجد العم قطعة من الأرض المستوية و أخبرني أن أجلس هناك. و سألني: ((هل أنت خائف؟)) فأجبته: ((لا أخاف من شيء. المكان هنا بارد نوعا و هو جيد في الصيف.)) و في الظلام رأيت عضلات وجه العم ترتعش و يبدو انه قد سر بما قلته.

و بصراحة متناهية حدثني العم عن نفسه: لقد كان اجيرا في بيت رئيس باو كراكوزي في القرية و لم يكن شيوعيا و لكنه فهم الجيش الأحمر و أحب الجيش الأحمر. و سيبذل قصارى جهده لجمايتي و مساعدتي على أن تتحسن صحتي. و قد عبرت عن تقديري بهز رأسي مرة بعد الاخرى.

و قبل أن يتركني تحدث إليَّ بجدية تامة و قال: ((لاحظ ثلاث نقاط في الضبط الذاتي. لا تنهض و لا تتجول أثناء النهار و لا تخرج من الحرش أبدا، لا تنصب أي ستار او تنشر ثيابك بقصد تجفيفها، و لا تسعل بصوت عال و لا تغير مكانك كيفما اتفق.))

و أخبرني بأن اجعل نهاري ليلا و ليلي نهارا، أي أن أنام نهارا و أستيقظ ليلا. و قال لي بأن الوحوش البرية تحوم في الحرش ليلا.

لقد جعلني تحذيره أن أتحقق بأنني استشفي لا تحت أنف العدو فحسب بل تحت انوف الوحوش البرية.

و في الليلة الأولى لم يغمض ليَّ جفن. و قد احتشد دماغي بشتى الأفكار. و كنت أكثر ما أُفكر بالرفاق – بكل رفيق في السرية. و أخذت أُفكر بالذخيرة الاحتياطية للرشاش الذي كنت احمله دائما. و كنت دائم التفكير بقولنا – كم من المسافة قطعت حتى الآن، و من ثم أتلمس قدمي فأغدو أشد قلقا و تمنيت لو أستطيع الشفاء في الحال.

و حول هذه المنطقة كان الكومنتانغ يركضون مسعورين. و كنت أسمع ليلا و نهارا أصوات الرمي و صراخ النساء و الأطفال. و في كل يوم كان العم يخاطر بحياته ليحمل لي الطعام و عادة ثلاث وجبات. و حتى عندما خلق الكومنتانغ الاضطراب في القرية استمر يحمل لي وجبتين من الطعام. و كان يستخدم كل انواع الذرائع لتبرير وجوده خارج القرية: لقد كان يحمل سلالا و هو في طريقه الى العمل، و كان يلتقط روث الحيوانات – و ما الى ذلك.

و لم يكن يأبه لقساوة الطقس. و من اجل تجنب الاشتباه به كان يسير في طريق معوجة لتسليم الطعام لي. و كان و جودي مع العم أسعد اللحظات. و كُنت أفضل الحديث معه على الطعام. و كان هو ايضا يسألني عن هذا و عن ذاك. و كان احيانا يتحين الفرص ليزورني ليلا. و لكنه لم يكن يمكث في كل مرة اكثر من عشر دقائق و ذلك لئلا يثير الشبهة و كان يأتي مسرعا و يذهب مسرعا. و في الأيام الأولى كان يخبرني بما تجمع لديه من الأخبار القليلة عن الجيش الأحمر. و فيما بعد و عندما لاحظ بأنني لا أهتم حتى بأكلي عندما افكر بالجيش الأحمر توقف عن اعلامي بأي شيء.

و مرة ألححت عليه قائلا بأنني لن آكل حتى يخبرني و تحول العم اللطيف على حين غرة الى شديد القسوة، و خاطبني بصورة جدية قائلا: ((إن واجبك الآن هو الاستراحة و الحصول على الشفاء. و لا يُسمَح لك بإلقاء الأسئلة!)) و منذ ذلك

الحين لم أعد أسأله عن الجيش الأحمر. و غيَّرَ العم موضوع حديثه الى الفظائع التي يرتكبها الكومنتانغ. و كان يعض على شفتيه من الغيظ، و عيناه تغرورقان بالدموع عندما يقص عليَّ بعض القصص الرهيبة. و كان في الواقع يمنعني من القلق على الجيش الأحمر، و يملأني سخطا على الكومنتانغ و بذلك يمكنني أن أُشفى بأسرع وقت ممكن لأساهم في الانتقام للشعب.

ثلاثون يوما و ثلاثون ليلة! ما أصعب احتمال ذلك! فأثناء النهار كان عليَّ أن أراعي نقاط الضبط الثلاث التي اخبرني بها العم. فكنت أضطجع طيلة النهار على العشب الرطب متكِئا على قطعة حجر. و أصبح رأسي يؤلمني و عضلاتي أصابها الخدر. و كان عليَّ ألا أنهض او أتجول. و اذا أردت قضاء حاجة كان عليّ ان اتطلع حوليَّ اولا. و في الليل كان عليَّ ان احتذر من الحيوانات البرية و اكافح البعوض. و اذا لم يهطل المطر كنت اجد بعض المتعة في مراقبة الفراشات و الإصغاء لزرقة العصافير أثناء النهار، و أثناء الليل أتنزه قرب الجداول المنسابة و أعد النجوم. و اذا ما أمطرت السماء كان عليَّ أن أتحمل كل أنواع المزعجات. فكانت ثيابي تتبلل و تلتصق بجسدي. و اذا هطلت السماء مدرارا أغدو منقوعا في الماء. و كان جسدي كله يحس بالألم أولا ثم يصيبه الخدر. و عندما تشرق الشمس و يجف جلدي كنت احس بألم محرق كأنَّ هناك سكينا يقطعني. و في احدى المرات استمر المطر يهطل عدة أيام حتى أصبَحتُ ابيض بالمعنى الحرفي للكلمة. و أصبحت قدماي كالزلابيه – و كان يبدو اذا ما مسَّتا كأنهما تنقطعان شقفة اثر شقفة و كانتا في حالة من السوء لدرجة إن الألم كان يجعل جسدي كله يرتجف.

و عندما بدأت حرارة الطقس في الارتفاع أخذ البعوض يتجمع بأعداد اكبر. و قبل أن يحل الظلام يبدأ بمهاجمتي – و يدخل في أنفي و أذني و بين شعري. و كنت استطيع ان اسحق دزينة منه بكف يدي. و أخذت استخدم سلاحي الوحيد – قطعة من القماش طولها ستة أقدام. و لم أكُن اوجه ضربتي في الحال بل انتظره حتى

يتجمع، ثم اهاجمه على حين غرة بقطعة القماش. و كانت حصيلة خططي في نصب الكمائن عددا لا يحصى من جثث ''الأعداء'' اجدها حولي في صباح اليوم التالي.

و كان عليَّ أن أتدبر أمر الوحوش البرية أيضا. اذ كانت تخرج عند حلول الظلام و كان عواؤها يبعث القشعريرة في جسدي. و كنت أُحِسُّ بالقلق الشديد أول الأمر، و لكن بعد بضعة أيام اعتدت على ذلك. و شيئا فشيا اصبح تامرا ملازما لحياتي في الليل – إن عواءها يمزق سكون الليل و يخفف من شعوري بالوحدة. و في كثير من الأحيان كانت تقترب من مكاني – تعدو و تطارد بعضها البعض و تتقاتل من أجل الطعام. و في مثل تلك اللحظة، كنت اثير دهشتها بالتلويح بقطعة القماش او بقذف حجر عليها. و كانت تخاف و تهرب.

و مع مرور الأيام، أصبح العم مسرورا لأن يراني هاديء البال. لقد أطعت أوامره و لم افكر بشيء سوى الراحة و الحصول على الشفاء.

و مع توفر مثل تلك العناية اخذت قدماي تتحسنان تدريجيا. و كنت أُحس كل يوم يأتي اكثر سعادة عندما أرى جروحي تلتئم. أصبحتُ شديد الشوق لسماع أخبار عن الجيش الأحمر الذي لم أسمع عنه شيئا منذ أكثر من شهر. و لم يشتد بي التفكير من قبل بالجيش و برفاقي كما هو شأني الآن. و قد رأيت نفسي في المنام أستطيع السير على قدمي بصورة مريحة و عندما استيقظت و رأيت أصابع قدمي متفرقة عن بعضها البعض و رأيت اللحم الوردي اللون الذي نما على الجروح شاعت في نفسي البهجة. و شفيت قدماي في النهاية.

و في ذلك اليوم و عندما جاء العم بالطعام أريته قدميَّ الشافيتين. و لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك عندما رآني بمثل تلك الروح العالية. و لو لم نخشَ من افتضاح سرنا لكُنّا تعانَقنا و لأرسلناها ضحكات مجلجلة. ثم أعلمني العم بالأنباء التي خبأها عني لبعض الوقت: لقد عاد الجيش الأحمر و في الواقع فإنه يرابط في مكان مجاور.

أن شهرا قضيته في الخلاء جعلني أبدو كالإنسان البدائي فقد كان شعري طويلا حتى أصبح يغطي أُذني تماما، و أصبحتُ أسودا كالزنجي، و أصبح ثوبي الذي يبلغ طوله ستة أقدام خِرَقا ممزقة، و أصبحت ثيابي الزرقاء بيضاء و من ثم سوداء. و لكنني تغلبت على جميع تلك المصاعب و نهضت.

و بعد ثلاثة أيام، أعادني العم لألتحق ثانية بالجيش و برفاقي في الثورة.

غارة ليلية على لونغ ين

بقلم العقيد يوي بنغ خوى

عودة اللواء الأحمر الثامن

لقد كان ذلك في خريف ١٩٣٥، و في ذلك الوقت أيضا، وجدت قاعدة الأنصار في غربي فوكين نفسها في وضع حرج. و أرسل جيانغ كاي تشك عددا كبيرا من قواته الى هناك في حملة ''للقمع''. و اضطرت وحدات الجيش الأحمر الى الانسحاب نحو الخطوط الخارجية. و أُخِذَت بعض مناطق القاعدة قسرا، و أستسلمت للعدو بعض العناصر المترددة. وصرَّحَ لي مو آن و هو الآمر العدو لمدينة لونغ ين باستعلاء قائلا: ((إن الجيش الوطني قد حقق انتصارا في الحملة، و من المقرر أن يندفع شمالا ضد تشو ته و ماو تسي تونغ!)) و قد أُقيمت الاحتفالات في المناطق الريفية على نطاق واسع و جُمِعَت ''إتاوات النصر''. و قد اكتأب الناس أشد الاكتئاب لهذا التحول السيء في مجرى الأحداث.

و في احدى ليالي شهر آب، قاد تشيو تشن شنغ آمر اللواء الأحمر الثامن قواته الى قرية شان يي المجاورة لمدينة لونغ ين. و كانت القرية احدى القواعد القديمة للجيش الأحمر. و انتشرت الأنباء بسرعة البرق طولا و عرضا. و تحت ضوء القمر تجمع عدد كبير من الناس و أثاروا كثيرا من الاسئلة امام رجال الجيش الأحمر و اخبروهم بسوء معاملة العدو لهم. و قال البعض بأن قيام الجيش الأبيض بفرض التجنيد و الضرائب قد جرد الشعب من وسائل عيشه ذاتها. و سأل البعض لماذا لا يُنزِل الجيش الأحمر عقابا عادلا بالأعداء للذنوب التي يقترفونها.

((مَنْ أخبركم بأن اللواء لم يعد له وجود؟ يا حضرة الشيخ العزيز.)) سأل الآمر تشيو الذي ظن بأن كلمات الشيخ شيئا غريبا.

فأجاب الشيخ لي و هو يشير الى الجدران المجاورة: ((إن كثيرا من الناس كانوا يتحدثون هكذا. و ستفهمه بعد أن تمكث هنا بعض الوقت. إن هذه الجدران قد غطيت بمنشورات الرجعيين و إعلاناتهم. لقد قالوا بأن الجيش الأحمر قد سُحِقَ. و لم يُترَك شيوعي واحد على قيد الحياة. و إن أعضاء لجنتي الحزب في المحافظة و المنطقة قد استسلموا جميعهم! فكيف يمكن أن تكون كلماتهم صحيحة؟ و مع ذلك كانت تبدو موثوقة و مُقنِعَة. و حتى أحقر رئيس من رؤساء النواحي وجد في نفسه الجرأة لجمع الإتاوات في قرية شان يي. و لا تنسى بأننا لم نستطع أن نرى حتى ظل واحد منكم يا رجال الجيش الأحمر.))

و عرف آمر اللواء تشيو بالوضع كما بيّنَهُ الشيخ. و أخذ يفكر: ((و أي مكان لم ينهبه العدو كما نهب هذا المكان؟))

و مع ذلك، فان المنطقة المحيطة بقرية شان يي كانت المقر القديم للواء الثامن و لمّا رأى آمر اللواء بأن القرية في مثل هذا القلق لم يستطع أن يكبت هيجانه، و قال لنفسه: ((إن العدو قد تجاوز حدوده هذه المرة. و قد حان الوقت لإنزال ضربة قاصمة به، و إلا فان الشعب لا يمكن أن يتحرر، و سيجد الجيش الأحمر انه من المستحيل المحافظة على موطئ قدم له هنا. و أكثر من ذلك فاذا عجزنا عن إشغال قوة كبيرة من الأعداء هنا بصورة تامة فان الجيش الأحمر المركزي سيضطر لتحمل ضغط أشد!)).

و توقف هنيهة ثم جادل نفسه: ((و لكننا لسنا بدون مصاعب: إنَّ وحداتنا المسلحة محدودة العدد و نحن نفتقر الى الذخائر. فأين و كيف علينا أن نبدأ بالعملية؟))

و لم يستطع الآمر تشيو تشن شنغ النوم، ظل يواصل التدخين حتى غُطِّيَت بأعقاب السجاير و الرماد.

و كان جميع المقاتلين يدركون حقيقة ان هناك فكرة تجول في ذهن الآمر. ففي العامين الماضيين أحرز اللواء الأحمر الثامن شهرة بسبب حذاقته في الستراتيجية و التاكتيك. و قد كان يكسب كل معركة يضع خطتها تشيو تشن شنغ.

و بعد تناول الفطور اجتمع سبعة او ثمانية من المِلاك و الرفيق وو سكرتير لجنة الحزب و المحافظة اجتمعوا في غرفة الآمر. و تحدث السكرتير وو بالتفصيل عن الوضع الراهن. و عندما قال بأن قائد الأعداء لي مو آن سيذهب بعد يوم او يومين الى لونغ ين لعقد اجتماع و ذلك احتفالا بنجاحه وانه سيبدأ قريبا هجومه على الجيش الأحمر المركزي لم يستطع المِلاك أن يكبتوا هياجهم. و أخذ الحاضرون يهتفون: ((انه ينفخ بوقه!)) ((اضربوه!)) ((لا تدعوه يفلت!))

أيها الرفاق، هدئوا أعصابكم! فليس بإمكان الغضب و الشتيمة مهما بلغا أن يهزما لي مو آن!)) هذا ما قاله آمر اللواء بهدوء و هو يبتسم و خلافا لما كان ينتظره الجميع.

و التفت الجميع الى آمر اللواء: ((ماذا يجب علينا أن نعمل؟))

فقال متعمدا: ((ماذا يجب أن نعمل؟ الأفضل أن نبعث برسالة الى لي مو آن نخبره فيها بألا يفكر في الهرب، و نقول له فيها بأن الجيش الأحمر يعمل هنا!)) فأخذ المجتمعون يصيحون: ((صحيح!)) ((نوافق!)) ((هذه فكرة حسنة!))

و لوح الآمر بيده لتهدئتهم: ((و لكننا سوف لا نكلف احدا بإيصال هذه الرسالة، إننا سنسلمها بأنفسنا. و سوف لا تكون رسالة مكتوبة و لا شفوية إنها ستكتب بعبارات البنادق و القنابل اليدوية!)) قال هذا و أشار الى موضع لونغ ين على الخارطة ثم قال: ((أنني مصمم على الاشتراك في الاجتماع الاحتفالي الذي سيقيمه لي مو آن في المدينة.))

ضابط من جيش الأعداء يفتح الطريق

((فلنذهب الى لونغ ين!)) إن هذا يبدو سهلا و لكنها بالتأكيد مهمة عسيرة. لقد بقيت المدينة حصنا للي مو آن امدا طويلا. و قد احتفظ بلواء كامل للدفاع عنها، هذا الى جانب مراكز الحراسة العديدة و الحصون الخارجية. و أمام وسائل الحماية هذه كيف يمكن للواء الأحمر الثامن الدخول اليها؟ و حتى لو استطاع دخول المدينة فكيف يستطيع إلحاق الهزيمة بالعدو؟ و كيف يمكنه أن يعود سالما بعد هذه العملية؟

و بالطبع كانت هناك مصاعب، و لكن الآمر تشيو تشن شنغ كان أنسب رجل لتحويل المصاعب الى نصر.

و بدأ الآمر يشرح خطته:

((الهدف الأول هو مستشفى الأعداء العسكري عن طريق البوابة الجنوبية. و لا يوجد جدار للمدينة في تلك النقطة. و يستطيع رجالنا أن يتسربوا من الحقول الى قلب المدينة. و الخطوة الثانية هي احتلال رأس الجسر عن طريق البوابة الغربية و ذلك لتغطية هجومنا و من ثم المطار و الشارع الرئيسي.))

و كانت ثقة المجتمعين تزداد كلما استمر الآمر في حديثه.

و قال الآمر في الختام: ((ربما يظن بعض الرفاق بأن هذه الخطة قائمة كثيرا على المغامرة. فهل هي مغامرة؟ أجل إنها! و لكنها مفروضة علينا من قبل الأعداء و ليس لنا من خيار! و مهما كان العدو قويا فقد أضاع يقظته. و لم يحلم أبدا بأن الجيش الأحمر سيقوم بمثل هذا الهجوم.))

لقد كانت كلمات الآمر نارا بعثت الدفء في قلوب المجتمعين جميعهم.

و تخفّى المقاتلون و أخذوا يتركون القاعدة متفرقين في مساء اليوم الثالث. و سار الآمر و معه أكثر من عشرين رجلا، مباشرة نحو الممر الكائن قرب البوابة

الجنوبية. و كان ذلك اليوم عيد منتصف آب و القمر الساطع يضيء الطريق و لكن حقول الأرز كانت تخفي ظلالهم.

و لم يكن أحد قد أحسَّ بأن رجال الجيش الأحمر قد تسربوا الى مركز المدينة ذاته وانهم قد طوقوا مستشفى الجيش.

لقد كان القسم الجنوبي من الشارع الرئيسي أكثر أقسام المدينة احتشادا بالناس. و كان غارقا في الأضواء، و الأعلام ترفرف مع هبات النسيم. و كان ذلك كله احتفالا "بالنصر" الذي أُحرِزَ حديثا و كان جنود الأعداء المدججون بالبنادق يختالون في الشارع او يتطلعون على الأماكن المحتشدة في الشارع او في مداخل الطرق و لم يكن احد منهم يتخيل ابدا بان عشرات من رجال الجيش الأحمر كانوا يمرون بجانبهم و كان يمكن سماع أنغام الكمان الصيني و الماه جونغ تنبعث من القاعة الرئيسية من مستشفى الجيش. و كانت مصابيح المدخل مضاءة أمّا البوابة فكانت مغلقة.

و ألقى الآمر نظرة على البوابة التي كانت عالية و سميكة و مُعزَزَة بقضبان حديدية. و كان يرابط على الجانب الأيمن من البوابة فريق من الحرس.

و هَمَسَ الآمر الى قائد الفصيل لي قائلا: ((علينا أن نجد طريقة لنجعلهم يفتحون البوابة، و سيكون ذلك أفضل بكثير من أخذها عنوة.))

و أخذ الوقت يمر، دقيقة بعد اخرى، و أخيرا لم يبق أحد في الشارع. كان آمر اللواء يستعد للقيام بحركة عندما أقبل أحد ضباط الأعداء، و من الواضح انه كان يختسي الخمر مع اصدقائه، عندما أقبل من جسر البوابة الجنوبية نحو المستشفى و هو يترنم بلحن من ألحان اوبرا بكين. و أخذ الآمر يقول لنفسه: ((هذه في الحقيقة لحظة من لحظات الحظ الحسن.)) و لَكَزَ قائد الفصيل بمرفقه. و خرج قائد الفصيل في الحال من مدخل الزقاق و دفع بالمسدس الى ظهر الضابط و حذَّره بصوت منخفض قائلا: ((لا تتحرك!))

و دهش الضابط العدو، و لكن رد الفعل كان لديه عاديا شتم الشخص الذي ظن بانه يمازحه: ((ايها النغل، ماذا تعني بقيامك بحيلة مثل هذه!))

و أمسك قائد الفصيل بكتفه و ضغط المسدس بشدة على ظهره قائلا بلهجة قاسية و لكن بصوت هادئ: ((ستموت اذا صدر منك أي صوت. التفت و انظر من انا!))

و خنق الضابط الصرخة في صدره و عاد الى رشده في الحال، و أخذ يتوسل الى قائد الفصيل لي لكي يوفر حياته. فقال: ((سأوفر حياتك، و لكن عليك أن تسألهم أن يفتحوا البوابة.))

و لم يكن لدى الضابط العدو من خيار إلا أن يسير نحو البوابة و يطلب الدخول و تطلع احد الحرس من كوة البوابة و أضاء المصباح الكهربائي و سأل: ((من الذي يقف خلفك؟))

فأجاب لي بصوت عال: ((أحد رجال المخابرات من مقر قيادة الفرقة.))

و لم تكد البوابة تفتح نصف فتحة حتى دفع قائد الفصيل لي بندقيته الموزر الى صدر الجندي و في الظلام اندفع فريق من الحرس خلال البوابة مثل هبة الريح. و صدرت عن الحارس أنّة ثم سقط على الأرض. و أجرَج جندي آخر من جنود الأعداء رأسه من البناية و سأل: ((ما المسألة؟)) فجاءته في الحال ضربة على رأسه من قندق بندقية الموزر فترنح و سقط على الأرض. و وقع فريق الحرس بسرعة في حيرة تامة.

و وجه آمر اللواء تشيو تشن شنغ فريقا آخر من الرفاق نحو القاعة الرئيسية و وقف على الدرج و البندقية في يده يحمي الوحدة كلها. وَ فَتَحَ احد الجنود نافذة من غرفة الحرس و أستعد للقفز. وَ سُمِعَ دوي! لقد أطلق آمر اللواء النار. و سقط الجندي على عتبة النافذة فاقد الحراك.

النجاحات تُحرَز في كل مكان

حالما أُطلِقَت النار في المستشفى اخذت النجاحات تُحرَز في عدة اماكن اخرى. و قد أُحرِزَ النجاح الأول في حصن العدو القائم عند رأس الجسر و الذي يبعد نحو نصف ميل من المستشفى. و كان من المعتاد أن يكون هناك فصيل من حرس الأعداء يقوم بحراسة الطريق المتجهة الى الشمال الغربي. و في ذلك المساء ذهب الجنود و هم عزّل من السلاح لحضور اوبرا بكين و تركوا هناك جنديا واحدا فقط ليقوم بالحراسة و كان هناك جنديان نائمان في الحصن. و عندما رأى الجندي المكلف بالحراسة عدة قرويين يسيرون قرب الحصن لم يعرهم انتباها كثيرا و لكن شكوكه أُثيرت فيما بعد. و عندما أخذ احد الرفاق و كان فارع الطول قوي الجسم يقترب صرخ الحارس: ((لماذا تجيء الى هنا؟)) فأجابه الرفيق البدين: ((إنني قادم الى المدينة لتسوية بعض الامور!)) فشتمه الحارس بقوله: ((أنت كلب!)) و حاول اعتقاله. و أُطلِقَت رصاصة و سقط الحارس على الأرض.

و هجم بعض رجال الجيش الأحمر على الحصن و أُخِذَ الجنديان النائمان اسرى. و جُمِعَت جميع البنادق و نُصِبَ مدفع رشاش جديد من طراز براوننغ في الكوة و كان على استعداد لاطلاق النار على أية إمدادات يمكن أن يبعث بها العدو.

و لم يكن الرجل القوي سوى قائد السرية لي لو شان. و كان قد حصل في اليوم السابق على جميع المعلومات الضرورية عن الأحوال داخل الحصن. و وضع آمر اللواء فصيلا من المقاتلين تحت إمرته للاستيلاء على الحصن من اجل تغطية الهجوم الذي تقوم به القوات الحمراء على قوات الأعداء في المستشفى.

و في الشرق تسربت وحدة اخرى الى المطار. و حوصر الجنود في ثكناتهم و لم يستطيعوا الخروج فيما كان رجال الجيش الأحمر يُلقون بقنابلهم اليدوية على المطار و داخل الأبنية و اندلع اللهيب في غمرة الانفجارات و مُزِّقَ الستار عن سر ''النمر الورقي'' – فلم تكن الطائرات سوى طائرات مقلّدة، لقد كانت هياكل مصنوعة من الخشب، و التي كانت القوات البيضاء تستخدمها لاشاعة الخوف بين الناس!

و شاع الاضطراب التام في مقاطع الشوارع في البلدة، و كان الناس يركضون في جميع الاتجاهات. كانت أصوات الطلقات و دوي الانفجارات تُسمَع في كل مكان. و كان الناس يصيحون: ((لقد أقبل الجيش الأحمر!)) ((اللواء الأحمر الثامن قد شق طريقه الى البلدة!))

و لم يكونوا يعرفون كم هو عدد القوات الحمراء في الواقع و لا عدد أسلحتهم. انهم قد علموا بأن النار تشتعل في كل مكان حتى بجانب مقر قيادة لي مو آن ذاته!

''رسالة تلفونية للآمر لي''

لقد كان مستشفى الجيش في هياج عظيم. فعندما سُمِعَ اطلاق النار على فريق الحرس، سادت الضجة في البناية الرئيسية وأصبحت كخلية النحل الهائجة. فبعض الجنود فتحوا النوافذ ليقفزوا منها الى الخارج و البعض اخذ يعدو بلا انتظام تجاه الباب الخلفي. و لكن الباب الخلفي كان قد خُلِعَ و ضابط أركاننا وانغ كان يسد المدخل بفريق من رجاله. لقد كان الجنود و الضباط في المستشفى كالعصافير في القفص – انهم لم يستطيعوا الخروج.

و كان رد الفعل سريعا لدى اولئك الذين كانوا مضطجعين على أسرة المرضى فحالما دخل رجال الجيش الأحمر الى قاعتهم رفع الجميع أيديهم و قال احدهم: ((انا جندي و لم افعل شيئا ضدكم ايها الشعب!)) و قال آخر: ((لقد أُرغِمتُ على الدخول في الجيش و لم أُقاتل أبدا ضد الجيش الأحمر!)) و ما الى ذلك. و في الحقيقة فإن اولئك الذين كانوا داخل الغرف هم إمّا مرضى او يعملون في الخدمات الطبية، و بالطبع فإن رجال الجيش الأحمر لا يخطر ببالهم أبدا إلحاق الأذى بهم. و لم يمس رجال الجيش الأحمر اولئك المرضى و لا الأطباء و لا الضباط و الجنود الذين سَلموا أسلحتهم.

و في الوقت نفسه، قاد الآمر تشيو تشن شنغ شخصيا بعض المقاتلين الحمر الى الطابق الثاني للتفتيش عن مراقب المستشفى. فقد تلقى الآمر معلومات منذ أمد طويل

بأن هذا المراقب هو أحد أعوان لي مو آن و هو ضابط عسكري شرس في عدائه للشيوعيين. و منذ أمد طويل و الآمر تشيو تشن شنغ يتحين الفرصة لملاقاته. و من حسن الحظ انه وجد الفرصة الآن. و بعد أن مر الآمر تشيو بسبعة او ثمانية أبواب في الطابق الثاني لم يستطع أن يعثر عليه. فأصدر أمره: ((فتشوا!)) و أخذ رجال الجيش الأحمر يفتشون غرفة غرفة.

و كان هناك باب في آخر الصف. و بجهد شديد دفع احد رجال الجيش الأحمر الباب ببندقيته و فتحه، و لكن قبل أن يتبين ما بداخل الغرفة تلقى ضربة و دُفِعَ خارجا. و أغلق الباب ثانية و أندفع آمر اللواء الى الأمام و برفسة واحدة فتح الباب ثانية. و رأى المراقب الطويل القامة يمسك بمسدس. فانحرف الآمر بسرعة الى أحد الجوانب و أطلق رصاصتين و هوى المراقب على مكتبه.

و في إحدى زوايا الغرفة كان هناك رجل يبدو بأنه السكرتير و كان يقوم بمكالمة تلفونية. فأذهله اطلاق النار. فوقف جامدا في مكانه و قد عجز عن النطق. و مشى آمر اللواء نحوه بخطى وئيدة. و ألقى في باديء الأمر نظرة على المراقب الذي أصبح جثة هامدة. ثم أمر السكرتير: ((خذ التلفون و أطلب قيادة الأركان!))

فبهت السكرتير عندما سمع كلام الآمر و توقف و كأن لسانه قد خرس عن الكلام و أخذ يبحلق في الآمر.

و كرر الآمر قوله بلهجة تهديدية: ((اطلب قيادة الأركان! أصغ! قل ما أقوله لك، جملة جملة!))

((نعم ... نعم!)) أجاب السكرتير المذعور و أخذ سماعة التلفون. و تكلّم آمر اللواء ببساطة تامة: ((قيادة الأركان؟ هنا المستشفى ١٣،)) يتكلم: ((ان اللواء الأحمر الثامن تحت قيادة تشيو تشن شنغ قد احتل المستشفى. ان رجاله كثيرون و لا يمكن عدهم. أخبر الآمر لي أن يقلل من عنجهيته و ألا ينفخ بوقه مرة أُخرى. إن الجيش الأحمر ذو قوة شديدة البأس و في هذه المرة وجه لنا تحذيرا فقط.))

و من النوافذ المفتوحة، رأى الآمر تشيو تشن شنغ النار تتأجج في أماكن أُخرى و سمع انفجارات متتالية. و قد علم بأن رجاله قد أصبحت لهم اليد العليا في المطار و في البلدة. و لكنه لم يعلم فيما اذا كان لي مو آن قد خُدِعَ. فما الذي يجب عمله اذا ارسل حرسه لاستعادة المستشفى؟ هل لديه الوقت الكافي لإخراج ما استولوا عليه من الأسلحة و المعدات الطبية و الأسرى؟ و أرسل رجلا يحمل أمرا صارما الى قائد السرية لي لو شان في رأس الجسر: ((مهما كان العدو قويا فعليكم أن تحرسوا رأس الجسر حتى ينسحب آخر رجل من قواتنا من المستشفى.))

و كان رجال الجيش الأحمر مشغولين في الطابق الأرضي و الطابق الثاني و كان بعضهم يشرح سياسة الجيش الأحمر للأسرى و آخرون كانوا يكتبون اليافطات. و لكن معظمهم كانوا مشغولين باخراج المواد الطبية و الاسلحة التي استولوا عليها. و قام الموظفون الصحيون في جيش الأعداء و الذين تأثروا برجال الجيش الأحمر قاموا هم أنفسهم بتقديم عدد من الصناديق المليئة بالمواد الطبية.

و فيما كان الآمر يتطلع الى ساعته كان يصغي بانتباه الى ما يمكن أن يحدث في الخارج. و أخذ يفكر: ((هل ستأتي قوات العدو المرابطة في شمالي النهر؟ هل يمكن أن يكون حسابي صحيحا او خاطئا؟)) و في تلك اللحظة كان يحس بأن قلبه على استعداد لأن يقفز من صدره.

احتفالات

و لكن، كما قدَّرَ تماما، فقد صعق العدو من هول هذه المفاجأة و لم يدر ماذا يفعل. و قد خُدِعَ لي مو آن بأصوات الطلقات و الانفجارات التي سمعها داخل البلدة و خارجها. و لم تكن لديه فكرة عن قوة القوات الحمراء، او ماذا كان هدفها الحقيقي. و لم يجرؤ على ارسال رجاله و لم يدر أين يجب إرسالهم. و أكثر من ذلك، فما من احد يمكن أن يؤكد فيما اذا كان مركز قيادته يمكن ان يؤخذ ام لا.

و فقط عندما أخذ النهار يطل وصلت قوات العدو التي كانت تتعقبنا و وصلنا الى البوابة الجنوبية، و في ذلك الوقت، كانت النار قد أتت على كل شيء في المطار، و عاد الهدوء الى المستشفى، و توقفت أصوات الرمي تقريبا، و لم يستطع الأعداء أن يروا حتى ظل جندي أحمر مع انهم كانوا يركضون من مكان الى آخر.

و عند الظهيرة تمكنت قوات العدو من الوصول الى مفترق تتفرع منه ثلاث طرق و هنا أيضا وقعت في حبائل الآمر الأحمر. فلمّا رأت قوات العدو بعض الطلقات و المواد الطبية متناثرة في الطريق الأوسط حكمت بانها قد سقطت من القوات الحمراء أثناء سيرها بسرعة و انها سارت في ذلك الطريق، و لهذا اندفعت قوات الأعداء بسرعة في ذلك الطريق نفسه. و لكنها لم تكن تعلم بأن القوات الحمراء قد عادت الى قرية شان يي من طريق ضيق و انها كانت تحتفل بهذا الانتصار مع شعب تلك القاعدة القديمة.

و هكذا لم يستطع لي مو آن أن يقيم احتفالاته و لا أن يجمع ''إتاوات النصر'' و لا أن يتحدث مرة اخرى عن زحفه الى الشمال. و من اجل أن ينتقم لهزيمته، صب جام غضبه على السكان المحليين. و أمر بإجراء تفتيش لمدة ثلاثة أيام في البلدة كلها مع إغلاق جميع البوابات، و أرسل قواته لتقوم بأعمال ''التطويق و القمع'' في المناطق المجاورة. و من اجل إحباط أي هجوم متوقع على المستشفى خُصِّصَت ثلاث سرايا لحراسة الضواحي الجنوبية. و بالرغم من كل هذه التدابير فقد كان شعب الريف المحيط بلونغ ين يهزأ من الكومنتانغ عندما ينفخ بوقه. لقد كان الشعب يعلم تماما بأن الجيش الأحمر نشيط كما كان في السابق و انه يقف من ورائه شديد البأس كما كان شأنه من قبل. و منذ ذلك الحين لم يعد رؤساء المناطق الكومنتانغ و أتباعهم يجرؤون على دخول القرى.

من أُمهات الجيش الأحمر

بقلم تشانغ يو

في المنطقة الجبلية الواقعة في شمالي مقاطعة فوكين يَسمَع الناس أحاديث كثيرة يرويها الأعضاء القدامى في الحرس الأحمر باهتمام عظيم عن السيدة العجوز شن شيو. و هم لا يذكرونها أبدا باسمها مباشرة بل يتحدثون عنها بعطف و يلقبونها بـ ((الجدة العجوز لجبل ايبوني)). فبسبب اضطهاد الكومنتانغ هربت الى المنطقة الجبلية و لم يُعلَم عنها إلا القليل. و قد انتشرت بين السكان المحليين قصص أسطورية عنها. فقال بعضهم بانها ذهبت مع الجيش الأحمر، و قال آخرون بانها عاشت في الجبال تقتات بالثمار البرية و جذور الأعشاب، و آخرون ظلوا يعتقدون بانها قد قادت فريقا كبيرا من رجال الجيش الأحمر ضد مركز المحافظة و لكن ماذا فعلت حقيقة في الجبال فهذا ما لم يكن يعلم به أحد. و فقط بعد أن حُرِرَت المنطقة، و نزلت العجوز الى القرية. و قد جاوزت اذ ذاك الستين من العمر، بعد ذلك فقط عُرِفَت قصة حياتها في الاثني عشر عاما من غيابها.

لقد كانت العجوز شن فتاة من قومية مياو. و عندما كانت في سن التاسعة بيعت كعروس طفلة الى احدى عائلات خوانغ في قرية شياو شويه. و مر أكثر من ثلاثين عاما و الفتاة النحيلة الصفراء تُعنى بالخنازير و تقطع الحطب و تعمل في الحقول و تتسلق الجبال بصرف النظر إن كان الطقس حسنا او رديئا، و هكذا شبت هذه الفتاة و نضجت و أنجبت طفلا و الآن اصبحت عجوزا. و قد حفر الزمن على وجهها شبكة من التجاعيد. و كانت تحمل في قلبها المثقل بالهموم أملا بأن يرى أطفالها أياما أفضل. و مر عام و تلاه آخر. و أخذ أبنها الأول لي شنغ و الثاني وو مي يشبان عن الطوق. أما الطفلة الصغيرة آي تشياو التي التقطتها من على قارعة الطريق أثناء عودتها من العمل قبل اثنى عشر عاما فقد أصبحت الآن فتاة جميلة. و كانت العجوز شن تحيطهم بعظيم رعايتها.

و قد أصابها القلق عندما رأت بأن لي شنغ الخجول و آي تشياو الصريحة لا يلعبان و لا يتحدثان معا. و في الليل قالت لزوجها: ((إني أخشى أن يكون في الأمر شيء! فهذا الخجل ليس طبيعيا.))

فأبتسم زوجها خوانغ تشن مي و أجاب: ((لا تجزعي فإنهما سيستلطفان بعضهما البعض عندما يوضعان معا. أنا و أنت ...))

و هكذا، كان العجوزان وسيطي الزواج، وزفت آي تشيا والى لي شنغ البالغ من العمر ستة عشر عاما و كانت عروسه تكبره بأربعة أعوام. و لكنهما لا يتكلمان مع بعضهما البعض بحضور الآخرين. و حتى عندما اصبح لي شنغ أبا لطفلين لم يكن سكان القرية يسمعونه يتحدث عن زوجته. و عندما كان الناس يتحدثون عن آي تشياو كان يدير وجهه او يشغل نفسه متذرعا بأية حجة. و لمّا أصبح الناس يعرفون مزاجه توقفوا عن مُكايَدَتِه و بعد ذلك رزق طفلا آخر. ثم تزوج أخوه وو مي.

و مع ازدياد عدد العائلة عاما بعد آخر أخذت الحياة تغدو أشد صعوبة. و عندما كان الإقطاعي يأتي مطالبا بالإيجار و يأتي رئيس الباو في طلب الدراهم، كانت العائلة تواجه صعوبة خطيرة. و كانت العائلة تمضي يومها في صمت. و لم يكن يسمع في البيت حديث مرح او ضحك، و كأنهم أُصيبوا جميعهم بالخرس – الكهول و الأطفال على حد سواء. و كانت العجوز كثيرا ما تقول لنفسها: ((متى يجف الكأس المر الذي يشرب نته الفقراء، هذا الكأس الذي يبدو بأنه لا نهاية لقعره؟))

و عندما كانت العجوز شن تقترب من سنيها الخميس جاء الجيش الأحمر. و نهض القرويون و وجهوا ضربتهم الى الطغاة المحليين و اقتسموا الأرض. و على حين غرة أحَسَّت العجوز شن و كأنها أصبحت أطول مما هي عليه و أكبر و أقوى، و أشرق وجهها. و في نظرها أصبح لكل شيء معنى جديد. و حتى لي شنغ الذي كان قليل الكلام، أخذت الابتسامات ترتسم على وجهه و أنطلق لسانه. و كان يسير في الطليعة في كل شيء، يضرب الصناجات و يقرع الجرس عندما يتطلب الآمر

عقد اجتماع، و كان يهز قبضته أثناء النضال ضد الإقطاعيين. و لكنه ظل لا يتحدث الى آي تشياو أمام الآخرين.

و فيما بعد و عندما ناشدت الحكومة في المنطقة المجاورة الشباب للالتحاق بالجيش الأحمر سجل لي شنغ اسمه و كان اذ ذاك في الثانية و العشرين عاما من العمر. و في اليوم ودعته فيه آي تشياو كانت تقف خلف حماتها و بين ذراعيها طفل. و بقيت فترة طويلة بادية الكآبة، و أخيرا تشجَّعَت و أخبَرَت من جيبها الداخلي كيس تبغ بقيت طيلة الليل، تخيطه و تطرزه و قدمته الى لي شنغ و حمرة الخجل تكسو وجهها قائلة: ((خذ هذا!)) و كان لي شنغ يتحدث مع آخرين. فارتبك و أخذه، و دون أن يتطلع اليه كثيرا، دسه في جيبه قائلا: ((شكرا!)) و قد احمر وجهه اذ ذاك. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يتبادل فيها الزوجان الشابان حديثا أمام الآخرين.

و لمّا رأى وو مي بأن أخاه الأكبر قد وضع على رأسه السِدارة ذات النجمة الحمراء طالب هو أيضا بأن يلتحق بالجيش الأحمر و مع انه أحدَثَ ضجة كبيرة فقد أُعلِمَ بانه ما يزال صغيرا جدا. و أخذ يزمجر و سافر عدة مرات الى القرية السوفياتية و لكنه لم يحصل على نتيجة.

و كان القتال سجالا بين الجيش الأحمر و الجيش الأبيض في قرية شياو شويه التي كانت اذ ذاك في المنطقة المجاورة لمنطقة فوكين – تشيكيانغ – كيانغسي السوفياتية. ففي الجبال كان الجيش الأحمر، امّا في مركز المحافظة و في البلدة فكان الجيش الأبيض. و لمّا كانت العجوز شن كثيرا ما تأخذ معها وو مي الى البلدة لشراء حاجات للجيش الأحمر فقد كان باستطاعته أن يقوم ببعض النشاطات. فكان يخبر الجيش الأحمر في الحال عن كل ما يراه هناك. و كان رجال الجيش الأحمر معجبين به جدا و يلقبونه بـ ((الشيطان الأحمر الصغير)) و كان يقول باعتزاز عظيم: ((أنا جندي تحت التمرين في الجيش الأحمر.))

و كانت كنتا العجوز شن تقومان بغسل ثياب رجال الجيش الأحمر و تطبخان الطعام لهم و ترتقان احذيتهم و تصنعان لهم صنادل القش في اوقات الفراغ. و كان الطغاة المحليون يسمون العجوز شن ((رئيسة العصابة)) او ((المرأة الشقية)) و لكنها لم تكن تعير انتباها لذلك و كانت تقول: ((دعهم ينبحون. و على كل فقد أصبحت عائلتنا كلها حمراء!))

و استمرت الحياة السعيدة خمسة أعوام. ثم سار الجيش الأحمر في مسيرته الطويلة و جاءت عصابات الأشقياء البيض. و في أحد الأيام سمعت العجوز شن ضجة شديدة من أصوات الرجال و صهيل الخيل في الخارج ففتحت الباب و وَجَدَت عددا من الجنود يمرون. فأصيبت بالذهول الذي تحول بسرعة الى أسى و حزن. و تقدم أحد الرجال من بين الصفوف و أمسك بيدها قائلا: ((يا أمي، إن الجيش الأبيض قادم و نحن ذاهبون الى الجبال. لا تجزعي فإننا سنعود.))

فألقت نظرة على النجمة الحمراء المعلقة في السِدارة، ثم بحلقت في الرجال و عرفت بانه أبنها. و بعد أن سار لي شنغ بضع خطوات عاد راكضا و وضع شيئا في يدها قائلا: ((يا أمي أعطي هذا لآي تشياو.))

و لم يكن ذاك سوى كيس التبغ الذي أهدته إيّاه آي تشياو و قد علّقت فيه شرابة حمراء، و في داخله شيء صلب مدور. و لم تنتظر حتى ترى ما في داخل الكيس بل نادت بصوت عال على آي تشياو، و لكنها عندما جاءت كان لي شنغ قد توارى عن الأنظار.

و أمضت العائلة المساء و الليل في حيرة و قلق. و في الصباح الباكر سُمِعَت أصوات طلقات نارية. لقد طوق الجيش الأبيض القرية. و عاد الإقطاعيون و الطغاة المحليون. و اندفع الى بيتها رئيس الباو و معه بعض الجنود البيض. و صاح: ((كل من في هذا البيت فهو سيء قيدوهم جميعا.))

و حَدَثَت إثر ذلك ضوضاء شديدة، و لكن الجنود البيض أخذوا معهم خوانغ تشن مي و آي تشياو و وو مي و لمّا عجز رئيس الباو عن اختطاف الحفيد الثاني للعجوز شن الذي كان حفيدها الأول تشانغ تسي ممسكا به، انتزع اصغر الأحفاد[١٠] الذي لا يتجاوز ثلاث سنوات من بين ذراعيها و هو يشتم طيلة الوقت. ثم صاح: ((أنتِ أيتها العجوز قاطعة الطريق![١١] اخرجي من البيت في الحال. و اذا لم تتحركي سأقتلكم جميعا و أجعلكم طعاما للكلاب!))

كان آمر السرية في الجيش الأبيض يسكن في بيت أحد الإقطاعيين حيث اعتَقل هناك جميع اعضاء عائلات الجيش الأحمر. و قد ذهبت العجوز شن الى هناك عدة مرات و لكن الحرس لم يسمح لها بالدخول. و قد لاحظت من الخارج بأن ليس هناك أبناء قريتها فحسب بل أُناس من قرى أخرى، رجال و نساء، شيوخ و شباب و قد اوثقت أيديهم خلف ظهورهم و سيقوا الى ساحة الدار.

و أخذ خدم الإقطاعي يصيحون بهم: ((أنتم أيها الشياطين الحمر، لم تعد الدنيا لكم.))

و لم تجب العجوز شن بشيء و لكنها قالت لنفسها: ((من المبكر جدا القول لمن ستكون الدنيا!))

---

[١٠]- هذا نموذج للأنظمة التي تدعمها الدول الإمبريالية الغربية - و على رأسها بريطانيا و أميركا - التي تتشدق بالديموقراطية و حقوق الإنسان و الحرية!! فقد دعمت الإمبريالية البريطانية و من بعدها الإمبريالية الأميركية نظام السفاح جيان كاي تشك الفاشي و لا تزالان و معهما كل دول الغرب الرأسمالي الاستعماري يدعمون نظام تاي وان العميل. ترى هل يفيق الغافلون او بالأحرى المغفلون من شباب هذا الزمان في وطننا العربي من الذين يتوهمون بأميركا وبريطانيا و الغرب الاستعماري و ديموقراطيتهم و حريتهم المزيفتان بعد قراءة هذه القصة و التعرف على الحقائق التي في طياتها؟ يفتري الغرب على ماو تسي تونغ و''المذابح'' التي قام بها و تعوي قناة العربية العميلة بهكذا افتراءآت ولكنهم لا ينبسون ببنت شفة عن جرائم جيان كاي تشك و نظامه الإرهابي!! لكن هيهات هيهات أن يستطيعوا تزوير التأريخ. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

[١١]- من هو قاطع الطريق الحقيقي؟ هل هي المرأة العجوز ''الشيوعية'' أم رئيس الباو الأبيض الذي يخطف الأطفال بعمر الثلاثة أعوام و يسرقهم من أحضان أهاليهم؟ و هل يستطيع أحد بعد هذا أن يلوم الشيوعيين على استخدام العنف ضد أعدائهم؟ - ملاحظة الصوت الشيوعي.

و غرقت قرية شياو شويه في حزن عميق. و ليست هناك من عائلة إلا و أُعتُقِلَ واحد او اكثر من أعضائها. و قد نُهِبَت كثير من البيوت. و قد خُتِمُ بيت العجوز شن من قِبَل الإقطاعيين. و بعد أن طُرِدَت من بيتها ذهبت هي و كنتها الثانية و حفيداها و عاشوا في كوخ يقع خارج القرية. و بعد بضعة أيام عرج زوجها على البيت و قد اخبرها بأن ابنهما الثاني وو مي قد دفن حيا[١٢] في نفس الليلة التي أُعتُقِلَ فيها، و إنَّ آي تشياو و الحفيد ما يزالان معتقلين في ساحة بيت الإقطاعي، و ان من يريد إعادة أي أحد يقال له: ((تعال و خذهم بالدراهم. لا إنسان بدون دراهم!))[١٣]

و لمّا علِمَت نسيبة وو مي بموته أسرعت الى ابنتها و أخذتها و زوَّجتها ثانية.

و لمّا سمعت العجوز شن بما اخبرها به زوجها أسرعت الى بيت الإقطاعي، و عند مدخل البيت تجمهر عدد كبير من الناس، لقد جاءوا من القرية و من خارجها لافتداء أبنائهم، او لزيارتهم. و اختفى البشر من ساحة الدار، و لم يعد يُشاهد فيها سوى عدد كبير من الأكياس بعضها مكوم فوق بعض و بعضها مصفوفة واحدا فوق الآخر. و قد ظنت بادئ الأمر بأن هذه الأكياس منهوبة من الفلاحين. ثم سمعت أنينا و اقتربت و أمعنت النظر، إن هناك حركة في بعض الأكياس!

و شدت معطف شيخ واقف بجانبها و كان يفرك عينيه ((النساء؟ أين ذهبن جميعهن؟))

و قالت امرأة عجوز: ((عمن تفتشين؟ اذا كنتِ تفتشين عن امرأة فإنهن جميعهن قد حشين في الأكياس!))

١٢- لقد استعمل نظام الحرس القومي البعثي الفاشي هذه الطريقة على نطاق واسع في عام ١٩٦٣ لتصفية الشيوعيين العراقيين وبصورة جماعية. و يدلل هذا على وحدة الممارسة الفاشية و بالتالي وحدة العقل المخطط لها و كونها ناشئة و موجهة من منبع واحد رئيسي ألا و هو الغرب الرأسمالي الذي يدعي ''التحضّر'' رغم تعدد مصباتها. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

١٣- هذه العبارة تلخص بإيجاز شديد طبيعة النظام الرأسمالي و جوهره و قانونه الأساسي في التعامل مع الحياة البشرية و نظرته للإنسان.

و في تلك اللحظة خرج رجل و في فمه سيجارة و في يده قبان، و صاح في الجمع: ((اوقفوا الزعيق! انتبهو هنا! اولئك الذين قتَلوا سيقتلون و اولئك الذين استدانوا اموالا سيعيدونها، ان الاشخاص الموجودين في الأكياس سيباعون بالمزاد. فاولئك الذين احضروا الدراهم يمكنهم أن يدفعوا و يأخذوهم أمّا البقية فانهم سيباعون بالسعر الرسمي المعقول جدا – فكل جن (الجن يساوي نصف كيلوغرام) سيباع بيوان واحد. و هذا كل ما في الأمر![١٤]

و أعطى إشارة فركض جندي الى زاوية قرب الباب و قد استطاعت العجوز شن أن ترى عددا من الأطفال مكومين هناك و الى جانب الباب و قف جندي يحمل بندقية. و كان الأطفال في حالة من الذعر لدرجة انهم لم يجرؤوا على الصراخ. و ذهب الجندي و التقط احدهم و وضعه في سلة و علقها في خطاف القبان. و تطلعت العجوز شن. انه حفيدها و لمّا رآها أخذ الطفل[١٥] يصرخ: ((يا جدتي، يا جدتي!))

فدفعت الحارس و اندفعت و أمسكت بحفيدها و هي تصرخ: ((طفلي، طفلي!)) فانتزع الجندي الطفل من بين ذراعيها و أخذ يشتمها و دفعها جانبا بعنف قائلا: ((أيتها العجوز الشمطاء؟ ستعرفين الثمن بعد أن يوزن.))

و بعد أن رُفِعَت السلَّة رَفَعَ الرجل الذي يمسك بالقبان يده و قال: ((ستة عشر جنا)). و أجرى محاسب حسابه و قال: ((ستة عشر يوان!))[١٦] فنظر الرجل الذي يمسك بالقبان شزرا الى العجوز شن و قال: ((ستة عشر يوان ألا تسمعين؟ البيع نقدا ادفعي ستة عشر يوانا و الطفل لك.))

---

[١٤]- و بعد هذا كله ألا يستحق الرأسماليين الرجعيين من نظام جيانغ كاي شك في الصين او من نظام الحرس القومي البعثي الفاشي او من عصابة ناظم الطبقجلي و الشوّاف القومية البرجوازية الرجعية في العراق، ألا يستحق هؤلاء أن يسحلوا بالحبال و يشنقوا على أعمدة الكهرباء عقابا لهم على جرائمهم بحق الجماهير؟ - ملاحظة الصوت الشيوعي.

[١٥]- لاحظ أيها القاريء العزيز: أنه طفل!! مجرد طفل!! هكذا تحقد الرأسمالية و الإقطاع على المستقبل فالطفل يمثل المستقبل. انه المستقبل الاشتراكي والشيوعي الذي يخشيانه أشد الخشية. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

[١٦]- هذا هو سعر الإنسان و قيمة الطفولة لدى الرأسماليين و الإقطاعيين ... . – ملاحظة الصوت الشيوعي.

و في تلك اللحظة سُمِعَ صوت مناقشة او مهاترة عند البوابة. فقد اخترق الجمهور جندي أبيض و دخل و مشى نحو المحاسب و تمتم ببعض الكلمات فابتسم هذا ابتسامة باهتة و قال: ((تريد امرأة، آه؟ حسنا حسنا. و لكنك لا تستطيع أن تختار. أنهن جميعا هنا – في الأكياس. التقط واحدة من بينهن. فإن كانت جميلة او قبيحة فهذا يعتمد على حظك.))

و أحمر وجه الجندي خجلا و لزم الصمت. و من الواضح ان المحاسب لا يريد أن يضيع زبونا و لهذا سأله: تريد امرأة ممتلئة أم نحيفة؟))

و أخرج الجندي كيسا من الدولارات الفضية كان قد سرقها و نثرها على المائدة قائلا: ((أنا لا أستطيع تحمل امرأة ثقيلة، التقط لي واحدة نحيفة.))

و قفز الرجل الذي يمسك بالقبان من المصطبة. و رفع بعض الأكياس القريبة منه و أخذ يقدر وزنها، و أخيرا سحب كيسا من الأسفل و كان أخفها و وضعه في كلاب القبان و أعلن ((ثلاثة و سبعين جن)) و تطلع على الدراهم المنثورة على المائدة و قال للجندي: ((حسنا ما دمنا من نفس المهنة فإننا نعفيك من ثمن ثلاثة جن.))

و بعد أن دفع الجندي الدراهم أخذ الكيس و القاه على كتفه و أنصرف. و تجمع الناس الواقفون في الخارج حوله. و كانت العجوز شن تتابع عملية الشراء بأعصاب متوترة. لقد كانت طيلة الوقت تفكر بآي تشياو زوجة ابنها. و عندما انصرف الجندي تبعته و أبتسم الجندي باستحياء و هو ينظر الى الجمع من حوله ثم فتح فم الكيس. و مد الناس اعناقهم و تطلعوا. و لبرهة بقي الكيس عديم الحركة. فنفذ صبر الجندي و رفس الكيس بشدة صائحا: ((أيتها الملعونة! اخرجي، أسرعي!))

و تحرك الشخص الذي كان في داخل الكيس حركة خفيفة، ثم أخذ يظهر من الكيس رأس أبيض الشعر. و لمّا تطلع الجندي اليه جفل و على حين غرة أطلق صرخة عميقة: ((أمي، أمي! أنها أنتِ!)) و سقط الجندي و المرأة الشائبة الرأس على الأرض و هما ينوحان.

و أحست العجوز شن برجفة و أشتد خفقان قلبها. و نسيت زوجة ابنها، و نسيت حفيدها الموضوع في السلة و نسيت سبب ذهابها الى بيت الإقطاعي، لقد ذهلت وركضت الى البيت و هي فاقدة الوعي.

و جلست صامتة على فراش القش في الضوء الخافت و تطلعت الى زوجها و حفيديها و ما أن تلاقت العيون حتى تباعدت و قد جعلها الصمت المخيم على الكوخ و الذي يشبه صمت القبور جعلها تحس بفراغ رهيب. إن صورة ذلك اليوم لم تفارق خاطرها، و كانت الظلمة الحالكة تضغط على قلبها كأنها الرصاص. و لكي تطرد من مخيلتها ذلك المنظر المرعب أضاءت المصباح و أخذت تغلي الماء و تهيء الطعام. و فيما كانت تكيل الأرز سمعت طرقة خافتة على الباب ثم دلف رجل الى الغرفة. فألقت عليه نظرة حادة. و في الضوء الخافت رأت رجلا أسمرا أشعث الشعر حافي القدمين و قد كساه الغبار. و ليس فيه ما يدل على قوة شكيمته سوى عينيه البراقتين. و ألقى نظرة على جنبات الغرفة و قال بصوت يكاد أن يكوي مسموعا: ((لا أظن أنني قد أخطأت – هذا بيت الرفيق لي شنغ و أنتِ و الدته؟))

و نظرت العجوز بدهشة الى الغريب و في عينيها علامات استفهام. و قدم الرجل الغريب نفسه بأنه تشن كوي من كشافة الجيش الأحمر. و قال بأن الجيش الأحمر هو في الجانب الآخر من الجبل. و التفت حواليه و تردد في القول. و لكنه وجد تشجيعا عندما هزت العجوز شن رأسها فأوضح لها بأن الجيش الأحمر، و قد انعزل في الجبال، يفتقر الى الطعام. و هو يؤمل بأن تحاول والدة لي شنغ أن تحصل على بعض الأرز و ترسله للجيش.

و ما كاد ينهي كلامه حتى عبرت العجوز شن عن استعدادها. و قالت بانها ما دامت على قيد الحياة فإنها لن تنسى الجيش الأحمر في الجبال. ((و فقط في الوقت الحاضر ...)) ثم توقفت ثم قالت بدلا من ذلك: ((في الوقت الحاضر، و مع إن الجميع هنا يواجهون المصاعب فإن الوضع أفضل بكثير منه في الجبال.))

و أعادت الأرز الى الكيس و أعطته الى تشن كوي. و طلبت اليه أن يأخذ ذلك اولا و ستسعى جهدها للحصول على المزيد بعد بضعة أيام (و لم توضح له بأن حفنة الأرز هي قرضة) و رفض تشن كوي قبولها. و نظر الى خوانغ تشن مي المصاب بجرح خطير. و قال مهما كانت الحالة التي يواجهها الجيش الأحمر سيئة فانه لا يمكنه أن يأخذ طعام شخص مريض. و لكنه لم يستطع أن يثنيها عن عزمها و أضطر لأخذ الأرز. و قبل أن ينصرف اتفق معها على ترتيب معين و ذلك انه عندما تحصل على الحبوب فعليها أن تخزنها في جرة و تضعها في مكان معين في سفح الجبل و من هناك يأخذها الجيش الأحمر.

و بقيت العجوز بضعة أيام تفتش عن حبوب للجيش الأحمر و لم يبق لديها وقت لترى ما حل بآي تشياو. و فيما بعد سَمِعَت بأنه منذ حادثة ذلك الجندي الذي اشترى الامرأة، تلك الحادثة الرهيبة، فقد اوقف بيع الناس. و مع ذلك فقد أُرسِلَ بعض الأطفال الى مكان ما و بيعوا. و أُرسِلَت النساء الى مركز المحافظة و هناك دُبِّرَ أمرهن. و أُخِذَت آي تشيا والى مركز المحافظة في ١ أيلول. و قد أصابها المرض بعد أن أُلقيت في غياهب السجن. و فقط بعد أن أشتدت عليها وطأة المرض و أصبحت على شفا الهاوية سمحوا لها بالذهاب بعد أن دُفِعَ مبلغ من المال.

و عندما نَظَرَت العجوز شن الى زوجة ابنها لم تستطع أن تتعرّف عليها إلا بصعوبة. لقد كان وجهها منتفخا مثل قرعة ناضجة و كان القيح ينزُّ من ذقنها. و كانت تتنفس بصعوبة. و جاءت العجوز شن بزوجة ابنها الى الكوخ و حاول زوج العجوز جهده أن ينهض عن فراش القش ليعطيه لزوجة ابنه و لكنه لم يستطع، لقد كان خائر القوى و بعد فترة قصيرة توفي. ثم بعد بضعة اشهر توفيت آي تشياو أيضا. و قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة أشارت الى العجوز شن أن تجلس بجانبها و قالت لها و هي تسحب كيس التبغ من جيبها الداخلي: ((يا أماه، لقد سألني لي شنغ أن أحفظ هذا له، في داخله وسام منحه إياه الجيش الأحمر. أرجوكِ أن تسألي أحدا ليسلمه إياه.))

و بعد أن أجهَدَت نفسها لتسحب نفسا طلبت من ولديها أن يأتيا الى جانبها و قالت للعجوز شن بصوت خافت: ((يا أماه، أنتِ التي ربيتني. و أنا الآن سأموت و هذا سيسبب لكِ كثيرا من المتاعب. و لكن عليكِ مهما كان الثمن أن تربي الولدين و تسلميهما للجيش الأحمر. يا أماه. ما زلتُ في شرخ الشباب و في الحقيقة لا أريد أن أموت!))

لقد قامت العجوز شن بنفسها بمواراة زوجها و كنتها التراب. و قد ذرفت الدموع حتى جفت المدامع. و منذ زيارة كشاف الجيش الأحمر قامت مرتين بإرسال الأرز الذي جمعته من سكان القرية. و في هذه المرة بَعَثَت أيضا بكيس التبغ و في داخله الوسام. و قالت لنفسها بأنه سَيُسَلم الى أبنها. و أصبح كوخها دليلا للقادمين و الذاهبين من الجيش الأحمر. و كان أعضاء الارتباط الذين يرسلهم الجيش الأحمر يأتون الى كوخها ليستعلموا عن الوضع في القرية. و أحيانا كانوا ينامون في كوخها و يعودون الى الجبال مع الفجر. و كانت أحيانا تسمع منهم أخبارا عن ابنها لي شنغ.

و أصبح الكوخ عين الجيش الأحمر، أكره مكان للبيض.

و من أجل قطع صلات الجيش الأحمر بالشعب أخذت سلطات الكومنتانغ تهجر الناس و تحشرهم في مكان ضيق حيث تسهل مراقبتهم.

و في أحد الأيام جاء رئيس الباو و معه فريق من الرجال الى كوخ العجوز شن، و قال و هو يشير اليها: ((يا امرأة الجيش الأحمر، لا يسمح لأحد أن يسكن هنا. انتقلي في الحال الى القرية!)) قالت العجوز: ((هذا ليس بيتك و لا يمكنك أن تصدر لي الأوامر بشأنه!)) فقال رئيس الباو مهددا: ((اذا لم تنتقلي سأهدمه.))

((تستطيع أن تهدمه اذا شئت و لكنني سأبنيه بنفسي. انك لا تستطيع إخافتي بهذا النوع من الكلام.))

و رأى رئيس الباو بأن تهديده لم يفد فأمر رجاله بأن يبدأوا العمل. و في بضعة دقائق هَدَمَ الكوخ. و كل شيء فيه قد غمره التراب. و قال رئيس الباو و قد كساه الغبار: ((حسنا هذه نهايتك يا كهف اللصوص. أود أن أرى الى أين ستنتقلين بعد ذلك.))

و بعد بضعة أيام سمع رئيس الباو بأن العجوز شن لم تنتقل الى القرية فعاد ثانية. و في المنحدر بعيدا عن المكان الذي كان فيه الكوخ. كانت هناك سقيفة مبنية من الأغصان و العصي و ركض رئيس الباو نحو السفينة، و رفس الباب المصنوع من القش و فتحه و صاح بغضب: ((لقد أخبرتك بأن تنتقلي الى القرية، فلماذا تنتقلين الى مكان أبعد؟))

فقالت العجوز شن: ((أنني أكره رائحة القرية النتنة المُسَبَبَة عن و جودك فيها الآن. أنني احس براحة اكثر كلما ابتعدت.))

و مزق رئيس الباو باب السقيفة و القاه في المنحدر. و قال: ((اذا لم تنتقلي فأنني سأحرق هذا المكان.))

و حدقت فيه و قالت: ((هيا احرقه. أحرق كوخي فسأذهب لأعيش في كهف!))

فأمتلأ رئيس الباو غيظا و لوح لرجاله الذين بدأوا يضرمون النار في الكوخ و سرعان ما لفه اللهيب و تساقط و أصبح كومة يتصاعد منها الدخان.

و أخذت العجوز شن تشتم رئيس الباو و هي تحاول انقاذ حوائجها من بين الأنقاض. و أخذ رئيس الباو يخطو الى الأمام و الى الخلف و على وجهه ابتسامة لئيمة. و لمّا رأى شدة تصميمها، لم يعد موقنا فيما اذا كانت ستنتقل الى القرية بالرغم من احتراق كوخها. و حينئذ نظر الى حفيدها و راودته فكرة دنيئة. فاختطف الطفل البالغ من العمر خمسة أعوام و كانت جدته اذ ذاك غير منتبهة، و نزل يعدو في طريق المنحدر. و لمّا سمعت العجوز شن صراخ الطفل تركت كل شيء و

أخذت تعدو وراء الخاطف، و لكنه كان قد وصل الى القاع و وقف على الجانب الآخر من الخندق.

و صاح: ((سنرى إن كنتِ ستنزلين أم لا. إننا سنأخذ حياتك هذه!))

و كانت العجوز شن على وشك اللحاق به و لكن عندما سمعت هذا توقفت و قالت: ((خذه! انا سوف لا انزل و ستجدني عند كلمتي!))

و كان رئيس الباو يقصد تهديدها. و لكنه أحس الآن بالتردد، فسألها:

((الى أين ستذهبين؟))

فأجابت: ((سأصعد الجبل!))

((ستموتين جوعا في الجبل!))

((لقد عشت ما فيه الكفاية، و اذا مت فأموت قريرة العين تحت العلم الأحمر!))

((ستفترسكِ النمور و الذئاب!))

((إنكم أكثر شرا من النمور و الذئاب!))

فاخذ رئيس الباو يغلي من الغيظ و وقف لا يدري ماذا يفعل. و بعد هنيهة قال و هو يشير الى الطفل الذي يضطرب بين يديه: ((يا امرأة الجيش الأحمر لا تكوني عنيدة. اذا أردتِ طفلكِ فانتقلي الى القرية.))

و مضى رئيس الباو و رجاله الذين لحقوا به و ساروا في دربهم يتبخترون.

و لمّا بقيت العجوز شن مع حفيدها الوحيد الذي تبقى لها أخذت تبحث بين الرماد و تُخرِج أدوات المطبخ التي لم يلتهمها اللهيب. ثم جلست على أكمه و سدرت في تفكير عميق. و كان الدخان يتصاعد من الدساكر الواقعة في سفح الجبل، و امتلأ الهواء بالرماد الذي حمله نسيم المساء. لقد كانت صورة تعيسة. و أحنت رأسها الذي اشتعل شيبا و تطلعت الى وجه الطفل و ضمته الى صدرها كالحيوان البري

الذي يحمي صغاره. و مهما يحدث فإنها لن تضيع هذا الحفيد الأخير. إن الحياة يمكن أن تكون أيسر هناك في القرية و لكن هل هي حياة لبشر يحترمون أنفسهم؟ و الى جانب هذا، فكيف أحوال الجيش الأحمر في الجبال؟ و أطل القمر. و كان من حولها يسود صمت مخيف. و من بعيد كان يُسمَع نُباح الكلاب بين الفنية و الفنية.

و أخيرا قالت بصوت عال: ((و لكن قبل كل شيء فنحن بشر – إننا لا نستطيع أن نحيا حياة البهائم.)) و أيقظت الطفل و نهضت و بدأت ترتب الأشياء التي أنقذتها.

و سأل الطفل: ((يا جدتي، الى أين نحن ذاهبان؟)) فأجابته: ((لا تخف يا طفلي، اذا كنا سنموت فإننا سنموت تحت العلم الأحمر. الجيش الأحمر في الجبال. أمّا هناك في السهل فتحوم النمور و الذئاب!))

و أصبح من النادر للقرويين أن يروها بعد أن هربت مع حفيدها الى الجبال. و بعد ذلك، و عندما أقام الجيش الأبيض الحصون على طول سفوح الجبال و بعد أن أصبح يوقف المارة و يستجوبهم، انقطعت المواصلات كليا تقريبا بين قوى الجيش الأحمر و القرويين. و في العامين الأولين و عندما كانت تفتقر للحبوب كانت تتسلل أحيانا الى القرية سالكة الطرق الخلفية، و تقترض الأرز من أقاربها. و كان الناس الذين يقابلونها يسألونها باستغراب كيف تدبر حياتها في الجبال؟ و اولئك الذين كانوا يعطفون على الجيش الأحمر كانوا يأخذونها جانبا و يهمسون: ((أ مازال رجالنا هناك؟ أخبرينا إن كان هناك أي نبأ.)) و فيما بعد و عندما جُنيَت المحاصيل من الحقول غابت هي و حفيدها و لم يعد الناس يسمعون عنها إلا ما ندر، و قد ظنوا بأنها قد توفيت او ذهبت مع الجيش الأحمر.

لقد عاشت العجوز شن و حفيدها في كهف صخري ينز فيه الماء. و الكهف داخل كثيرا في بطن الجبل و كان مظلما و تتردد اليه الأفاعي. و قد سكنت العجوز و حفيدها قرب المدخل الذي كان جافا نسبيا. و بأدواتهما البسيطة استصلحا قطعة

صغيرة من الأرض أمام الكهف. و كانا يراقبان نمو الزرع من الشتاء الى الخريف و كان يغمرهما سرور لا يوصف عندما جنيا الموسم الأول.

و قالت لحفيدها تشانغ تشي: ((أننا لن نموت جوعا و كذلك شأن الجيش الأحمر.))

و منذ ذلك اليوم أخذت تضع الأرز في أكياس صغيرة تأخذها الى قمة الجبل. و في ذلك المكان، الذي كان من النادر أن يمرَ به الناس، و بجانب شجرة دردار معمرة و التي كانت أغصانها تمتد كمظلة كبيرة، و تحيط بها الأعشاب، كانت هناك بلاطة خضراء. و تحت هذه البلاطة جرة كبيرة حملها الجيش الأحمر الى ذلك المكان بعد أن تراجع الى الجبال. و كانت مخفية بشكل إن أي شخص يرى التراب و الأغصان الجافة و الأعشاب فوق البلاطة لا يمكن أن يخطر بباله ان هناك شيئا مطمورا تحتها. و لم يكن يعرف السر سوى العجوز شن و عضو الارتباط في الجيش الأحمر. و كانت العجوز شن على الدوام تضع الأرز هناك عندما كانت تقطن في القرية.

و بعد أن كانت تخزن الأرز كانت تذهب الى هناك كل يوم لتلقي نظرة بصرف النظر إن كان الطقس ممطرا او صاحيا. و في كل مرة، و فيما هي تقترب من شجرة الدردار كانت تزداد توترا. و كان يبدو بأن في ذلك المكان يكمن أعظم آمالها. انها لم تكن تفتش عن كنوز الذهب و الجواهر و الثروات الغير منتظرة لقد كانت لها رغبة بسيطة واحدة – أن تحصل على أنباء اولئك الذين تعزهم. و كانت تحس بالبهجة عندما ترى الجرة فارغة، و اذ ذاك تشرق البسمة في وجهها، و يزول الوسواس من نفسها و تضم حفيدها و تُقَبِّل شعره الأشعث و تهمس في أذنه: ((يا طفلي العزيز، ان الجيش الأحمر ما يزال في الجبل. انه في مكان قريب منّا!))

و في مثل تلك الحالة كانت تحس بالراحة العظمى. لقد كانت تحس بأن الجيش الأحمر ما يزال بجانبها و انها عملت شيئا ما له. و كانت سعيدة بذلك.

و كانت تُمضي وقتا طويلا و هي تتطلع الى الحرش و كأنها تستطيع أن ترى من خلال الأشجار الكثيفة أعزاءها. و كانت تلمس البلاطة بيدها و كأنها تحس بحرارة يد رجل الجيش الأحمر. و كانت أحيانا تسير في أثر الأعشاب المُداسة التي تدل على الطريق الذي سار فيه الرجل الغير مرئي الذي يأخذ الأرز.

و فيما بعد لم يكن هذا يتكرر كثيرا، حتى جاء وقت كانت تجد فيه بأن الأرز لم يُمَس عندما تَرفَعُ البلاطة. و كانت اذ ذاك تجلس على الحجر حزينة قانطة، و تثبت ناظريها على الحرش و قمم الأجبال البعيدة، و تكتنفها الظلمة. ((انه بعيد جدا. أوه أيتها السماء احفظي الجيش الأحمر! أحفظي الرئيس ماو!))

و كانت تجلس هناك أمدا طويلا جدا، جامدة في مكانها كراهب غارق في تأملاته و تدع النسيم العليل يعبث بشعرها الأبيض. لقد كان قلبها و فكرها في مكان بعيد. و كانت العجوز و هي جالسة و الى جانبها يقف حفيدها – مثل شجرتين بجانب شجرة الدردار المعمرة، شجرة السنديان القديمة الصلبة و غرسة الحور الجديدة.

و عندما كان حفيدها تشانغ تسي يراها حزينة يسألها بصوت ناعم: ((يا جدتي ماذا قُلتِ؟))

و اذ ذاك تفيق من سهوها و تقول ببطء: ((لقد ذهب بعيدا، بعيدا!))

فيسألها تشانغ تسي: ((يا جدتي أين ذهب أعمامي رجال الجيش الأحمر؟))

ثم تسعى لتطمين نفسها و حفيدها فتقول: ((لا تجزع، إن الجيش الأحمر سيعود!))

و تحس العجوز شن بالتعب و يُغشى بصرها فتحمل الأرز القديم و تنزل المنحدر ثم تحمل الأرز الجديد و تعود لتضعه في الجرة.

و توالت الأعوام، و نما الطفل و أصبح فتى قويا. و ارتسم على المنحدر طريق ممهد. و أصبحت البلاطة مغطاة بأعشاب ترتفع الى علو الركبة. و نمت الشجيرتان

الطائنتان على جانبي البلاطة و اصبحتا باسقتين. و لكن الأرز الذي كان يوضع في الجرة و الذي كان يُبَدَل دائما فانه لم يمس.

و كان الزمن يمر، و العجوز تصارع الرياح و الأمطار – وأخذ ظهرها ينحني تدريجيا. و أصبح على حفيدها تشانغ تسي أن يساعدها في غدوها و رواحها. و أحيانا، و عندما كانت تقضي طيلة النهار على قمة الجبل، كانت ترى في تلك الليلة أحلاما عجيبة. و كانت عندما تستيقظ مذعورة من ذلك الكابوس تمسح العرق البارد المُتَصَبب من جبينها. و كانت لا تخبر تشانغ تسي عن حلمها لئلا يصيبه الذعر. و أحيانا عندما كانت تستيقظ من حلم جميل لم تكن تستطيع النوم ثانية. و كانت توقظ الطفل و تهمس في أذنه: ((تشانغ تسي لقد رأيت الرئيس ماو و قد تسلم زمام الأمور في البلاد، والدك يسير أمام الجيش الأحمر و هو يحمل بندقية على كتفه و يبتسم لي!)) و كانت ترتدي ثيابها و تأخذ عكازها و تذهب الى مدخل الكهف و هناك تُمضي وقتا طويلا و هي تنظر الى الصخور و الأشجار التي تبدو سوداء عن بعد. ثم تنفث من صدرها حسرة الخيبة و تدلف الى داخل الكهف.

و لم تعد العجوز شن تعرف كم لها من الزمن بعيدة عن المجتمع البشري. و لم تكن تعلم ماذا حدث في القرية. و استمرت في مهمتها بإرادة لا تعرف الكلل و انتَظَرَت بصبر.

و أقبل ربيع عام ١٩٣٧. و لبس الجبل حلة خضراء. و صعدت العجوز شن الى قمة الجبل كالمعتاد. و الى جانب البلاطة التي بدا عليها بأنها قد حُرِّكَت كانت كومة من الأعشاب فشهقت لهذا المنظر. و أخذ قلبها يخفق بشدة، و اتكأت على عكازها و مشت تتفحص العشب. إن كثيرا من الناس قد مروا من هناك. و حاولت أن ترفع البلاطة و لكنها لم تستطع لضعفها الشديد. و قام تشانغ تسي بذلك. و لم تستطع العجوز شن أن تصدق ناظريها عندما رأت بأن الجرة فارغة. لقد أُخِذَ الأرز بالتأكيد، و هذا يعني بأن اليوم الذي طال انتظارها له قد أقبل أخيرا. و طار قلبها

فرحا. و أخَذَت تربت على حفيدها و تقول: ((لقد فتحت السماء عينيها، لقد عاد رجالنا!))

و بقيت أربعة أيام لا تستطيع النوم، و كانت تصغي لأية حركة خارج الكهف، و كان أي صوت مهما كان خافتا ينبه أعصابها. و حتى اذا مر طير من طيور الليل يظل قلبها يدق بشدة امدا طويلا.

و في احدى الأمسيات سَمعَت خشخشة خارج الكهف و كانت على وشك الخروج للتحري عن ذلك عندما دخل بعض الأشخاص. و اذا بصوت مألوف يستعلم بتردد: ((هل العجوز شن تسكن هنا؟))

((من أنتم؟)) و فركت العجوز شن عينيها و اتجهت نحو الزائر و هي ترتجف و أمسكت بأول الداخلين فتبين لها بانه تشن كوي كشاف الجيش الأحمر. آه، إن السنين مليئة بالهواجس و الهموم، و بالشوق و الانتظار! و طغت عليها عواطفها. فضمت اليها تشن و أنفجرت بالنحيب.

((أين لي شنغ؟)) لقد لمع هذا الاستفهام، في ذهنها، و لكن دخول الناس و خروجهم من الكهف حال دون سؤالها. و على حين غرة فكرت بأن تعطي رجال الجيش الأحمر شيئا ما و أخذت تفتش في ارجاء الكهف. و لكن لم يكن هناك سوى حفنة من الأرز و قد أسِفَت لعدم وجود أشياء لطيفة تقدمها، عندما ذكَّرَها صوت منبعث من الزريبة بالدجاجتين اللتين كانت تحتفظ بهما. و ألحَّت على تشن كوي أن يأخذهما و لكنه لم يقبل و لا بشكل من الأشكال. و قال لها: ((يا أُمّنا العزيزة، لا تقلقي على طعامنا، إن لدينا مهمة يجب تنفيذها. فهل لنا أن نرجوك بالنزول الى القرية في الحال لتعرفي فيما اذا كان الجيش الأبيض قد جاء الى هناك في الأيام القليلة الماضية؟))

و هزت العجوز شن رأسها موافقة. و قبل أن تذهب تفرَّست في الوجوه المحيطة بها. إن ابنها ليس هناك. و امتلأت نفسها بالهواجس و لكنها لم تجرؤ على ترجمة

استفهامها الى كلمات. و حدقت ناظريها بتشن كوي. و فهم تشن، و هو ينظر الى العينين الكئيبتين، السؤال الذي لم يُطرَح. و لم يُرد أن يَجرَح قلبها الطيب، و لكنه لا يستطيع أن يخفي ذلك الى الأبد عن تلك العجوز البطلة. و قرأ في عينيها توسلها. تَكَّلمْ! أخبرني بكل شيء! أنا أستطيع تحمله.

و بعد لحظة من الصمت، أخرج تشن كوي كيس التبغ من جيبه و سلّمها إياه و قال: ((يا أُمّنا العزيزة، لقد أعطاني إياه لي شنغ قبل أن يقدم التضحية العظمى، فلا تحزني ...))

لقد كانت الهواجس تخالج قلبها. و مع ذلك فإن الكيس قد هزها هزا عنيفا. إنه لم يذكرها بلي شنغ فحسب بل بآي تشياو و وو مي و بزوجها ... و بالمحنة التي مرَّت بها عائلتها بأسرها. فأحاطت بها الظلمة و هبطت قواها. و لو لم تمسك بشدة بنتوء على جدار الكهف من خلفها لسقطت على الأرض. و قد انصرفت لنفسها لحظات قليلة لتهديء من روعها قبل أن تأخذ الكيس.

و قالت ببطء: ((أنا أعلم، و لكنني أريد أن أسألك ماذا قال لي شنغ قبل أن يموت.))

فقال تشن كوي: ((لقد كان لي شنغ جنديا رائعا، أنه لم يقل شيئا سوى انه يأمل أن ينتقم له ولده عندما يشب.))

و وقف تشانغ تسي الى جانب جدته مندهشا، و كان أطول من تشن بنصف رأس. لقد جعلته حياة الوحدة الطويلة في الجبل قويا شجاعا. و مثل والده كان قليل الكلام أمام الغرباء.

و قالت جدته و هي تشير اليه: ((انه الوحيد الذي بقي من العائلة و بفضله استطعت أن أُدبر أمري و أن أبقى على قيد الحياة و كنت دائما أفكر بأنني أخزن الأرز للجيش الأحمر و أُربي حفيدي لينتقم لنا! فما دام الجيش الأحمر حيا فإن ابني حي!))

و أَخَذَت الكيس و مرت بأصابعها المرتعشة على النجمة الحمراء، ثم حلت الخيط الأحمر و طوقت به عنق حفيدها تشانغ تسي.

و قالت: ((يا طفلي! أحفظه معك. تذكر والدك، تذكر الجيش الأحمر و تذكر ضرورة الانتقام لموتى شعبنا.))[١٧]

و بدا وجه تشانغ تسي عابسا قاسيا. و شد على يد تشن كوي كما تُشُد الملزمة و قال: ((يا عمي خذني معكم!))

و أحَسَّت العجوز شن برجفة خفيفة. لقد دفعتها كلمات الفتى الى لجة الاضطراب و نظرت الى حفيدها، و كان ينظر إليها. و قد حركها التوسل المنبعث من عينيه و آلم قلبها. و مع ذلك كانت تعلم بالنتيجة، تعلم بقرارها أنها تحتاج لعمل! عليها أن تخفف مما يضغط على دماغها و يؤلم قلبها بقيامها بعمل جسماني. و نظرت الى المقاتلين الذين كانوا داخل الكهف و خارجه و الذين كانوا جميعا يتطلعون اليها، و تذكرت المهمة التي كلفها بها تشن كوي. و لكي تبدد ذلك الوجوم أخبرت تشن كوي أين يجد الحطب و الماء و الأرز و أين يمكنكم أن يستريحوا و أخبرت تشانغ تسي أيضا بأن يحتفي بالجيش الأحمر. و قالت بانها تعرف الطريق جيدا و لا تحتاج لأحد يصحبها. ثم شدت معطفها و لفت منديلا بنفسجيا حول رأسها و أخذت عكازها و سارت في الطريق المنحدر المظلم.

و خوفا من أن تصادف أشخاصا يعرفونها، فانها لم تذهب الى قرية شياو شويه بل ذهبت الى قرية هنغ تانغ. و ذهبت الى بعض اقربائها. و عندما رآها الناس هناك

١٧- تُرى هل يتذكر ما يسمى بـ "الحزب الشيوعي العراقي – اللجنة المركزية" الانتقام لشهدائه او يعي ضرورة ذلك؟ الجواب: كلا. انه ليس حزبا ثوريا و لا يمتلك من الشيوعية إلا الاسم! فولاء هذا الحزب لأسياده الروس في موسكو – بغض النظر عن كون من يحكم في موسكو شيوعيا او رأسماليا – و ليس للماركسية اللينينية. فبمكالمة هاتفية من الخائن بريجينييف بدل هذا الحزب موقفه ١٨٠ درجة من نظام البعث الفاشي في عام ١٩٧٣ و مد يده في تلك السنة الى الجلاد صدام حسين و وقع مع المجرم احمد حسن البكر ميثاق جبهة العار و الشنار: جبهة البعث – الشيوعي سيئة الصيت و التي عادت بالدمار على الشيوعية و الشعب في العراق و اكمل البعث الفاشي من خلالها ما بدئه في مذابح سنة ١٩٦٣ المشؤمة من تصفية اليسار العراقي و إبادته. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

بحلقوا فيها و لم يستطيعوا أن يخفوا دهشتهم. و دون أن تجيب على استفهاماتهم حول حياتها في الجبال، سألتهم بسرعة فيما اذا كان الجيش الأبيض قد جاء الى القرية في الفترة الأخيرة؟ و عندما اخبرها أقرباؤها بانه منذ أمد بعيد و القوات البيضاء ترابط هناك أرسلت زفرة عميقة و ألقت بنفسها على مقعد. و جرى بعد ذلك حديث عائلي قطعته قرقعة حوافر الخيل في الخارج فجفلت العجوز و ألصقت عينيها على شق الباب و رأت فرسان العدو يفدون في الظلام نحو الطريق العريض خلف الجبل فأصابها قلق شديد و أنهت حديثها مع أقربائها ببضع كلمات، ثم خرجت على أصابع قدميها من الباب الخلفي، و سارت في الطريق القريب و أخذت تصعد الجبل و تسرع نحو الكهف.

و أخذت تزحف و تركض وسط الظلام في الطريق الوعر، و كثيرا ما كانت تكبو فينخدش وجهها و يداها. و أضاعت عكازها و منديلها و لكنها مضت في طريقها. و عندما وصلت الى الكهف كان رجال الأنصار يتناولون طعامهم.

و قالت و هي تلهث: ((توقفوا عن تناول الطعام، لقد أقبل الجيش الأبيض!)) و أخذت دفقات من النور تنسكب على القمم البعيدة. و من أسفل المنحدر كانت تصل أصوات الأعداء.

فأمر تشن كوي المقاتلين بأن يتركوا طاسات الأرز فورا. و بعد إصدار التعليمات بسرعة انطلقوا ليتسربوا الى مؤخرة العدو على جانبي المنحدر. و قبل أن ينصرف تشن كوي نظر الى العجوز شن لحظة و قال: ((يا أمّنا العزيزة إننا سنلقنهم درسا! عليك أن تنتهي، إنهم وحوش في جلود بشرية!))

و مسحت العجوز شن العرق من على وجهها و أخذت مع تشانغ تسي في ترتيب الكهف و إزالة كل أثر للزائرين. فاخفيا الملاعق و القدر الفخاري و طاسات الأرز. و كنسا حبات الأرز التي بعثرها رجال الأنصار على العشب خارج الكهف. ونثرا التراب الناعم على الأرض التي بللها رجال الأنصار أثناء غسيلهم لثيابهم و أقدامهم و أزالا آثار الأقدام. و طلبت العجوز شن من تشانغ تسي إحضار بعض الأعشاب و

الأغصان الجافة و نشرها على البقع. و في ذلك الوقت استطاعا سماع أصوات البيض الذين كانوا يقتربون. و عند ذلك فقط تحققت تماما من خطورة الوضع. و أخبرت تشانغ تسي أن يدخل في فجوة كائنة في مؤخرة الكهف. و رفض تشانغ تسي قائلا بانه سيحافظ عليها. و لمّا أدركت ان ليس هناك من وقت للمجادلة، دفعته نحو الظلمة بدون ضجة و عادت الى مدخل الكهف، و اذ ذاك كان الفريق الذي يسير في مقدمة الأعداء قد وصل. و كان المرشد هو رئيس الباو نفسه. و لم يتعرف عليها في باديء الأمر. و عندما تأكد بأن العجوز التي تقف أمامه هي نفسها التي أرغمها على الهرب الى الجبال منذ سنين أخذ يهز سوطه و يقول: ((أيتها العجوز الشقية، ألم تفترسكِ الذئاب بعد؟)) و حولت وجهها عنه و لم تجب. ((هل جاء الجيش الرابع الجديد الى هنا؟))

فهزت رأسها نفيا دون أن تنظر إليه ثم أضافت قائلة: ((لا أعرف ماذا تعني بالجيش الرابع الجديد او بالجيش الخامس الجديد!))

و أطلق رئيس الباو ضحكة باردة: ((هه! لا تتغابي! أنا أقصد الجيش الأحمر، الأشقياء الحمر، هل تفهمين؟))

ثم تحولت العجوز شن و نظرت إليه بازدراء و قالت ببرود: ((الجيش الأحمر في كل مكان. جدوه بأنفسكم.))

و تذكر رئيس الباو شيئا ما. و نظر الى مدخل الكف ثم انسحب بسرعة.

((لديكِ حفيد، أليس كذلك؟ أين هو؟))

((وهكذا أنت تريد أن تمحو العائلة كلها؟ حسنا سأخبرك: انه على قيد الحياة و قد أنضم للجيش الأحمر.))

و ضحك رئيس الباو.

((حسنا، سنجده!))

و نفذ صبر رئيس سرية الجيش الأبيض. فدفع رئيس الباو جانبا و صاح: ((فتشوا الكهف و عودوا الى هنا!))

و دخل بعض الجنود البيض، و البنادق في أيديهم، الى الكهف متهيبين و تفرق الآخرون و أخذوا يفتشون المنطقة المحيطة. و وقفت العجوز شن هناك و قد توترت أعصابها جزعا على مصير حفيدها. و سُمِعَ صوت طلقتين يأتي من جوف الكهف و أحست كأن الدم قد جف في قلبها و مرت بضع لحظات و خرج الجنود البيض و معهم الدجاجتان. و قالوا بانه لا يوجد أحد داخل الكهف و بعد هنيهة عاد الجنود الآخرون الذين كانوا يقومون بتفتيش المنطقة المجاورة و قالوا بانهم لم يستطيعوا أن يروا حتى ظل رجل. و اذ ذاك كانت الشمس قد ارتفعت كثيرا فوق الأفق و لمّا تحقق آمر الجيش الأبيض من أن مهمته قد فشلت فشلا ذريعا سأل رئيس الباو غاضبا عن المصدر الذي استقى منه معلوماته.

و ارتبك رئيس الباو. و كان يعتقد بأن معلوماته صحيحة. و حاول أن يستعطفه و قال و هو يحني ظهره: ((يا آمر السرية، مع إننا لم نجد أحدا من الأشقياء الشيوعيين فإننا سنستطيع أن نأخذ هذه المرأة الشقية معنا.))

فنظر آمر السرية الى رئيس الباو بازدراء. ((اذهب الى جهنم! ماذا سنفعل بهذه العجوز الشمطاء؟ شدّوها الى شجرة و دعوا الذئاب تفترسها!))

و قام عدد من الجنود البيض بشد العجوز شن الى شجرة قرب الكهف و قد اوثِقَت يداها الى خلف الجذع. و جاء رئيس الباو و شدَّ الحبل أكثر، و مزَّق قطعة قماش من معطف العجوز شن و حشاها في فمها. و بعد ذلك نزل مع الجنود البيض من الجبل ذليلا مقهورا.

و من داخل الكهف استطاع تشانغ تسي أن يشاهد ما حدث في الخارج. و فيما كانت جدته تُشَد الى الشجرة حاول أن يهجم ليصارع الجنود. و لكنه كظم غيظه. و ما أن أصبح العدو بعيدا عن الأنظار حتى اندفع خارجا.

و أغميَ على العجوز شن عندما حل وثاقها و أخرجت قطعة القماش من فمها. فبعد أن أرسلت زفرة طويلة سقطت على الأرض قرب الشجرة. و لم تفد نداءات تشانغ تسي الحارة في إيقاظها، إنما أيقظها أزير الرصاص الذي كان كطقطقة حبات الفاصوليا. و بذلت جهدا شديدا لتفتح عينيها و نهضت و كان تشانغ تسي يمسك بها من خصرها. و زاد من انفعالها موجة جديدة من اطلاق النار السريع و مشت الى الصخرة بمساعدة حفيدها و تطلعت الى أسفل. و لكن الحرش الكثيف كان يحجب عنها كل شيء. و بعد هنيهة خف أزيز الرصاص. و دوت في الوادي صرخات المعركة العنيفة، ثم خفت الصراخ و ساد السكون.

و كانت العجوز شن متوترة الأعصاب طيلة الوقت ثم نظرت الى الجبل المقابل فرأت علما احمرا يرفرف فوق قمته. و من فرجة بين الأشجار رأت أنصار الجيش الأحمر يسيرون و بعضهم يحمل بندقيتين و تطلعوا نحو الكهف و اخذوا يلوحون بأيديهم.

و التفتت العجوز شن الى تشانغ تسي الذي كان يتململ قلقا بجانبها. و نظر إليها بحنو. و من تعابير وجهها فهم انه نال رضاها فصرخ من أعماق قلبه: ((يا جدتي!)) و عانقها بحنو و بسرعة ثم اندفع في طريق المنحدر نحو رجال الجيش الأحمر.

و بعد أن تحرر شمالي فوكين نزلت العجوز شن من الجبل. و قبل أن تترك الكهف ذهبت الى القمة و هي تتكيء على عكازها و جلست هناك طويلا على البلاطة الكائنة تحت شجرة الدردار.

و عندما قابلت جيرانها مرة أخرى في القرية شاهدت القليل ممن تعرفهم. فمعظم الشباب كانت تراهم لأول مرة. و كان الناس يتحدثون إليها باحترام عميق: ((و هكذا عُدتِ يا أُمّنا العزيزة!))

و كانت عيناها تبتلان بالدموع و تغمغم: ((لقد عدت، لقد عدت! لقد تخلصنا، آه يا أعزاءي إنكم لا تعرفون كم أُحِب جبالنا الحمراء هذه!))